المجلة البطريركية　　السنة العاشرة　　شباط — ايار ١٩٣٥

فخر الدين المعني الثاني

امير لبنان

ادارته وسياسته

١٥٩٠ — ١٦٣٥

بقلم

الخوري بولس قرألي

مدير المجلة البطريركية

نشر برعاية

مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي

بمطبعة القديس بولس — حريصا (لبنان)

١٩٣٧

LA REVUE PATRIARCALE

HISTORIQUE, RELIGIEUSE, LITTÉRAIRE ET SCIENTIFIQUE

PROPRIÉTAIRE - RÉDACTEUR : P. PAUL CARALI

Direction : Zgharta (République Libanaise)

المجلة البطريركية

تاريخية دينية ادبية علمية

لصاحبها ومحررها الخوري بولس قرالي

الادارة : زغرتا . لبنان الشمالي

اشتراكها السنوي

٢١٠ غروش لبنانية سورية في لبنان وسوريا

٦٠ غرشاً صاغاً في القطر المصري

٧٠ فرنكاً فرنسوياً في اوربا

٣ دولارات في اميركا

وكلاؤها

القطر المصري — اسكندر زلزل صاحب مكتبة زلزل وشركاه ٣ ميدان سليمان باشا . مصر

سوريا — القس فرنسيس ايوب . بالقلاية المارونية . حلب

اوربا — Otto Harrassowitz. Querstrasse 14. Leipzig C1_ Allemagne
Kegan Paul, Trench, Trubner & Co Ltd
38 Great Russell Street. London. W. C. I.

اميركا الشمالية — حضرة السيد جورج جرو في بروكلن بقرب نيويورك
Mr George Giraud
201 P. O. Box. Brooklyn. U. S. A.

اميركا الجنوبية — حضرة السيد ميخائيل ناصيف فرح
Sr. Miguel Nassif Farah
Ladeira Porto Geral No. 15
Caixa Postal 1393 San Paolo. Brazil

فخر الدين المعني الثاني

امير لبنان

ادارته وسياسته

١٥٩٠ - ١٦٣٥

بقلم

الخوري بولس قرالي

مدير المجلة البطريركية

اصطلاحات مختصرة

ح　تاريخ لبنان للامير حيدر الشهابي . مطبعة السلام . مصر ١٩٠٠

خ　تاريخ فخر الدين المعني الثاني لاحمد بن محمد الخالدي الصفدي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٣٦

د　تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك اسطفان الدويهي . المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٨

دم　التاريخ ذاته نقلاً عن مخطوطة الفاتيكان رقم ٦٨٣ من المجموعة العربية

رص　راجع صفحة كذا من هذا الجزء

ز　تاريخ الازمنة للبطريرك اسطفان الدويهي . نقلاً عن مخطوطة الفاتيكان الاصلية رقم ٢١٥ من المجموعة السريانية

س　رحلة في السنة ١٦١٠ لجورج سانديس (بالانكليزية) . لندن ١٦٢١

ش　اخبار الاعيان في جبل لبنان للشيخ طنوس الشدياق . بيروت ١٨٥٩

ص　صفحة

ف　فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان، ودولة تسكانا . بقلم الخوري بولس قرألي (بالايطالية) . الجزء الاول . رومية ١٩٣٦

ق　قفا الورقة

مخ　خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر . لمحمد المحبي . القاهرة ١٢٤٨ ه

مع　تاريخ فخر الدين المعني الثاني. تأليف عيسى اسكندر المعلوف . جونيه ١٩٣٤

و　ورقة

المصادر

كان الاباتي طوبيا العنيسي، خادم الطائفة المارونية في مدينة ليڤورنو بايطاليا، قد اتحفنا ببعض رسائل عربية لفخر الدين المعني الثاني امير لبنان، نقلها عن سجل محفوظ في خزانة مدينة فلورنسا الاميرية الخطية، فنشرناها وعلّقنا عليها في مجلتنا البطريركية في بحر السنة ١٩٣٢ . ولما استزدناه منها اخبرنا ان في الخزانة المذكورة سجلاً ضخماً خاصاً بعلائق الامير بدولة تسكانا .

ولما كان أميرنا العظيم صاحب الفضل الاكبر على نهضة لبنان السياسية والاقتصادية والادبية اشتدّ فينا الشوق الى الوقوف بنفسنا على هذه الوثائق . فشددنا الرحال في ربيع السنة ١٩٣٣ الى رومية العظمى، عاصمة ايطاليا والكثلكة، ونزلنا ضيفاً على صديقنا الاباتي لويس عبيد، وكيل الرهبانية الانطونية المارونية لدى الكرسي الرسولي، ومؤسس مدرستها في هذه العاصمة . تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنانه . ولما فاتحنا اولياء الامر وادباءهم برغبتنا في بعث هذه المساند، الراجعة الى تاريخهم وتاريخنا، رحّبوا بنا الترحيب كله، وزوّدونا بالمساعدات الادبية والماديّة .

هبطنا مدينة فلورنسا، قاعدة الأمارة التسكانية، وقصدنا الى خزانتها المذكورة آنفاً، وعكفنا على تصفح السجلات الخاصة بأسرة مديشي، صديقة الامير وحليفته . وما زلنا في بحث وتنقيب حتى تجمع لدينا من الوثائق الثمينة الغير المعروفة عدد وافر كشف النقاب عن امجاد الحقبة الواقعة بين السنة ١٦٠٥، التي بدأت فيها علائق الامير بتلك الاسرة، والسنة ١٦٣٥ التي انطفأت فيها حياته، بعد ان ملأها اعمالاً جبارة في سبيل وحدة لبنان وعظمته ورخائه .

ثم انتقلنا الى خزائن ليڤورنو وبيزا وجنوڤا والبندقية، فلم نجد فيها ما يتعلق بالامير، بيد اننا عثرنا على الشيء الكثير الخطير العائد الى علاقات هذه المدن البحرية بلبنان وسوريا في المدة السابقة واللاحقة عهد الامير، اي من اوائل القرن الثاني عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر . وسننشرها باذن الله في فرصة اخرى .

وعدنا الى فلورنسا فصوّرنا من المساند المكتشفة ما تيسّر لنا تصويره . وبقي

امامنا اربعة سجلات طوت مواد غزيرة تصعب قراءتها مصوّرة، ويقتضي لدرسها والتروّي في محتوياتها الوقت الطويل . فسألنا الحكومة الايطالية ان تتكرم بنقلها الى رومية . فترددت في بادئ الامر، لخوفها عليها، ثم نزلت على طلبنا واتخذت الحيطة الكبيرة لنقل هذه التحف الثمينة، التي لم تخرج من خدرها ثلاثة قرون واكثر .

ولم نكتفِ بهذه الثروة بل عمدنا الى خزانة الفاتيكان الخطية ومكتبتها، والى اضابير مجمع انتشار الايمان المقدس، المعروف بالبروباغنده، والتقطنا منها ما قلّ وغلا عن الامير وعصره ومعاصريه . فاكتملت لدينا سلسلة الوثائق الخاصة بعلاقاته وعلاقات خلفائه بالدولة التسكانية حتى السنة ١٦٥٩، واشتبكت حلقاتها وسطعت انوارها على حوادث تلك الحقبة الخطيرة من تاريخ لبنان والامير وعلى ابطالها ومآتيهم .

واليك بعض الكلام في هذه المصادر :

١ ـ **السجلات المديشية** ـ السجلات المديشية، التي اخذنا عنها، عشرة، اهمها الاربعة الموضوعة في الخزانة تحت الارقام ٤٢٧٤–٤٢٧٧ .

يتألف السجل الاول، الموسوم بالرقم ٤٢٧٤، من احدى عشرة اضبارة غير مجلدة، جلّها ان لم نقل كلها، أصلي . استخرجنا من الاولى والسادسة والحادية عشرة قسماً كبيراً من ملحق كتابنا، الخاص بعلائق فردنان الثاني بحفدة فخر الدين وبأصهاره اللمعيين .

ويحتوي الثاني ذو الرقم ٤٢٧٥ المساند العائدة الى علاقات فردنان الاول بملوك العجم وعلي باشا جانبولاد والي حلب وفخر الدين حليفه، وبموارنة لبنان ويونان قبرس .

اما الثالث الحامل الرقم ٤٢٧٦ والمؤلف من ٦٧٣ ورقة بحجم ٢١ × ٣٠ سنتمتراً، فان استثنينا منه الاوراق ٢٦٠–٢٨٩، المتعلقة بالامير يحيي العثماني، امسى بكامله خاصاً بعلائق فخر الدين بقزما الثاني (١٦١٣–١٦١٥)، وبولده فردنان الثاني (١٦٢٤–١٦٣٥) .

واهم وثائق الحقبة الاخيرة تقارير فرنسيس دا فرتسانو[١] قنصل تسكانا في صيدا، عن حالة لبنان السياسية والتجارية (١٦٣٠–١٦٣٣) .

والرابع الموسوم بالرقم ٤٢٧٧ اضخم هذه السجلات، ولعله اهمها في تاريخ الدولة العثمانية . يطوي بين دفتيه ٧٢٤ ورقة، راجعة الى الحقبة الواقعة بين السنتين ١٥٤٣

---

(١) Da Verrazzano

و١٦٢٢، التي امتازت بثورة العجم على آل عثمان . وهي الثورة التي ضعضعت احوالهم، واوهنت قواهم الحربية واستنفدت خزينتهم، وشجعت تمرد دول البلقان المسيحية عليهم، فانسلخت عنهم الواحدة تلو الاخرى . فضلاً عن انها حملت كثيرين من رعاياهم على العصيان، كفخر الدين في لبنان، وجانبولاد في سوريا، ومصطفى حسين والقلندر في الاناضول، والشيخ مبارك وأباظه باشا في العراق . واطمعت امراء الغرب في التعدي على مراكبهم وثغورهم وشدّ إزر مناوئيهم بالاساطيل والاعتدة والذخائر الحربية .

وفي هذا السجل الاخبار والنوادر الطريفة عن حالة الاستانة واستعداداتها براً وبحراً لرد المخاطر المحدقة بها . وعن حياة سلاطينها ودسائس وزرائهم وجواسيسهم ونسائهم، ومناورات السفراء الاجانب حولهم، وتنازعهم النفوذ والامتيازات لدولهم . واغلب هذه المصادر موضوع بشكل تقارير[١]، كانت ترد الى عاهلي تسكانا واسبانيا من عملائهما السريين في عاصمة آل عثمان والبلاد التي يطمحان اليها . اقتطفنا منها ما يخص موضوعنا[٢] .

٢ ـ **الفاتيكان والبروباغنده** ـ استخرجنا من سجلات خزانة الفاتيكان، وخاصة من مكتبتها، القسم الاكبر من الوثائق العائدة الى علاقات فخر الدين بالكرسي الرسولي في عهدَي بولس الخامس (١٦٠٥–١٦٢١)، واوربانس الثامن (١٦٢٣–١٦٤٤) .

وفي المجموعة البربرينية[٣] من مكتبة الفاتيكان سجل موسوم بالرقم ٧٨١٧، اخذنا عنه كل المصادر الخاصة بسفارة المطران جرجس بن مارون الثانية (١٦٢٧–١٦٣٠)، والثالثة (١٦٣٤) الى دولتي تسكانا والفاتيكان، واكملنا منه ملحق هذا الكتاب الخاص بعلائق دولة تسكانا مع ورثة فخر الدين حتى السنة ١٦٥٩ .

واستقينا من خزانة مجمع انتشار الايمان المقدس المعروف بالبروباغنده[٤]، والمؤسس في السنة ١٦٢٢، المصادر العائدة الى تركة فخر الدين (١٧٢٢–١٧٣٣) . واستعنا بها كثيراً في التعليق .

---

(١) Avvisi

(٢) ف ٩ ـ ١١

(٣) Barberini Latini

(٤) Propaganda Fide

٣ ـ **المراجع** ـ للتعليق على هذه الوثائق عدنا الى مؤلفات عديدة شرقية وغربية، رتبنا لها فهرساً ابجدياً في الجزء الاول من هذا الكتاب، فراجعه[١] . ونكتفي الان بذكر اربعة منها .

أولها واهمها تاريخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي، الذي دوّن ما اتصل به عن الامير « بحسب ما اسنده اليه الرواة الثقاة »[٢] . وزاد عليه ما عرفه بنفسه، لانه كان « متقرباً من الامير »[٣] . ولعله كتب باشارته واستقى من فمه كثيراً من اخباره . فقد قال في الفاتحة « هذا وقد أشار عليَّ من اشارته غنم ومخالفته غرم ان اسطّر ما وقع للامير في زمن توليته علينا »[٤] . وجاء في رحلة الامير الى ايطاليا المنسوبة اليه[٥]، في صدر الكلام عن مدينة بالرمو : « نريد ان نذكر الان جزءاً من تلك البلاد كما انها عظيمة وذكر حضرة الامير مفصلاً »[٦] .

بيد ان تاريخ الخالدي يقتصر على اثنتي عشرة سنة من حياة الامير . فيبدأ بآذار السنة ١٦١٢[٧]، وينتهي في تشرين الاول من السنة ١٦٢٣[٨] . والخالدي توفي في السنة ١٦٢٤[٩] . زِد على ذلك ان ترجمته خالية بتاتاً من المعلومات الخاصة بسياسة الامير الخارجية، ومراميه الواسعة، ومساعيه لدى دول اوربا لمناوأة الدولة العثمانية والاستقلال عنها . حتى ان القارئ يتوهم من كلامه ان الامير كان من اطوع الرعايا للدولة[١٠] ومن اشدهم تمسكاً بالدين الاسلامي[١١]، وان ما اشيع عنه خلافاً لذلك

(١) ف ١٣ ـ ١٧

(٢) خ ٣

(٣) خ ص ح

(٤) خ ٣

(٥) لا نشاطر رأي ناشري الخالدي ان الرحلة ليست له بل دُسَّت عليه . فمقارنتها بين فصاحة الفاتحة وركاكة الرحلة غير كافٍ لرفضها . لان الفرق ظاهر ايضاً بين انشاء الفاتحة وبقية الكتاب . ولعل الامير، او الشيخ خاطر الخازن رفيقه، قد امليا على الخالدي تفاصيل الرحلة فدخل عليها بعض الكلام العامي . فان استثنينا هذا ذهب الفرق بين انشاء الرحلة والترجمة .

(٦) خ ٢٣١

(٧) خ ٥

(٨) خ ٢٠٦

(٩) راجع ترجمة الخالدي في المحبي ١ : ٢٩٧ و ٢٩٨

(١٠) خ ٥

(١١) خ ٢٣٥ و ٢٣٦

تهمة اولدها الحسد[١] . وعذر الخالدي في جهل هذه الناحية من حياة مترَجَمه راجع الى حرص الامير أن يبوح بها الى مقربيـه من المسلمين، لانهم كانوا يتزلون السلطان منزلة خليفة رسولهم . فنحن اول من كشف النقاب عن حياة الامير السياسية .

واستعنا ايضاً بمؤلفَين للمؤرخ المدقق البطريرك اسطفان الدويهي . الاول المطوّل، المعروف بتاريخ الازمنة او تاريخ المسلمين، المستهَلّ بظهور محمد نبي الاسلام في السنة ٥٧١ م . والثاني المختصر البادئ بالحروب الصليبية في السنة ١٠٩٥ م . وكلاهما ينتهيان بحوادث نهاية القرن السابع عشر .

وقد أسعدنا الحظ بالعثور على نسخة تاريخ الازمنة الاصلية . كانت خاصة العلّامة يوسف السمعاني، الذي عاصر الدويهي وشهد انها بخطه . فانتهت منه الى المكتبة الفاتيكانية . وقد صورناها بكاملها، وسنشير اليها هنا بحرف ز . اما الثاني فقد نشر القسم الاكبر منه المرحوم رشيد الشرتوني في السنة ١٨٩٠ . بيد انه شوهه بتحريف عبارته وحذف ما لم يجسر على نشره في عهد الاتراك . ولهذا التاريخ نسخة حسنة في المكتبة الفاتيكانية ترتقي الى السنة ١٦١٠ اخذنا عنهـا صورة شمسية . وسنشير الى نشرة الشرتوني بحرف د (دويهي) والى المخطوطة بحرفي د م (مخطوطة الدويهي) .

وهناك ثلاثة مؤلفات غربية مطبوعة وردناها مراراً . الاول للاب اوجين روجيه[٢] الفرنسوي من رهبان مار فرنسيس . كان مقرباً من الامير وطبيبه في آخر حياته . قضى شطراً من رسالته في لبنان واطلع على احواله واحوال الامير ودوّنها في كتاب اسماه « الارض المقدسة »[٣] جمع فيه فوائد جمة . بيد انه لا يسعنا ان نضع فيه الثقة كلها لنزعته الى الاقصوصة .

وقد نرجع احياناً الى تاريخ الامير ليوحنا ماريتي الايطالي[٤]، الذي قلّب قبلنـا الوثائق المديشية فاصبح ثقة في ما حكاه عن علاقات الامير بدولة تسكانا . واستعان بتقرير المهندس سانتي في ما خص تاريخ الاسرة المعنية وشخصية الامير والحوادث

---

(١) خ ٤

(٢) P. Eugène Roger

(٣) La Terre Sainte

(٤) Mariti

اللبنانية في عهده فوقع في اخطائه . وهو ان خانته الوثائق عمد الى مخيلته فملأ فراغ التاريخ بالاوهام . ونحن نرجع اليه اذا وجدنا ثغرة في المساند، لعله كان اوفر حظاً منا . وقد اخذنا عنه ايضاً وصفه للآثار التي خلفها المهندسون التسكانيون في لبنان، لانه شاهدها بام عينه في غضون زيارتيه للبلاد في السنتين ١٧٦١ و١٧٦٧ .

ولرحلة السائح جرجس سانديس الانكليزي، الذي مر بلبنان في السنة ١٦١٠، قيمة لا يستهان بها . لان المعلومات السابقة السنة ١٦١٢، التي استهل بها الخالدي تاريخه، نادرة . وقد كتب رحلته في عهد مراد باشا القبوجي الصدر الاعظم[1]، الذي توفي في تموز السنة ١٦١١ . فكلامه عن الامير ودولته سابق لهذا التاريخ .

ونحن اذا استشهدنا في هذا الجزء الثاني بمؤلف شرقي أعدنا القارئ اليه رأساً . واذا كان غربياً اكتفينا بالاشارة الى صفحة الجزء الاول من كتابنا، مرفقة بحرف ف، الا اذا كان المرجع غير مذكور فيه .

٤ ـ **الاسلوب** ـ لما كانت قيمة التاريخ في وثائقه، وكانت نصوص اكثر الوثائق الخاصة بموضوعنا باللغات الغربية، خاصة الايطالية، رأينا ان نفرد لها الجزء الاول بكامله، وان نعلّق عليها باللغة نفسها، مكتفين بنقل الوثائق الشرقية اليها . وتنويراً لاذهان القراء وتحاشياً من المراجعات في التعليق، افتتحنا الكتاب بمقدمة بينّا فيها خطة الامير في الادارة والسياسة في مختلف نواحيها . وهو عمل شاقّ كلفنا الوقت الطويل وكبّدنا عرق القربة، لاضطرارنا الى اسناد كل كلمة الى مرجع اصيل، والتقاط هذه المراجع من بطون آلاف من الاوراق الخطية ومئات من المجلدات المطبوعة . وقد كوفئنا على عملنا . لاننا فزنا بترجمة وافية لبطلنا، ووضعنا اساساً متيناً لتاريخ لبنان في عصره الذهبي (١٥٩٠—١٦٣٥)، وبينّا حقه في حياة الاستقلال بحدوده الطبيعية سهلاً وجبلاً.

اما نصوص الوثائق الشرقية من عربية وتركية فقد اودعناها هـذا الجزء الثاني، حيث يجد القارئ كل المعلومات المنشورة في وثائق الجزء الاول، منسقة حسب الموضوع ومقسمة ابواباً وفصولاً وفروعاً . بينما كانت في نصوص الوثائق الاصلية مبعثرة، واحياناً مكررة . ولم نغفل عن تعريب المقدمة واكمالها بما استجد لدينا، ليتسنى لمواطنينا جني فوائدها الجمّة .

---

(١) ص ٢١١

ولما انتهينا من كتابنا قدّمناه لمجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي، على يد المستشرق الضليع الاستاذ كارلو نَلّينو[1]، العضو في هذا المجمع وفي المجمع اللغوي المصري. فرمقه اعضاؤه الاعلام بعين الرضى، وخصصوا لنفقات طبعه مبلغاً لا يستهان به. وسمحوا لنا بان نسحب عدداً كافياً من نسخه نوزعه على مشتركي مجلتنا البطريركية، تعميماً لفائدته بين ابناء الوطن. وهي منحة يقدرها الشرقيون حق قدرها ويشكرون عليها المجمع الايطالي وحكومته الشكر كله. وقد جاءت دليلاً على كرم القوم ورقيهم وتجردهم للعلم دون الغرض.

وهذا ما حدانا الى تقديم الكتاب لرجل هذه الامة الكريمة ورجل العصر، فخامة بنيتو موسوليني، الذي انقذ شعبه بحزمه ودهائه من شر الفوضى المستطير، ورفعه الى مصاف اعظم الدول ثقافة وبسطة وهيبة[2].

صور في ٢٠ حزيران ١٩٣٧

الخوري بولس قرألي

---

(١) Sua Eccellenza Prof. Carlo Alfonso Nallino

(٢) ف ٩ - ١٨.

ترجمة مختصرة لفخر الدين

لما كانت المعلومات الخاصة بترجمة فخر الدين مبعثرة في المقدمة تحت عنواني « الادارة والسياسة » وفروعهما، رأينا ان نصدر كتابنا بترجمة مختصرة لاميرنا، منسقة حسب تاريخ الحوادث، لتدخل ذهن القارئ واضحة فترسخ فيه .

ولد فخر الدين المعني الثاني في السنة ١٥٧٢ من قرقماس معن ابن فخر الدين الاول، ونسب تنوخ . والاسرتان عريقتان في الحسب والنسب، حكمتا في لبنان، الاولى في مطلع القرن الثاني عشر، والثانية منذ اوائل القرن التاسع .

في السنة ١٥٨٤ نُهبت خزنة السلطان في جون عكار، التابعة ليوسف سيفا . فاتفق هذا والشيخ البدوي منصور ابن الفريخ، صاحب البقاع والجليل ونابلس، على الصاق التهمة بدروز الشوف . فاجتاح ابرهيم باشا والي مصر بلادهم وامعن فيها نهباً وتخريباً وقتلاً حتى بلغ عدد القتلى ستين الفاً . اما قرقماس اميرهم فحاول في بادئ الامر استرضاءه ثم عمد الى محاربته . ولما غلب على امره اختبأ في مغارة جزين، حيث توفي عن ولدين، فخر الدين ويونس . فضمن الامير سيف الدين التنوخي خالهما مقاطعة الشوف، الخاصة باسرتهما . ولما كانت السنة ١٥٩٠ استدعى كبيرهما فخر الدين وسلمه اياها، وقوّاه بالمال والرجال .

وفي اواخر السنة ١٥٩٢ مر بصيدا مراد باشا القبوجي في طريقه الى دمشق مقر ولايته الجديدة . فقصد اليه فخر الدين واسترضاه وسأله التوسط لدى السلطان في منحه سنجقيتي بيروت وصيدا وقطع رأس ابن الفريخ، ففعل .

وكانت بيروت قد آلت الى يوسف سيفا، صاحب طرابلس، فتريث حتى نُقل مراد باشا من دمشق، وزحف في السنة ١٥٩٨ بجيش جرار ليستردها . فانتظره فخر الدين وحلفاؤه، من آل شهاب وحرفوش ومقدمي جبيل، في وادي نهر الكلب الضيق، حيث

لا يسع الجيش الكبير الحركة، فكسره . وبعد سنة اصطلح معه، فاعاد اليه بيروت.
وفي السنة ١٦٠٢ فاز فخر الدين بسنجقية صفد، قاعدة الجليل .

وحنث سيفا بالعهد وانتقم في السنة ١٦٠١ من مقدمي جاج ومتاولة البقاع، حلفاء الامير. فواقعه فخر الدين في جونيه في السنة ١٦٠٥ وهزمه، وانتزع منه نهائياً كسروان والفتوح .

وفي السنة ١٦٠٦ حالف فخر الدين علي باشا جانبولاد، مغتصب ولاية حلب، ليدرأ به شر ابن سيفا . ففاز هذا من الباب العالي بلقب سردار سوريا، وجمع على الحليفين جيشاً عرمرماً . فنازلاه في موقعة بقرب حماة واخرى بقرب دمشق وخذلاه . ثم صالحاه على مال وعلى زواج متبادل .

بلغت هذه الحوادث اذني فردنان الاول، غراندوق تسكانا، وكان قد اشهر العداء على تركيا وطمح الى الاستيلاء على سوريا وفلسطين وقبرس، فاوفد في السنة ١٦٠٧ سفيراً يدعى باسيلي قرَيع الحلبي، ليتفق والحليفين على الدولة العثمانية . فوقع السفير مع علي باشا محالفة حربية تجارية في ٣ تشرين الاول من تلك السنة .

ولما انهزم علي باشا من وجه الوزير الاعظم مراد باشا، ارسل الغراندوق سفيراً آخر يدعى هيبوليت ليونسيني، فعقد في السنة ١٦٠٨ مع فخر الدين محالفة تماثل تلك، وضع الغراندوق على اثرها تحت تصرف الامير قطعاً من اسطوله، وزوّده بالاعتدة والذخائر الحربية . وبسط الامير يد الحماية لغلايين صديقه، فأخذت تلجأ الى موانئه وتتمون منها الزاد والماء . وشجع مراكب تسكانا وتجارها على ورود ثغور لبنان، فكانت تبادل مصنوعاتها بمنتوجاته من حرير وقمح وزيت وصابون وحبوب . وتسنى للامير التبسط جنوباً حتى بلغ، على شهادة الرحالة سانديس الذي مر بلبنان في السنة ١٦١٠، « أسفل جبل الكرمل، ضاماً غزير وبيروت وصيدا وصور وعكا وصفد ودير القمر والشقيف وبانياس والحولة وبحيرة طبريه والناصرة وقانا وجبل طابور[1] » .

بيد ان توسع الامير، ولاسيا علاقته بدولة تسكانا، اثارت شبهات السلطان فيه، واخذ يتأهب لسحقه . ففكر الامير ان يدرأ الخطر قبل ان يدهمه واوفد في السنة ١٦١١ المطران جرجس بن مارون الاهدني، بتوصية من البطريرك يوحنا مخلوف، ليعقد

(١) ص ٢١١

مع قزما الثاني عاهل تسكانا، وبولس الخامس بابا رومية، اتفاقاً على احتلال الاراضي المقدسة، فيجعل في جنبه دولة صديقة قوية تساعده على الوقوف في وجه تركيا .

وفي تموز تلك السنة توفي مراد باشا الصدر الاعظم صديقه، وخلفه نصوح باشا عدوه، الذي تول حلب في السنة ١٦١٢ . فاقنعه احمد باشا الحافظ والي دمشق ان ينزع سنجقيتي حوران وعجلون من عمرو شيخ عرب المفارجه، وحمدان قانصوه، حليفي فخر الدين، نكاية فيه . فاعادهما الامير قوة وجبراً الى سنجقيتيهما . الامر الذي حمل الوزير على تجريد حملة قوية عليه براً وبحراً في صيف السنة ١٦١٣ . فلم يشأ الامير اشهار العصيان على الدولة بل جهز قلاعه بالذخائر والمال والرجال، ليكفل ثباتها خمس سنين، وسلم اخاه يونس قيادة الجيش واقلع الى ايطاليا مستصحباً زوجته خاصكيه بنت الظافري ومستشاره الحاج كيوان بن عبدالله .

بلغ ليڤورنو ميناء تسكانا في الثالث من تشرين الثاني ١٦١٣ . فاستقبله عاهلها قزما الثاني بالترحاب وأضافه مع ذويه وحاشيته وسعى لدى امراء اوربا بتجريد حملة يترأسها الامير لتعيده الى دولته وتحتل بقيادته الارض المقدسة . وكانت عقارب الخلاف دابّة بين الامراء المسيحيين . فلما ذهبت جهود قزما عبثاً عين للامير في عاصمته فلورنسا قصراً فخماً لنزوله ومبلغاً كافياً لنفقاته .

وفي السنة ١٦١٤ حنق السلطان على نصوح باشا فخنقه واستخلفه بمحمد باشا . وكان صديقاً للامير فنال له العفو والعود الى مملكته . بيد أن فرمان العفو وصل الى تسكانا بعد ان غادرها الامير، في آب ١٦١٥، الى مسينا في صقلية، نزولاً على دعوة الدوق دُسونا، نائب ملك اسبانيا فيها . ومن مسينا ركب الامير احد غلايين الدوق الى صيدا، حيث وجد ابنه الامير علي معيناً مكانه في حكم البلاد، واطمأن الى ذويه ووطنه . وعرج في عودته على جزيرة مالطا، فاستقبله فرسانها استقبالاً شائقاً .

وفي ايلول السنة ١٦١٨ عاد الامير الى لبنان مصمماً على خراب ابن سيفا، الذي استمر في غيابه نكبته، واستولى على كسروان والفتوح، وحاول حرق قصره في دير القمر . ففي كانون الاول من السنة عينها ركب فخر الدين عليه فدحر جيشه وحاصره في قلعة حصن الاكراد ودك قصوره وقصور ذويه في عكار . ولم ينفك عنه حتى

غرّمه مبلغاً جسيماً من المال . وفي عودته عنه وضع يده على مقاطعتي البترون وجبيل . وفي السنة ١٦٢٢ سلخ منه جبة بشري .

وفي السنة عينها فاز من الباب العالي بسنجقيتي عجلون ونابلس . بيد ان يونس حرفوش، صاحب البقاع، خان عهده والقرابة، واغرى مصطفى باشا والي دمشق، فامتنع عن تسليمه السنجقيتين. وزاد على ذلك ان جمع عليه من رجال اعدائه السيفليين واليمنيين والعرب والدمشقيين اثني عشر الفاً، ليستولي على مملكته . فقصد الامير اليهم باربعة آلاف وهاجمهم في عنجر في الثالث من تشرين الثاني ١٦٢٣، ومزقهم شر تمزيق، وقبض على مصطفى باشا . بيد انه عامله بالحسنى فأقره الباشا على سنجقياته واضاف اليه البقاع وغزه .

ولما اطمأن الامير من هذه الناحية تحوّل على ابن سيفا ليهد ما بقي له من القوى . فشد إزر عثمان باشا الكتانجي، الذي عينه الباب العالي لتحصيل الاموال المتأخرة على سيفا، وفاز منه بعكار والضنيه .

وفي ٢٠ تموز ١٦٢٥ مات يوسف باشا سيفا . فأسرع الامير الى طرابلس واستباحها نهباً اربعين يوماً متوالية، وتحوّل على اولاد يوسف سيفا، فاسترضوه بقلعتي الحصن والمرقب .

فلم يرَ الباب العالي لراحة البلاد وضمان اموالها اوفق من اطلاق يد الامير في حكمها . فمنحه في صيف ١٦٢٤ لقب « سلطان البر »، الذي حمله جده فخر الدين الاول، وبسط سلطته على سوريا بكاملها وفلسطين، من الاناضول حتى رمال مصر .

وما ان تسلم الامير البيلوردي المؤذن بذلك حتى نهض على رأس حملة من رجاله فجال في سوريا وفلسطين من اقصائها الى اقصائها، مجتاحاً بلاد العلويين، مجتازاً صحراء تدمر الى حلب وانطاكية، مرتباً امور مملكته الواسعة، كابحاً جماح العصاة، قاطعاً دابر الاشقياء، مرمماً الاسوار والابراج والحصون والقلاع، ومحصنها ومجهزها بالاعتدة والزاد والرجال . فخضعت لامره الرعية والسناجق والولاة، وخيم الامن على طول البلاد وعرضها، ونشر العدل لواءه، ومشت السابلة والقوافل وذاقت العباد عشر سنين متوالية طعم الراحة والرفاهية .

وفي السنة ١٦٢٧ فاز باسم ولده حسين بباشوية طرابلس وهمّ حالاً باصلاح حالها وتنشيط تجارتها وزراعتها .

بقي عليه تأمين هذه الفتوحات من « اختلال الاحكام » في عاصمة الامبراطورية العثمانية، وتبديل وزرائها وجور سلاطينها . ففكر للمرة الثالثة بمشروع اعادة مملكتي اورشليم وقبرس المسيحيتين . فتقوم على حدوده الجنوبية دولة حليفة عزيزة الجانب، وتصبح جزيرة قبرس قاعدة لاسطول يحمي شواطئه المعرضة لهجمات العمارة العثمانية، الى ان يتسنى له انشاء اسطول لبناني قوي يقف في وجهها ويردّ غاراتها . فكتب بهذا الصدد في السنة ١٦٢٣ الى دوق البوكركي، نائب ملك اسبانيا في صقلية، وفي السنة ١٦٢٤ الى البابا اوربانس الثامن، والى غراندوقة وارشيدوقة تسكانا، الوصيتين على فردنان الثاني . واوفد في السنة ١٦٢٧ المطران جرجس بن مارون لملاحقة هذا المشروع الخطير .

وفي اواخر السنة ١٦٢٩ نشط الامير الى تجديد العلائق السياسية والتجارية بدولة تسكانا . فاوفد اليها السفراء والوكلاء وبادل مصنوعاتها، من اقمشة واسلحة وذخائر، بالمصنوعات اللبنانية . واستقدم منها المهندسين والفنيين والخبراء في فنون الحرب والزراعة . فعملوا على بناء الجسور والاقنية وتدريب الفلاح على اقرب الاساليب في استثمار الارض، والجيش على احسن طرق القتال . فاقام الامير بمساعدتهم الجنائن والقصور . وتابع بناء القلاع والابراج او ترميمها وجهزها بالاسلحة والرجال حتى تجاوزت الاربعين وتجاوز جيشه مئة الف . قال المحبي « ولم يبقَ وراءه، الا دعوى السلطنة »[1] .

وهذا ما حدا حساده الى التآمر على اهلاكه . فوشوا به الى السلطان مراد الرابع انه طامع بعرش السلطنة . فجهز عليه عمارة قوية بحرًا وجيشًا عظيمًا برًا بقيادة احمد كجك باشا والي دمشق، الذي كان ربيب الامير ومن موظفيه السابقين . فاقنع فخر الدين مستشاروه بان يسترضيه بدلاً من ان يقاومه . فاسترضاه بالمال وبتسليم قلعتي صيدا وبيروت اكتساباً للثقة والوقت، وارسل خفية المطران جرجس بن مارون الى ايطاليا طالباً نجدة بحرية، واثقاً من نفسه ان يصمد وحده في البر امام القوة الهاجمة .

بيد ان النجدة لم تصل في وقتها فأسر الامير وقيد الى الاستانة، حيث دافع عن نفسه دفاعاً بليغاً فعفا عنه السلطان . حتى قام حفيده الامير ملحم بهجمة على القوات

(١) مح ٣ : ٢٦٧ و ٣٨٦

العثمانية المحتلة لبنان، فاصدر مراد الرابع امراً بقطع راس فخر الدين وقتل بنيه وذويه . وكان مصرعه في ١٣ نيسان ١٦٣٥ .

اما عمله فلم يهلك معه . فقد ضمن لورثائه ملكاً ثبت اكثر من قرنين، ولبلاده الوحدة التي تتمتع بها الان الجمهورية اللبنانية، فضلاً عن الاستقلال والراحة والرفاهية والثروة الزراعية والتجارية، والازدهار في العلوم . حتى اصبح لبنان محور النهضة الادبية في الشرق الادنى[١] .

وسيتحقق القارئ قولنا من مطالعة هذا الكتاب .

---

(١) ف ١٧ - ٢١

مقدمة

في الثالث عشر من نيسان السنة ١٩٣٥ المنصرمة، أتمت عجلة الزمـان الابدية دورة القرن الثالث على مصرع فخر الدين المعني الثاني، أمير لبنان والجليل، وحاكم سوريا.

ثلاثمائة عام، ملأى بالحوادث التاريخية الخطيرة، واعمال الرجال العظام، واختراعات العلماء المدهشة، لم تقوَ على أن تمحو من ذهن الاجيال، التي تعاقبت على مصرع الامير، ذكراه المجيدة. بل قد انتعشت الان هـذه الذكرى وجددت شبابها بما نشر عنه في السنتين الاخيرتين من الابحاث والوثائق الخطية والمؤلفات[1].

استولت الخرافة على شخصية الامير الكبيرة وهو ما زال حياً يرزق، واستمرت طيلة هذه القرون تنسج حولهـا كالعنكبوت خيوطها الفضية، حتى اصبحت هالة تبهر بلمعانها أحدّ المؤرخين بصراً، وأدقهم بحثاً.

واجتازت شهرته الى الغرب، حيث لعبت ايضاً الخرافة والقصة دورهما. قال المؤرخ هامر في تاريخ السلطنة العثمانية «ذاع صيت فخر الدين في اوربا بالقصـة التي وضعها الروائي هاملتون». وقال في محل آخر «وكانت شهرته قد طبقت آسيا واوربا». وقال الاب روجيه «ان اعمال فخر الدين المجيدة خلقت له شهرة عبرت من آسيا الى اوربا». وقال الاب جلوبوفتش[2] «جميع الذين كتبوا في تاريخ الدولة العثمانية ذكروا مآتي فخر الدين. بيد انك لا تجد كاتبين متفقين في القول. تعددت عن الامير الدرزي الخرافات والقصص فلم يمثله لنا احد بصورته الحقيقية».

---

(١) نعني هنا تاريخ الامير فخر الدين للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف. مطبعة المرسلين اللبنانيين ١٩٣٥. ورحلة الامير الى ايطاليا التي نشرهـا الاستاذ شفيق غربال في مجلة كلية الاداب للجامعة المصرية. مايو ١٩٣٤. ومحاضرة الاستاذ حسن عثمان امـام هيئة كلية الاداب المذكورة. ومخطوط احمد الخالدي الصفدي في تاريخ الامـير، الذي نشره الاستاذان اسد رستم وفؤاد افرام البستاني في المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٦، ورواية تمثيلية وضعت حديثاً.

(٢) Hammer. Hamilton. Golubovitch

وقد ترجمه من الغربيين يوحنا ماريتي بالايطالية (في السنة ١٧٨٦)، ووستنفلد بالالمانية (١٨٨٦)، والاب روجيه (١٦٦٤)، وبوجيه دسان بيير (١٧٦٢) بالفرنسوية[١]

ولما كانت ذكرى اميرنا العظيم ملكاً للتاريخ رأينا ان ننزع عنها خيوط الخرافة الواهية الكاذبة ونبرزها امام اعين الاجيال الحاضرة والقادمة بمظهرها الحقيقي الجدير بشخصيته السامية . وهو مظهر لا يقل روعة وبهاء عن الخيال . فاخذنا ننقب في خبايا التاريخ وزواياه عن اخلاقه واعماله . ولما تكدست امامنا آراء معاصريه انقلبت شخصيته الى أحجية ذات وجهين متناقضين شكلاً ومعدناً . وصفه بعضهم مقداماً، شهماً، حليماً، عادلاً، كريماً، عفيف النفس واللسان، رصيناً، شجاعاً، ذكي الفؤاد، راجح العقل، واسع الصدر، ثابت الرأي والجنان . وصوّره غيرهم جباناً، لئيماً، متقلباً، بخيلاً، ظالماً، جشعاً . ففي اي جانب وقفت الحقيقة ؟

اذا صدّقنا الوثائق المعاصرة، التي اكتشفناها صدفةً، ونشرناها في هذا الكتاب باعتبار اهميتها التاريخية لا الجدلية، تحققنا ان لبنان لم يبلغ يوماً القوة والراحة والرخاء التي بلغها في برهة السنين الخمس والاربعين، التي تسلم فخر الدين في اثنائها زمامه . وان هذه الرفعة وهذا التقدم عائدان الى حكمته وبأسه ووطنيته .

اذن لقد كان عظيماً وحقّ لذكراه الخلود . وان ادّعى امرؤ خلاف ذلك فقد جهله، او بالاحرى جهل عصره ومحيطه . فاليهما تنسب بعض الشوائب، التي قد نعثر بها في ترجمته . ويجدر بنا القول ان انحطاط محيطه يُبرز مزاياه لامعة، من عزة نفس، وقوة ارادة، وصدق كلمة، وثبات جنان وحلم وعدل ودعة، وفطنة خارقة في ادارة دفة البلاد السياسية والعمرانية . وهي مزايا نادرة في عهده بل فريدة بين ولاة الامبراطورية العثمانية .

ولنستعرض الآن طريقته في ادارة البلاد داخلاً وسياستها خارجاً، فنتحقق صدق هذا الكلام[٢] .

---

(١) راجع فهرس المصادر ف ١٦ و١٧ F. Wüstenfeld. Puget de Saint Pierre.

(٢) ف ٢٣ و٢٦

الفصل الاول

الادارة

الباب الاول - الاخلاق

١ - رسم الامير - لا بد لنا ان نتعرف الى الرجل لنعرف سر نجاحه . من امعن النظر في رسم الامير، الذي صدَّرنا به الجزء الاول من هذا الكتاب، توسّم فيه النجابة والبشاشة وصفاء السريرة، مقرونة بالشجاعة والأنفة والحزم والمروءة .

اخذنا هذا الرسم عن كتاب ماريتي، الذي أخذه بدوره، كما نظن، عن صورة اصلية للرسَّام لبلو[1]، كما تنبئ الكتابة المنقوشة في اسفلها . وعثرنا على رسالة وجهها في ٢٠ تموز من السنة ١٦٥٩ الشيخ ابو نوفل الخازن، الذي قضى ثلاثة اعوام في تسكانا[2]، الى فردنان الثاني، يسأله فيها باسم الاميرين احمد وقرقماس معن « ان يسمح للاباء اليسوعيين بان يحملوا اليهم صورة جدهم فخر الدين المعلقة في قصره، او ان يستنسخوها » . فالرسم الذي نشره ماريتي في السنة ١٧٨٧ دليل على ان الصورة كانت باقية الى ذلك العهد .

وعبثاً حاولنا العثور عليها . فتشنا عنها بنفسنا بين الرسوم المحفوظة في قصور آل مديتشي بفلورنسا . وكلف مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي ادارة المتاحف الاميرية في هذه المدينة البحث عنها، فذهبت جهودها باطلاً . على اننا ما زلنا نعلل النفس ببقائها في احد القصور المديشية الخارجة عن فلورنسا، لان القوم شديدو الحرص على كل شيء له قيمة علمية او فنية او تاريخية .

---

(١) Libleau

(٢) ١٦٣٥ - ١٦٣٧

وقد حلّينا الرسم بإطار جميل نقلناه عن عنوان ديوان لبهاء الدين زهير، وجدناه بين مخطوطات المكتبة الڤاتيكانية، كان « الامير قد امر في السنة ١٥٩٩ محيي الدين النقاش بتجديده، ليكون في خزانته العامرة » . فجاء العنوان آية في الاتقان شكلاً والواناً .

وعلى قفا ورقة العنوان كتب العلامة جبرايل فرحات بخطه الكريم « وقفاً مؤبداً برسم اخوية الرهبان اللبنانيين » . ولما كانت مكتبة المدرسة المارونية برومية أودعت بعد خرابها مدرسة البروباغنده، وانتقلت بدورها مخطوطات هذه المدرسة في السنة ١٩٠٣ الى المكتبة الڤاتيكانية، جاز لنا الترجيح أن فرحات، الذي أمّ رومية في السنة ١٧١١[١]، ترك هذا المخطوط الثمين للمدرسة المارونية المذكورة، التي آلت مخطوطاتها الى المكتبة الڤاتيكانية، حيث تؤلف الآن قسماً مهماً من المجموعة البورجيانية في فرعيها السرياني والعربي[٢] .

٢ ـ اراء متناقضة ـ هذا رأينا في رسم الامير، اما رأي الكتبة في اخلاقه فعلى طرفي نقيض . فهم ينسبون اليه مزايا ومعايب يستحيل اجتماعها في شخص واحد . فحق لنا ان نثق بالمعاصرين الذين عرفوه وعاشروه اكثر من الذين لحوه او سمعوا عنه .

واليك ما كتب عنه الخالدي مترجمه ومعاصره « صاحب هذه السيرة سليم الصدر . صافي السريرة . متواضع . بشوش . وهو في حلبة الطعان عبوس . هيّوش . حليم عند الغضب . ما سُمعت عنه الكلمة الفاحشة قط . ولا لادنى من يكون من اولاد العرب . يصغي الى المظلوم فينصفه من ظالمه ويرثي لحاله فيكون له خير راحم . . . ربع القامة . حنطي اللون . لطيف الهامة . مهاب . جليل . ذو عطاء جزيل . يُباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط اموالها . ويتقن امورها بقوة حدسه . قوي العزم . شديد الحزم . حسن التدبير . وكما يعطف على الغني يحنو على الفقير . مطيع لله وللسلطان . يؤدي ما عليه من الاموال في كل آن[٣] » .

(١) راجع كتابنا اللآلي في حياة المطران عبدالله قرألي ص ١٣٧

(٢) ف ٢١ و ٢٢ . Borgiano arabo. Borgiano Siriaco

(٣) خ ٣ و ٤

ووصفه الاب روجيه طبيبه الخاص بقوله « كان حادّ البصر والفهم، شجاعاً لا يُغلَب، ميالاً الى العلم، متضلعاً من معرفة النجوم والفلسفة الخفيَّة، التي أخذها عن والدته . منكبّاً على درس الكيمياء . عرّب عن الايطالية كتاب ماتيولي[1] وعلق عليه . كان يهوى تشييد القصور الفخمة والجنائن الغناء . كلّف مصوراً فرنسوياً ان يرسم له الحشائش والنباتات المختلفة باصولها وفروعها واوراقها . فرسم له منها الف وخمسمائة بالوانها الطبيعية الزاهية . وقد كافأه بعطاء جزيل » .

اما يوحنا سانتي[2] احد مهندسي البعثة، التي اوفدها الغراندوق قزما الثاني الى لبنان في السنة ١٦١٤ حين كان الامير نازلاً ضيفاً عليه، فقد ترك لنا عنه وصفاً مشوّشاً، معقداً، متناقضاً، ان لم نقل كاذباً . قال في تقريره « يعتبر الجميع فخر الدين اميراً ذا بأس واقدام، للحروب التي أثارها على السلطان . ومع انه ظالم، يسلب رعاياه ما جمعوه بعناء، تراه محبوباً منهم، لانه يوفّر لجنوده الفرص للكسب والسلب، وهو مهاب، لشدة وطأته على المجرمين . ميال الى الحرب والطعان . لكنه بخيل، قاس، دنيء . قامته متوسطة نازعة الى القصر . اسمر البشرة . أسود الشعر . قوي العضل . صبور على التعب والشدائد . وما زال في ريعان الكهولة » .

بيد ان كارلو ماشنجي[3]، رئيس البعثة نفسها، خالف رفيقه سانتي واصاب المرمى بقوله عن الامير انه « محبوب جداً من رعاياه لعطفه عليهم وملاطفته لهم . وهو مهاب من اعدائه لانهم خبروا بأسه وحنكته في مواقع كثيرة » .

ولما عادت البعثة الى تسكانا ذهب برفقتها الشيخ يزبك بن العفيف من اعيان الشوف . ولدى وصوله قدم للغراندوق تقريراً عن الحالة في لبنان بعد غياب فخر الدين قال فيه « انا رسول جميع اللبنانيين الى الامير لاؤكد له بقاءهم على عهد الولاء، ولاسأله باسمهم العود الى الوطن، حيث يجدهم قلوباً متلهفة شوقاً لرؤياه، مستعدين لبذل المهج والمال حفظاً لحياته وحياة انجاله، وتعزيزاً لشوكته، وتعضيداً لمساعيه[4]» .

---

(١) Andrea Mattioli

(٢) Giovan Battista Santi

(٣) Carlo Macinghi

(٤) خ ٣٢ و ف ٢٥ و ٢٦

٣ ـ **حل الاحجية** ـ اما بقية الوثائق المديشية فتنشطر آراؤهـا في الامير شطرين متناقضين، الاول عليه والثاني معه، مما يدل على تحسن في جانبه . فالراجع منها الى سني الامير الاخيرة (١٦٢٩—١٦٣٥) تمثله لنا صديقاً مخلصاً، شهماً، مقداماً، كريماً، وسياسياً محنكاً وحاكماً عادلاً غيوراً على امته، فريداً بمزاياه في الشرق . بعكس المساند الراقية الى السنين التي قضاها الامير في ضيافة الغراندوق، (١٦١٣—١٦١٥) أعزل، طريداً، لا حول له ولا طول، فقد صورته لنا « قليل الفطنة والذوق، ضعيف الارادة، جباناً، دنيء النفس، متوحشاً » . وان دققت في الداعي لتسويد صحيفته على هذا الشكل علمتَ ان وزراء الغراندوق ارادوا استثماره، تعويضاً لسيدهم عن نفقات الضيافة، فاقترحوا عليه ان يسلمهم قلاعه وثغوره، وان يشهر على الدولة العثمانية حرباً عواناً . ولما كان الامير اخبر منهم بقوة السلطان، أفهمهم انه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل ارضائهم، انما التضحية بذويه وبلاده، وبجنود الغراندوق وامواله، مغامرة لا فائدة منها . فتبرّموا منه، وعدّوا حذره جبناً، والعود الى رأيه تقلباً وضعفاً . فقال الاميرال انجرامي « لما كان الامير متوحشاً، فهو لا يقصد من طلباته المختلفـة سوى تكبيد الغراندوق النفقات الطائلة بلا طائل » . وقال اوزمباردي وزيرهُ « جميع المبالغ التي تنفق في سبيل الامير مطروحة في البحر » . وقال جويدي[1] كاتب اسراره « الوقت والمال ضائعان في سبيل الامير . وحبذا لو توقف الامر عند هذا الحدّ » .

بيد ان الغراندوق قزما الثاني كان ارفع نفساً من وزرائه، فلم يعبأ بتبرماتهم، بل واصل الامير بالضيافة والمجاملة والمساعدات الادبية والمالية ما استطاع الى ذلك سبيلاً، قائلاً بنفسه « هذه شيمة اسرتي . وانا واثق ان العناية الالهية تعرف كيف تعوض علي وعلى دولتي والنصرانية جمعاء » .

وقد كافأه فخر الدين على حسن صنيعه اضعافاً . لان هذا الامير « المتوحش » على زعمهم، حفظ له ولاسرته الجميل حياته كلها . وهي عاطفة لا تنزل الا نفساً شريفة، رقيقة الشعور . ففي أوج عزه وصولته كان يكتب اليهم « انا واولادي وشعبي وبلادي رهن اشارتكم . مالي وخزنتي تحت تصرفكم » .

(1) Ingherami. Usimbardi. Guidi.

ولم يكن كلامه محض مجاملة . فقد سعى السعي الحثيث وراء مصالح الاسرة المديشية ورعاياها فحمى تجارتها ونشطها . وادلى الى مراكبها بالمعلومات السرية لينجيها من مفاجئات العمارة العثمانية، ويمكنها من الغزوات الموفقة، التي كانت اسلابها تتجاوز احياناً الملايين. ناهيك عن الهدايا الثمينة التي كان يرسلها في كل فرصة اليها من اصائل الخيل، وقناطير الحرير، وغيره . حتى ان الغراندوقة والدة قزما المذكور كتبت اليه مرة « ان نفسي تصغر عندما ارى عجزي عن مجاراة كرمك المتجاوز الحدّ » .

كفى هذا لتكذيب المهندس سانتي في ما لصقه بالامير من معايب البخل . وستلتقي في كتابنا بشواهد عديدة عن سخائه على المشاريع العمرانية، وعلى وزراء السلطان وكبار دولته وعلى ضيوفه واحبائه واهل بيته ورعيته .

ونقتصر هنا على ايراد فقرة يكذب فيها سانتي نفسه بنفسه . قال في تقريره عن مالية الامير « يتحمّل الامير نفقات باهظة في بسط سماطه كل صباح للعابر والحاضر، يجلس اليه كل من شاء . حتى اذا نهض الفوج تلاه الآخر الى ان ينتهي الجميع من الاكل . وهو يتصدر هذه الموائد الشعبية بنفسه . وهذه المجاملة تحمل الرعية على محبته » . وقد نسي حضرته ان في وسع « حاكم ظالم، دنيء، بخيل » ان يلقي في قلب الرعية هيبته لا محبته[1] .

٤ ـ ثبات وشجاعة ـ كان الامير اذا اقدم على امر لاحقه بقدم ثابتة . فصدق فيه قول الاب روجيه « كان ذا شجاعة لا تُقهر » . وهذا لا يعني انفراده بالرأي واهماله المشورة . فقد كان يلجأ في كل امر خطير الى رأي وزرائه ومقرّبيه، وعلى الاخص والدته « الست نسب »، وكانت على جانب كبير من رجاحة العقل والشجاعة . وسيرى القارئ ان اكبر غلطات حياته اثنتان، الاولى عائدة الى مستشاره الحاج كيوان، وقد كلفته غربة خمس سنين، والثانية الى مجلس شوراه، وقد كلفته رأسه . بيد انه وهو في طريقه الى المنفى قال لذويه « اذا قدّر الله ووقعت في ايدي الاعداء . لا تسلموهم القلاع ولو وعدوكم باطلاق سبيلي »[2] .

---

(١) ف ٢٦ ـ ٢٩ . راجع ايضاً في ضيافة الامير وكرمه خ ٩ و٨٧ و١٠٦

(٢) خ ١٣

اما اذا اقتنع بفائدة مشروع لوطنه، وضع له الخطط السديدة وسعى وراءه بعزم لا يفله الحديد، غير عابئ بوقت او مال او حياة . فكر وهو في اول امره بالوحدة اللبنانية، وكان دونها ركوب الاهوال وبذل المهج والاموال . فما زال وراءها اثنتين وثلاثين سنة حتى اتمها، فضم تحت لوائه خمس عشرة مقاطعة، منتزعاً اياها من براثن ابن سيفا وابن الفريخ صاحبي البطش والدهاء والاموال المذخرة والجيوش الجرارة . ولم يكتفِ بحدود لبنان الطبيعية بل تجاوزها حتى أدنه في الاناضول شمالاً ورمال مصر جنوباً . وعرف كيف يحافظ على هذه المملكة الواسعة حتى آخر حياته . قل لي بربك أيفكر اميرٌ ضعيف الارادة متقلب في اقتحام هذا الميدان الوعر، وان فكر فيه أيجرؤ على خوض غباره ووعوره ؟

وبجانب هذا المشروع الذي تنوء تحت ثقله جبابرة العمل وضع نصب عينيه هدفاً لا يقل عنه خطورة وخطراً، الا وهو تأمين فتوحاته من عسف الباب العالي وتقلب سياسته وتبدل وزرائه ببعث مملكتي اورشليم وقبرس المسيحيتين ومحالفتهما عليه . ومع ما ذاقه مراراً من مرارة خيبة الآمال في الامراء المسيحيين المنشقين على أنفسهم لم ينثنِ له عزم في ملاحقة هدفه الاعلى الحياة كلها، وتمهيد السبل الى تحقيقه . حتى لو شاء هؤلاء الامراء النزول على رأيه لسلمهم اورشليم يداً بيد .

اما شجاعته فحدث عنها ولا حرج عليك . لان النصر الذي حالفه في جميع المعامع التي خاضها كان راجعاً الى بطشه ويقظته وحنكته الحربية . قاد في اواخر السنة ١٦١٨ ثلثمائة من رجاله في طرق وعرة وليلة حالكة الظلام قارسة البرد منهمرة الامطار حتى الى عكار عاصمة ابن سيفا، ليقبض عليه في وكره . فهرب سيفا وصفّ له اربعة آلاف رجل امام حصن الاكراد . فهاجمهم الامير بألف وشتت شملهم[1] . ووقعت فرقة من جنوده في كمين في ميناء طرابلس « في ارض منكشفة وكان العدو متستراً بين المتاريس . فركب الامير في خمسين خيالاً وتوجه مثل هبوب الريح . ومع وصوله سحب سيفه وركض بنفسه على رجال ابن سيفا في المتاريس وضرب البندق مثل المطر، فقلعهم من مواضعهم وكسرهم بنفسه وحال بين المشاة والابراج . فبطل ضرب البندق وما عاد الا ضرب السيف. فقتل من جماعة ابن سيفا عدداً كثيراً وفر

(١) خ ٧٣-٧٦

غالبهم وما امكنهم الوصول الى الابراج الا بعد الجهد الجهيد . وعاد الامير الى طرابلس منصوراً[١] .

وكان ذا رباطة جأش مذهلة . ففي السنة ١٦٢٢ انكسر جيشه في صحراء فلسطين امام العرب . قال الخالدي « اما الامير فخر الدين فانه لما رأى جماعته انكسرت حفظ عنده بيرقاً واحداً ولم يوجد معه الا ثلاثين خيالاً ولم يعطِ كسيرة كما فعل غيره بل ظل ماشياً على هيئته حتى ان خيالة العدو كانت سابقته مقدار مضمار فرس تابعين المنهزمين وهو ماشٍ بالسكينة والوقار ... وما راح من الثقل والحمول لعسكر ابن معن شي اصلًا لان الامير فخر الدين كان ضابطاً قفا العسكر . ولولا ثباته ذلك النهار وتلك الليلة لربما حصل لعسكره البوار لانه كان صار لهم وهم عظيم ومـا بقي احد يسمع كلام احد[٢] » .

وفي السنة نفسها ضرب خيمته على تل الهريج بقرب صفد، وثابر شهراً كاملًا يستعجل بناء سوره، والارياح المسمة تلفحه والحمى الخبيثة تأكل اضلاعه[٣] .

وفي السنة ١٦٢٣ اقتحم في سهل عنجر باربعة آلاف الجيش الدمشقي المؤلف من اثني عشر الفاً، وفي مقدمته فرسان الانكشارية . وكانت ترتعد لذكرهم الفرائص . فمزقهم شر تمزيق وقبض على قائدهم مصطفى باشا كمن يقبض على عصفور في قفص[٤] . ثم قصد الى قلعة بعلبك الجبارة وظل اربعين يوماً يعدّ بنفسه معدّات حصارهـا تحت وابل من الرصاص والقذائف[٥] . ولو اردنا تعداد الشواهد في هذا الجانب لاتينا على حوادث حياته كلها . فلندع للقارئ التثبت من كلامنا في سياق مطالعته هذا الكتاب .

٥ ـ مزايا اخرى ـ وكان لهذا « الظالم المتوحش » قلب حنون رقيق عارف بالجميل . حفظ للغراندوقة جميلًا لا يُمحى لانها كانت في اثناء اقامته في تسكانا ملاكه، تعطف عليه وتدافع عنه . فكان يحبها حب الابن البار ويثق بها الثقة كلها، ولا يدع

---

(١) خ ١٠٠ و١٠١

(٢) خ ١٦١

(٣) خ ٨٧

(٤) خ ١٥٠

(٥) خ ١٦١

فرصة تفوته دون ان يسطر لها ارق الرسائل ويهدي اليها اثمن الهدايا . وكان احترامه لوالدته الست نسب وتعلقه بها مضرب الامثال . فان اشارة منهـا وهو في اوج عزه وجبروته كانت كافية لينزل على ارادتها كأطوع البنين. كتبت له في السنة ١٦١٨ وهو في نابلي « كنت محبوسة في دمشق ولما اطلقني واليها رجعت الى الوطن فلم اجدك . وقد اصبحت كبيرة السن فتعالَ اليَّ لاراك قبل الموت » . فاسرع الامير الى الدوق واخبره بالكتاب وبعزمه عـلى السفر . ولما حاول صدّه اجابه « انت اخبر بعزة الولد لوالدته . وقد اقسمت علي بتربيتها فلم يعد بامكاني التريث . وان منعتني لم يعد في رقبتي خطيئة من كلامها » . أهذه شيمة رجل متوحش قاسي القلب ؟

ولما اجاز له السفر انزل في المركب أسرته واحماله وتابوتاً صغيراً لطفلة له ماتت في الغربة فاودعها حجرة وسدَّ عليها بالحجر والكلس ليدفنها بقربه في الوطن . بيد ان الدوق ندم على سماحه له بالرحيل وماطل ثمانية ايام في تسليم المركب الاجازة . فذاب قلب الامير لوعة على اسرته التي كانت تقاسي في المركب الصغير الحر وصيام رمضان وايقن انه وقع في يد الدوق . فاخرج من العنبر صندوق بارود كان اشتراه واجلس عليه اسرته . حتى اذا تمنع الدوق عن تسليم الاجازة اشعله، مفضلًا ان تنتثر لحمانـه واسرته انتثاراً من ان يبقى واياها في الاسر(١) .

ومع اتقاد ذهنه وحنكته كان سليم الطوية . قهر مرارًا ابن سيفا وصالحه . ولما عاد هذا فخانه وسأله المصاهرة، صاهره . وفي السنة ١٦١٨ بعد رجوعه من ايطاليا علم ان سيفا حرق قصره في دير القمر وانتزع من ولده مقاطعتي كسروان والفتوح وجمع عليه الاعداء ليسلبه بقية بلاده . فاقسم الامير عـلى خرابه وخراب قصوره في عكار وباغته في عاصمته، فافلت من يده . بيد ان جنوده أسروا لسيفا حفيداً، فأشفق الامير على والدة الطفل ورده اليهـا . واوقفوا حريم ابن سيفا فاطلق سبيلهن وترك احمالهن . وحاصر سيفا فصالحه على مال . ولما وقع الاتفاق ارسل اليه كل ما لديه من زاد ليسدّ به ورجاله رمقهم(٢) .

وكان وفيًا لحلفائه واصدقائه يسترخص في سبيلهم الراحة والمال والحياة . أنجد

(١) خ ٢٣٦ - ٢٣٨

(٢) خ ٧٣ - ٧٨

الشيخ عمرو حليفه واعاده بالقوة الى سنجقيته فاغضب الصدر الاعظم واضطر ان يقضي خمس سنين في الغربة جزاء لوفائه[1] .

وبعد رجوعه من المنفى جاءه الشيخ المذكور وسأله ان يعيده الى منصبه فأوفد حالاً الرسل الى الاستانة ليسعوا له في ذلك . اما الشيخ فكان « حاد المزاج ولم يطق صبراً حتى رجوع الرسل . والح على الامير بقوله : ان عجلتنا اليوم . لاننا في موسم الحج . وتفوتنا المنفعة لو تأخرنا » . فطيب الامير خاطره ونقده ثمانية آلاف غرش، تعويضاً عن مال زعم الشيخ انه خاسره اذا تأخر مطلبه[2] .

ولجأ اليه مرة عدو له يدعى حسين فيّاض فحاه من الامير مدلج . فارسل هذا يطلب اليه رأس الحسين واعداً بابنته لابنه الامير علي وبعشرة آلاف غرش وعشرة رؤوس من الجياد . فاجاب الامير رسوله « يطلب الينا الامير مدلج ما ليس في عادتنا . فان لم يكن فينا خير للنزيل فلا خير فينا للامير[3] » .

وقد اورد الخالدي في سياق تاريخه شواهد كثيرة على شهامة الامير ومروءته وعفة نفسه وحلمه ورفقه بالرعية يطول بنا الكلام لو راجعناها هنا . فعد اليها ان رغبتَ في درس اخلاق الامير درساً أوفى[4] .

ولننظر الآن في مزاياه الراجعة الى حسن ادارته وسياسته[5] .

الباب الثاني ـ العدل

« العدل أساس الملك » . كان الامير يفهم العدل بمعناه الكامل، اي حماية كل فرد من رعاياه من التعدي على شخصه اوعرضه او ماله . ولتقدير عمل الامير حق قدره من هذه الناحية فلنتذكر قول الشاعر « وبضدها تتبين الاشياء » .

---

(١) خ ٨ – ١٩
(٢) خ ٨٥ – ٨٧
(٣) خ ١١٣
(٤) خ ٦٣ و٧٢ و٨٠ و٩٩ و١١٥
(٥) ف ٢٩ – ٣٣

كانت مقاطعات لبنان قبل الامير، والولايات العثمانية في عهده، تتخبط في الفوضى والظلم . فحياة الانسان وعرضه وماله كانت تحت رحمة الحكام والحساد والاحزاب والاحقاد، فضلاً عن الاضطهاد الديني . هذا في الداخل . اما في الخارج فقد كانت البلاد عرضة لنهب اللصوص وقطاع الطريق وغزو البدو وغارات المجاورين، ناهيك عن تعديات الجنود المرتزقة والاميرية . كان الجيش العثماني بعينه اذا مر بالبلاد في طريقه الى العجم الثائر على الدولة، او لقصاص عاص، أمعن في السلب والحرق والهدم، وارتكب افظع التعديات وأشنعها تحت نظر قواده، وغالباً بسماحهم، واحياناً بأمرهم . فلا تعجب بعد ذلك ان تقفر بلادنا مع خصب تربتها وميّزات شواطئها واعتدال هوائها وذكاء سكانها ونشاطهم .

ولنستعرض الان مناحي العدل لنتعرف الى عمل الامير فيها .

١ ـ **القضاء والامن** ـ سار فخر الدين في ما يتعلق بالقضاء على خطة بسيطة رشيدة . احتفظ بالحكم في الجرائم، وترك لرؤساء الطوائف الحكم في القضايا المدنية والدينية والاحوال الشخصية . على انه جعلهم مسؤولين لديه عن بني مذهبهم . قال الاب روجيه « كان الامير على جانب كبير من الفطنة، ومع شدة وطأته على الاعداء كان عادلاً في احكامه، مطلعاً على كل المشاكل والمنازعات في مملكته، يحكم في الدعاوي الخاصة بالشرع والجند، اما دعاوي الموارنة فكان يترك الفصل فيها لبطريركهم، على ان يضمن له حسن سلوكهم والقيام بواجباتهم » .

وشهد السائح سانديس ان « الامير حاكم عادل »[١] وكان صارماً على عماله، اذا ظلموا الرعية انزل فيهم أشد العقاب . اقتحم صوباشي صيدا دار القنصلية الفرنسوية ليبتز مال مسيحي لجأ اليها . فجمع الامير الصوباشيين وأنبه امامهم على فعلته وقطع رأسه بيده ليعتبروا . ولم يكن اقل وطأة على صوباشي طرابلس، الذي طغى وبغى، فامر بخنقه وولده وعماله، وحجز الاموال التي جمعوها من الرعية ظلماً[٢] .

روى الخالدي انه في السنة ١٦١٣، في اثناء الحملة العثمانية عليه، بلغته « شكوى على

(١) س ٢١٢

(٢) ف ٣٣ و٣٦

مشايخ قرية الكوثرية انهم شلحوا اناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية . فركب عليهم بخيله ورجله ونهب جميع ارزاقهم ودوابهم ليتأدب غيرهم » . فعل ذلك وهو تحت ضغط الحملة[١] .

وقطع دابر اللصوص والاشرار من بلاده « فقد كان يقتص عن الجرائم بيد عسكرية » كما شهد سانتي . ووصف الخالدي البؤس والخراب والفوضى التي حلت في مسقط رأسه صفد من ظلم الحكام وتغيير الاحكام وفقد الامن « الى ان منّ الله على آلها بالدولة المعنية وولّى عليها من هو فخر للدين وعماد للمساكين وكهف للمرتجين ومداد للملتجئين في اثنا سنة احدى عشر والف هجرية[٢] . فامنت به الطرقات ونجت به النفوس من الهلكات . وانقطعت آثار الذين كانوا نصبوا الاذى . وعمرت البلاد ورجع من كان نزح منها من العباد . وسار العدل في الرعية ورضيت باقواله وافعاله البرية . وانبتت الارض واكتست رونق الحسن والجمال . وهجم على اهاليها السرور والفرح وعاشوا في ظله بعيش رغيد[٣] » .

وروى ايضاً كيف اقتص الامير في السنة ١٦١٨، بعد رجوعه من ايطاليا، من مشايخ بلاد بشاره وصفد، « الذين طاحوا الى البقاع والى افيق في الجولان وصاروا يجوا الى البلاد ويسرقوا ويقطعوا الدروب . فارسل هدم بيوتهم وضبط جميع غلتهم . ثم توّجه من طبرية في ليلة صعبة باردة بحجة الصيد وكبس قرية افيق من غير ان يعلم احد من اهلها وحكم على جميع رجالها ونسايها وطرشها وقتل من النزّاح الذين كانوا عندهم من بلاد صفد نحو خمسة عشر رجلاً وهدم جميع عروشها وصحب معه جميع حريم النزّاح رهينة . وعاد الى صفد بالمكسب والطرش . فلما لم تجد النساء لها مهرباً جاءت مشايخ صفد ووقعوا على الامير وتكفلوا انهم لا يعودون الى الفرار ويمشون على قدم الطاعة ... فقبل شفاعتهم ورد الى النازحين جميع الحريم والطرش لانه امير حليم[٤] » .

وتأميناً للسابلة والقوافل انشأ فخر الدين في المراكز التي يكثر فيها المرور والخطر

---

(١) خ ١٦
(٢) تبدأ في ٢١ حزيران ١٦٠٢
(٣) خ ٣
(٤) خ ٧١ و٧٢

ابراجاً وخانات محصنة جهزها بالجنود ووسائل الدفاع وموّنها بالماء والزاد. كبرج «الهربج مربط اللصوص والخاينين على حدود البلاد من ناحية عكا» . وقف الامير بنفسه على بنيانه شهرًا كاملاً والحمى تفتك فيه كما قلنا[١] . وخان القاع في الهرمل الذي سيأتي وصفه . وخان جسر المجامع حيث «عين بلوكباشية لاجل حفظ الطرقات[٢]»، وقلعة تدمر في برية سوريا . فضلاً عن شبكة القلاع التي رممها وحصنها وموّنها . وقد اربت على الاربعين، وسيأتي تعدادها . حتى ان السائح سانديس، الذي مر بلبنان في السنة ١٦١٠، اي في الشطر الاول من حكم فخر الدين، كتب ما تعريبـه : «اما التجار فاغلبهم انكليز، يعاملهم الامير بالحسنى ويطلق لهم حرية التنقل . فيمكنهم التجول في مملكته دون خطر والدراهم على اكفهم[٣]» .

وقال الاب عبد الاحد ماجري[٤] في رحلته «في السابع عشر من ايلول ١٦٢٤ ركبت من طرابلس حتى صيدا برفقة ماروني واحد، لان كل بلاد الامير آمنة، نظيفة من اللصوص» . وعلم الامير ان في جبال الكلبيه من اعمال العلويين قبيلة امتنعت في هضابها الوعرة وتحصنت في قلاعها الصليبية وعصت، فلا تقبل حاكمًا غريباً ولا تدفع ضريبة . فقصد اليها بنفسه في السنة ١٦٣٠ مع طول المسافة ومشقة الطريق وتسلق قممها وتسلم قلاعها . فجاء مقدموها صاغرين طائعين، كما شهد الدويهي[٥] والقنصل التسكاني .

ومن دواعي الفخر لفخر الدين تأمينه البلاد من غزوات الاعداء في السنين الخمس والاربعين التي تولى فيها حكمها، اذا استثنينا حملة السنة ١٦١٣، حين تمكن فيها جيش حافظ باشا في غيابه من اجتياز حدودها . قال سانتي في تقريره المقدم في السنة ١٦١٤ «للاموال التي ذخرها الامير شهرة واسعة . لان الاتراك لم يتمكنوا من اجتياح بلاده مدة خمس وعشرين سنة» .

وكان يسترخص المال في سبيل راحتها . قدّم في السنة ١٦٠٧ لمراد باشا القبوجي الصدر الاعظم من الذهب والاقمشة الحريرية ما بلغت قيمته ثلاثمائة الف غرش، ففاز

(١) خ ٨٦ و ٨٧
(٢) خ ١٦
(٣) س ٢١٢
(٤) Domenico Magri
(٥) ز ١٣٦

بالعفو لنفسه وللبلاد باعفائها من «القشلق»، وهو نزول الجيش العثماني فيها على نفقة اهلها . وكان القشلق يعدّ من اشد الضربات على العباد لا يوازيه هولاً زحف الجراد وفتك الوباء[١] .

وفي السنة ١٦٣٢ صدرت الاوامر الى الجيش العثماني العائد من حرب العجم بقضاء الشتاء في سوريا، وعينت ايالة طرابلس لنزول الصباحيين، وهم اشد الفرق العثمانية بأساً . فسبقهم الامير ووقف لهم شمال طرابلس، ولما حاولوا مواصلة السير واقعهم وقتل منهم خلقاً كثيراً . ثم تخلص منهم بثلاثين الف غرش . «وذهب عشرة الاف منهم الى دمشق فكلفوها مدة شهرين ثلاثمائة الف حتى هرب تجارها الى صيدا . وضج الدمشقيون فقاموا على العسكر وطردوه من المدينة»، كما روى القنصل التسكاني[٢] .

وسترى ان هذه السياسة كانت من بواعث رواج التجارة في بلاد الامير .

٢ ـ **الانصاف** ـ لما اجتاح العرب الشرق المسيحي ودوخوا ممالكه واصبحوا اسياده انكروا على المسيحي، الذي كان سيداً، المساواة بالمسلم في الحقوق المدنية، وضيقوا عليه الحرية الدينية . ولما غزا الصليبيون الشرق عدّ المسلم مواطنه المسيحي عدواً واضمر له الحقد والانتقام، حتى اذا عاد هؤلاء الى بلادهم عامله كعبد مكروه واستباح ماله وعرضه وحياته . وكانت الاضطهادات والمذابح، فهلك الكثير من مسيحيي الشرق، وجحد الكثير، وأمسى البقية اقلية ذليلة فقيرة .

وكان حظ اليهودي شبيهاً لحظ المسيحي، ولعله كان ارفق منه حالاً لمقدرته على ابتياع راحته بالمال، ولم يبقَ عند المسيحي مال . ولم يخلُ الامر من كره بين الشيعي والدرزي، بيد انه كان كامناً وظهر نادراً . واستحكمت البغضاء بين الدرزي والسني، وخاصة الاتراك بعد السنة ١٥٨٥، التي قتلوا فيها ستين الف درزي .

دام هذا الظلم عشرة قرون طوال الى ان جاء فخر الدين فساوى بين رعاياه واطلق للجميع الحرية الدينية، مستأصلاً بهذا التدبير العلة الاولى للمنازعات الداخلية والتعديات الفردية، مكتسباً لنفسه ولاسرته ولدولته محبة العنصر المظلوم واخلاصه وعطف امراء

---

(١) د ١٨٧ و٢٠٢

(٢) ف ٣٤–٣٦

الغرب واحترامهم . ونشأ بين مختلف العناصر اللبنانية تضامن اخوي في سبيل الدفاع عن الوطن، الذي اصبح للجميع، واصبح الجميع له .

ومن امجاد هذا الامير الدرزي العظيم انه اقر في بلاده «الحرية والمساواة والاخاء» قبل ان تنادي بها في باريس الثورة الفرنسوية بقرنين .

ولننظر الان كيف عرف الامير ان يضع هذه الفكرة الشريفة موضع العمل في معاملته لشتى المذاهب والطوائف اللبنانية :

اولًا . المسلمون ـ لم تكن الحماية، التي اولاها فخر الدين للمسيحيين، لتحمله على ان يبخس المسلمين من سنيين وشيعيين حقهم . فمراعاته لرؤسائهم الروحيين لم تكن اقل مما يبديه للاولين . كان يسهر على راحتهم وكرامتهم وينفذ احكامهم في بني ملتهم . وقد شيد لهم الجوامع، كجامع القاع في البقاع، والجامع البرّاني في صيدا، الذي جعله مدفناً لاسرته وحبس عليه الاوقاف . ومع كونه درزياً كان يحضر رسمياً الصلاة في الجامع ايام الاعياد الكبيرة، ويرتب في حاشيته العلماء والمؤذنين . كالشيخ ناصر واسيره المتصوّف، والشيخ حمد صبايا البيروتي . وقد استصحبهم الى ايطاليا وكانوا يصلون ويؤذّنون في جماعته .

وجاء اليه مرة اكابر نابولي وقالوا له «سمعنا انكم تصلون جماعة وقد بنيتم مأذنة» فاجابهم الامير «صحيح نصلي جماعة[1]» . وكان يسمح لاسرته بصوم رمضان[2] ويحفظ الاعياد الاسلامية . ويتبرع بتموين الحجاج والمحافظة عليهم بالجنود والقواد . وينصب احياناً كواخيه او احد اولاده اميراً للحج[3] . بيد ان السنيين لم يكونوا راضين عنه الرضى كله لعطفه على المسيحيين . وكان الشيعيون اقرب اليه منهم، واكثر اخلاصاً له وللبنان . ومع ذلك كان الامير يجند من الاثنين على السواء، كما فعل في السنة ١٦١٩ حين «شرع في جمع الرجال من بني سني وبني متوالي[4]» .

ثانياً . اليهود ـ ساواهم بالمسلمين والمسيحيين في الحقوق المدنية والدينية وحماهم

(١) خ ٢٣٤-٢٣٦
(٢) خ ٢٣٨
(٣) خ ١١٤ و١١٦ و١١٧ و١١٨
(٤) خ ٩٣

وشجع هجرتهم الى بلاده . فاصبحوا على قول سانديس، « قابضين على زمام التجارة في صفد[١] » . وكانوا عاملاً صالحاً في نمو اقتصاديات لبنان . واتخذ منهم الكتبة والحسبة واستوزر بعضهم كابرهيم نحمياس، الذي جعله قيّماً على اشغاله الخاصة، وكاتباً اول لولده الامير علي حاكم صيدا . وكان من اخص اخصائه، نفحه بلقب « اعز المحبين »، الشرفي الذي يخوله الحق في تركه لابنائه واحفاده .

ونعرف من اخصائه اليهود اسحق كارو[٢] اي العزيز، رافقه الى تسكانا كاتباً للحاج كيوان مستشاره؛ وآخرين كانوا يتعاطون الطبّ في صيدا . واكبر الظن انه كلف اليهود ضبط حسابات دولته ومسك دفاترها . وقال عنهم سانتي في تقرير السنة ١٦١٤ « انهم في لبنان اكثر جاهاً واكبر ثروة من المسيحيين[٣] » .

ثالثاً . الملكيون ـ مع انهم كانوا غير خاضعين للكرسي الرسولي حليفه لم يكن الامير باقل مراعاة لهم من الكاثوليك . فكان يشجع هجرتهم الى لبنان الجنوبي ويحميهم من التعدي . ولما ضم اليه طرابلس وعكار والكوره، حيث يكثر عددهم، جند قسماً منهم في جيشه . نزاهم معه في حملته على جبال الكلبيه في السنة ١٦٣٠[٤] . وضع بطريركهم اغناطيوس عطيه تحت حمايته . بيد ان سيفا نكاية في الامير، اقام بطريركاً آخر باسم كيرلس دباس . فوقع الشقاق بين الملكيين . وبعد موت سيفا نزل على طلب كيرلس وعقد له مجمع اساقفة لفض الخلاف . فاجتمع منهم احد عشر اسقفاً في اول حزيران ١٦٢٧ بحضرته ونبذوا كيرلس الدخيل . فعاند واستعصى في دمشق . فجاء به الامير مكبلاً بالحديد وسجنه في مغارة الراهب بالهرمل . مما آل الى ازالة السجس[٥] .

٣ ـ **الحماية** ـ كان الكاثوليك في لبنان من موارنة واوربيين، هدفاً لاضطهاد بقية العناصر اللبنانية الاسلامية والمسيحية، فبسط الامير عليهم حمايته .

(١) س ٢١٢
(٢) خ ١٧ Isaac Caro
(٣) ف ٣٦ و٣٧
(٤) ز ١٣٦ و ف ٦٨ حاشية ٣
(٥) مع ٢٤٧-٢٥١

اولاً . الموارنة ـ كانوا منحصرين في شمال لبنان، اي في بعض وسوط البترون وجبيل القاحلة، وفي جبة بشري، التي كان يتولاهـا مقدم من طائفتهم يضمن مالهم الاميري ويورده الى والي طرابلس وكيل السلطان في تلك الانحاء . وقد ضاقت بهم الارض لقلتها وكثرتهم، وضاقت بهم سبل العيش لجور الولاة، خاصة يوسف باشا سيفا.

ولما كانوا جنوداً بواسل، ومزارعين نشيطين، ورعايا هادئين ساعدهم آل عساف بوساطة كواخيهم الحبيشيين الموارنة، عـلى النزوح الى كسروان والفتوح، ومكنهم آل ابي اللمع وتنوخ ومعن من المهاجرة الى المتن والغرب والشوف. وكانوا يستخدمونهم في الجندية والزراعة، خاصة في تربية دودة الحرير . فاخذوا ينزحون اليها افراداً . وشهد الاب يوحنا اليانو في تقريره المقدم الى غريغوريوس ١٣ في السنة ١٥٧٨ عن الموارنة « انهم بدأوا يسكنون بين الدروز » .

وكانت نكبة السنة ١٥٨٥، التي قتل فيها ابرهيم باشا والي مصر من الدروز ستين الفاً، ونهب بلادهم ودمرها وقبض على امرائهم، وفتك بعقالهم . فضعفوا . ولما تولى فخر الدين في السنة ١٥٩٠ مقاطعة الشوف ورأى نفسه مهدداً من يوسف باشا سيفا حاكم لبنان الشمالي والاوسط، فكر في التقرب من الموارنة والاستعانة بهم عليه. وكان سيفا عدو الطرفين فجاء الاتفاق عليه طبيعياً .

ففي اول موقعة جرت للامير مع المذكور، في السنة ١٥٩٨ في وادي نهر الكلب، نرى مقدمي جاج الموارنة بجانبه . فاقتص منهم سيفا في السنة ١٦٠١ « بسبب انهم كانوا من حوف الامير فخر الدين »، كما شهد الدويهي . وانتزع منهم مشيخة جبيل[1] . ولما انتصر عليه الامير في موقعة جونيه في السنة ١٦٠٥ واستخلص منه نهائياً الفتوح وكسروان ولى على غزير الشيخ يوسف المسلماني[2] . واكبر الظن انه عين على كسروان ابا نادر الخازن .

ولم يدع الامير فرصة لخطب ودّ الموارنة وضمهم الى جيشه الا انتهزها . ففي الاتفاق، الذي عقده مع فردنان الاول غراندوق تسكانا في السنة ١٦٠٨، اشترط ان

---

(١) هكذا وردت في تاريخ الدويهي المطبوع د ١٨٦ . اما مخطوطتاه في الفاتيكان (دم ٩٣ ق وز ١٢٠ ق) فلا تذكران طائفة هولاء المقدمين .

(٢) وفي الدويهي ص ١٨٥ « الاسلاني » . وفي خ ٥٢ « فجاء رجـل يسمى مخايل من قرايب الشيخ يوسف المسلماني » . مما يدل على ان المذكور مسيحي، ولعله ماروني .

« يفوز له من الحبر الاعظم ببراءة يأمر فيها تحت طائلة الحرم رعاياه، ولم يكن خاضعاً للكرسي الرسولي في ذاك العهد من الشرقيين سوى الموارنة، ان يستعدوا لحمل السلاح ويشدوا إزره عند اول اشارة تصدر منه اليهم[١] » .

ذكر الدويهي بين حوادث السنة ١٦٠٩ « وفيها بسبب الخساير التي صارت على الكرسي من يوسف باشا اضطر البطريرك يوحنا مخلوف انه يتوجه الى ناحية بلد الشوف ليكون تحت حماية حضرة الامير فخر الدين ابن معن ... فقبله الامير بكل كرامة. وصدف ان في ذلك الزمان انفتنوا المسلمين سكان قرية مجدلمعوش في بعضهم بعض وكثرت بينهم القتلى حتى انهم اتفقوا على بيع القرية والخروج منها . فاشتراها منهم ودفعها للنصاره . فنزل فيها البطرك وعمر له فيها دار وكنيسة وسكن بها جماعته[٢] ».

وبلغ ذلك البابا بولس الخامس فكتب في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩ الى الامير يشكر له عطفه على المسيحيين، خاصة الموارنة، وما اتاه اخيراً في سبيلهم، كما اخبره المطران سركيس الرزي . واكد له انه لا يدع فرصة تفوته دون ان يخدم اغراضه النبيلة في مناوأة الاتراك اعداء النصرانية[٣] . وفي ٢٥ ايلول من السنة ١٦١٠ كتب الى البطريرك المذكور كتاباً اثنى فيه على الامير وحثه على شد اواصر الصداقة معه[٤] .

ونشأت بين الامير والموارنة محالفة غرضها التخلص من ابن سيفا وتوحيد لبنان وتقويته للوقوف في سبيل كل من تحدثه نفسه بالتعدي عليه حتى الدولة العثمانية . ففي السنة ١٦١١ اوفد الامير المطران جرجس بن مارون الاهدني، رئيس اساقفة قبرس الماروني[٥] الى الكرسي الرسولي ودولة تسكانا ليضمن مساعدتها القوية في الوصول الى

---

(١) ف ١٥٠

(٢) ز ١٣٣ ق و د ١٨٨ و١٨٩

(٣) ف ١٥٤ و١٥٥

(٤) ف ١٥٨ و١٥٩

(٥) كان قد أم رومية في السنة ١٦٠٧ برفقة المطران سركيس الرزي المذكور كما تشهد حاشية علقها بيده على المخطوط الفاتيكاني Borgiano Sir. 5 f. 1 « في سنة ١٦٠٧ في ٧ تشرين الثاني جينا مع معلمي المطران سركيس الروز انا الحقير جرجس الراهب الحدناني مع ارفاقه العزيزين القسيس الياس بن الحج يوحنا الحدناني والشماس يوسف بن القسيس داوود من قرية كرمسدي من ساحل جبل لبنان المبارك ». وعاد اليها في السنة ١٦٠٩ موفداً من قبل البطريرك يوحنا مخلوف لطلب التثبيت كما ذكر الدويهي (ز ١٣٣)

هذا الغرض والصمود في وجه الدولة العثمانية اذا احتاج الامر . فاكد لهما السفير في تقرير رفعه في تلك السنة « ان يوسف خاطر، مقدم الموارنة واميرهم، جهز، بناء على الاتفاق، ثمانية آلاف رجل من الاشداء. يتنظرون بفارغ الصبر الفرصة لخلع نير الاتراك[١] ».

وفي اواخر السنة ١٦١٣ بعد وصوله الى تسكانا طلب الامير من البابا « ان يتنازل ويأمر الموارنة الخاضعين له ان يشدوا إزره . وهم لا شك فاعلون، اذا جُهزوا بالاسلحة، لانهم يحبون الامير بصفة كونه حامياً للمسيحيين[٢] ».

وفي ٨ تشرين الاول ١٦١٤ كتب الامير الى السيد ده بريف[٣] سفير فرنسا لدى الكرسي الرسولي مؤكداً له انه « راعى دائماً مصالح الموارنة وانتصر لهم وعطف عليهم، خاصة بعد توصية فردنان الاول بهم، وعاملهم كما لو كانوا من بني امته واخوته[٤] » .

واشتدت اواصر المحالفة والاخاء بين الموارنة والدروز فاتحدوا قلباً واحداً على تحرير لبنان وتعزيزه وتوسيعه . قال المؤرخ ماريتي « استولى فخر الدين بمساعدة الموارنة وغيرهم من رعاياه المسيحيين على مدينة الناصرة وقلعة طور طابور وعلى صفد وطبريه ». وقال الاب توما ڤيتالي[٥]، الذي زار لبنان في السنة ١٦٣٣ وقدم عنه تقريراً الى المجمع المقدس في السنة ١٦٤٣، « مما لا ريب فيه ان الموارنة وحدهم بين مسيحيي الشرق يحملون السلاح ويستعملونه مراراً ضد الاتراك تحت قيادة الامير ولوائه » . وكتب الاب ماجري في السنة ١٦٢٤ « بعد ان قتل ابرهيم باشا في السنة ١٥٨٣ من الدروز ستين الفاً لم يعد الامير يستطيع ان يجند منهم اكثر من اثني عشر الفاً . بيد ان عشرين الفاً من الموارنة يحاربون تحت لوائه . واكثر قواده منهم » . وقد عرفنا من هؤلاء القواد ابا كرم الحدثي[٦] وابا نادر الخازن .

وفي اثناء نكبة الدروز المذكورة لجأ الامير قرقماس الى مغارة جزين حيث مات .

---

(١) ف ١٦٣ و ١٦٤

(٢) ف ١٨٧

(٣) François Savary de Brêves

(٤) ف ١٩٩

(٥) P. Tommaso Vitale

(٦) راجع مقالنا فيه في المجلة الفاتيكانية المصوَّرة الصادرة في اذار ١٩٣٥ ص ٣٢١

فخبأت زوجته ولديها فخر الدين ويونس في كسروان في بيت ابرهيم ابي صقر الخازن[١] . فتربى الامير في داره وترعرع بين اولاده . ولما تولى الحكم كافأه ما استطاع الى مكافأته سبيلاً . فولى اخاه رباحاً ابا صافي وولديه ابا نادر وخطار وحفيده نادر ابا نوفل اسمى مناصب دولته. فحكموا مقاطعات الجبه والبترون وجبيل والفتوح وكسروان والقاطع، التي اصبحت بفضله وفضلهم مارونية .

وكان ابو نادر على جانب عظيم من البأس والدهاء والوطنية. فتقلب في اكبر وظائف الحكم، من رئيس الفرسان الى حاكم بيروت الى القائد العام وامين سر الدولة والمستشار الاول . ونفحه الامير بلقب « امير جبل لبنان »، الذي كان محتفظاً به لنفسه . قال الاب توما ڤيتالي المذكور « كان فخر الدين صديقاً حميماً للمسيحيين خاصة الموارنة . وكان كبير قواده ماروني يدعى ابو نادر، باسل ومطلع على جميع اسراره ».

واصبح آل الخازن ساعد فخر الدين الايمن في مشاريعه الخطيرة في سبيل عظمة لبنان ورفاهيته. ولهم الفضل الاكبر على توسع بني ملتهم في مقاطعات كسروان والفتوح وجبيل والجبه، التي حكموها . وقد صاهروا آل حبيش، الذين تقدموهم في الوجاهة. وقلد فخر الدين الشيخ يونس ابا ضاهر حبيش امانة خزنة الدولة، وجعله كبير قوامه، ومنحه لقب « امير فلسطين » . وعين ولده ضاهر وكيلاً لابي نادر، حاكم بيروت. وقال الاب ڤيتالي عن الاسرة الحبيشية انها « أشرف الاسر في كل سوريا». وفي السنة ١٦٢٨ ارسل اوربانس الثامن مع البعثة التي جهزها الى فخر الدين سيفين مباركين الى ابي نادر الخازن وابي ضاهر حبيش « صاحبي النفوذ الكبير لدى الامير » . ومن كبار موظفي الامير يوسف ابن الشاعر « الذي وقفه على بلاد البترون[٢] » .

وختم الدويهي كلامه عن الامير بقوله « وفي دولة الامير فخر الدين ارتفع رأس النصاره، وكان اغلب عسكره نصاره وكواخيه وخدامه موارنة . فصاروا يركبوا الخيل بسروج ويلفوا شاشات وكرور، ويلبسوا طوامين وزنانير مسقطة ويحملوا البندق والقسي المجوهرة[٣] . وفي أيامه تعمرت الكنايس في بكفيا والعربانيه وبشعله وكفرزينا

---

(١) ليس لدينا في هذا الصدد سوى تقاليد جديرة بالاعتبار اثبتها الشيخ شيبان الخازن في تاريخه المخطوط المحفوظ في خزانة بكركي . راجع د ١٧٩ ومع ٤٨ ـ ٥٠

(٢) خ ١٤٨

(٣) امتيازات محفوظة للمسلمين

وكفرحاتا[١] » . وهذا ما حدا مرهج بن نمرون، العالم الماروني، ان يدعو فخر الدين « حامي طائفتنا » .

وكان الموارنة من اخلص حلفاء فخر الدين . قال الاب روجيه عند كلامه عن نكبة الامير الاخيرة « لما رأى المسلمون ان الجيش العثماني يهاجم فخر الدين من كل جهة تخلوا عنه . وهكذا فعل الاروام . واغلب الدروز لما رأوا اميرهم منكسراً خضعوا لباشا دمشق . ولم يبقَ معه سوى ابو نادر، القائد العام الشهم، فقد ثبت محارباً حتى سقط آخر رجل من رجاله قتيلاً او جريحاً » .

والموارنة ساعدوا الامير على قهر عدوه الاكبر سيفا باشا، ومكنوه من الاستيلاء على مقاطعاته وقلاعه وقصوره واملاكه، وأيدوه في تنظيمها وتوطيد قدمه فيها . وعملوا معه على توحيد لبنان وتوسيع مملكته . وتوسطوا له لدى امراء الغرب، خاصة الكرسي الرسولي ودولتي تسكانا واسبانيا . وخدمه بعضهم، كالعالم ابرهيم الحاقلاني، في اشغاله التجارية .

والحق يقال اذا كان فخر الدين مديناً للموارنة بقسم كبير من مجده وسطوته فهم مدينون له بنهضتهم القومية والدينية والثقافية . فقد ساواهم بالمسلمين في الحقوق المدنية وخولهم الحرية الدينية التامة وساعدهم على احتلال ثلثي لبنان والانتشار في سهوله وثغوره . ففي السنة ١٦٣٣، التي مر فيها الاب ڤيتالي بلبنان، كانوا قد احتلوا البترون وجبيل ثم العاقوره والمنيطره والفتوح وكسروان وبيروت فضلاً عن جبة بشري . وقد وصف الاب المذكور هذه المقاطعات المارونية الثمان وصفاً يدل على انهم كانوا اصحابها وعلى جانب وافر من السعة والمكانة .

وساعدهم فخر الدين على الانتشار في بقية مقاطعات لبنان كالمتن والغرب والشوف، وفي مدنه الساحلية وثغوره كصيدا وصور وعكا، وفي سهوله كعكار والبقاع وبلاد بشاره ومرجعيون، حيث اقام الامير على المرتفعات المشرفة على السهل الشرقي عدة قرى مسيحية لرد غارات البدو وغيرهم عن جبل لبنان مثل كوكبا، وقد جلب اهلها من اهدن، وجديدة مرجعيون والقليعة، واصلهم من العاقوره[٢]، والخريبه وسرده وغيرها،

---

(١) ز ١٣٧ و د ٢٠٥

(٢) لدينا وثيقة قديمة ممهورة باسماء كثير من اسر العاقوره النازحة الى هذه الجهات

فضلاً عن قرى البقاع . وهكذا استعان الامير بالموارنة على التوسع والتوطد واستعانوا به على انشاء وطن قومي لهم في لبنان، دافعوا عنــه بكل ما اوتوه من قوى وعزم حتى اصبح الآن جمهورية مستقلة .

ثانياً . الاوربيون ـ في الرسالة المذكورة اعلاه، التي وجهها الامير الى سفير فرنسا في رومية في السنة ١٦١٤، اكد له انه « لم يمر قط ببلاده مسيحي دون ان يلقى منه غاية المساعدة والحماية والعطف » . وكان معروفاً بين الاوربيين انه « حامي النصارى في الشرق وملاذهم الاكبر » . وقال اوربانس الثامن عن دولته انها « الميناء الامين، الذي يلجأ اليه المسيحيون في الشرق هرباً من عاصفة الاتراك الهوجاء » .

وكتب الاب روجيه بعد مصرع الامير « ان فقده خسارة جسيمة على النصرانية . فقد كان ساعياً الى تمليك المسيحيين الاراضي المقدسة، وكان يكل الى الكاثوليك، وخاصة الرهبان، اكبر المهمات . ناهيك عن عطفه على اسراهم . فقد كان يسمح لهم بسماع القداس وحضور صلوات الغروب في الآحاد والاعياد الكبيرة . واذا سنحت له الفرصة اعادهم الى اوطانهم سرًا »، مع ان الدولة العثمانية كانت تنهى عن اطلاق سراح اسير مسيحي، الا اذا استبدل باسير مسلم . وفي السنة ١٦٢٣ اهدى الامير الى نائب دولة اسبانيا في صقلية اثنين وثلاثين اسيراً مسيحياً . وكتب اليه « من عادتنا ان نستفك كل اسير مسيحي وقع في ايدي الاتراك » . وكان يحتمل حتى نقائصهم ليكافئهم عن حسنات امرائهم نحوه في اثناء اقامته في ايطاليــا ويجتذب الى بلاده تجارهم ومرسليهم .

وقد نال المرسلون الغربيون من عطفه القسط الاوفر، للآمال الكبيرة التي كان يعلقها عليهم في منفعة وطنه الادبية والمادية والسياسية . فكل من تقرب اليه منهم شعر بعطف خاص عليه واطلع منه على اعماق اسراره . كما كتب الاب روجيــه الفرنسيسكاني، والابوان ادريان دلابروس واجيديوس الكبوشيان وغيرهم . وقد اذن لهم في الاقامة في لبنان والجليل، بالرغم من نهي الباب العالي، واطلق لهم الحرية في اعمال الرسالة حتى بين الدروز كما شهد الاب بريسيوس من رن(١) .

وفي السنة ١٦٢٠ سمح للفرنسيسكان بترميم دار المسيح في الناصرة والاقامة فيها

(١) Adrien de la Brosse. Egidius. Britius de Rennes

واستخرج لهم فتوى بذلك ورافقهم بنفسه حتى الى تلك القرية واوصى اهلها بهم خيراً ونقدهم مالاً لبناء الدار . واستوطنت مع الفرنسيسكان في مدينة المسيح اسرة اهدنية من آل يمين، تؤلف الآن الاكثرية اللاتينية فيها . ولحقتها جالية من الملكيين عاد فريق منها الى حضن الكنيسة الرومانية في السنة ١٧٤١[١] .

وذكر الاب روجيه ان الامير وهب ايضاً الفرنسيسكان اربعة ديورة، اثنين في عكا وصيدا واخرين في لبنان . وفي السنة ١٦٣١ اذن لهم ولجماعتهم ان يسكنوا طور طابور . وكانوا اذا اضطُهدوا في مدينة خارجة عن حكمه لجأوا اليه فاصلح حالهم مع الحاكم او استبدله بغيره من اصدقائه .

شجعت هذه المعاملة الكبوشيين وغيرهم من المرسلين على افتتاح الرسالات في بلاد الامير . ففي السنة ١٦٢١ فاز منه البارون لويس دهي[٢]، مندوب ملك فرنسا الغير العادي في الشرق، « باذن للآباء اليسوعيين في دخول الناصرة، وبعهد ان يوفر لهم كل اسباب الامان ليعيشوا هناك كانهم في فرنسا » .

وفي ١٤ كانون الثاني للسنة ١٦٢٤ كتب سفير فرنسا في الاستانة الى رئيس رسالة الكبوشيين في لبنان وسوريا انه « لم يجسر على طلب بيلوردي من السلطان لاخوته الرهبان يسمح لهم بالاقامة في بلاد الامير لئلا يوقع الريب في قلب السلطان وهو كثير الشبهة في سلوك فخر الدين . فاوصى الامير بهم رأساً » . واوصى المجمع المقدس والحبر الاعظم بهم البطريرك الماروني وطائفته فقبلوهم بترحاب . وافتتحوا في السنة عينها رسالتهم في بيروت، حيث قدمت لهم الطائفة دارها وكنيستها[٣]، كما سمحوا لهم باستخدام كنيستهم في حلب ودمشق . وسعى الكبوشيون بمؤازرة الامير في تأسيس « مطبعة في بيروت لنشر الكتب اللازمة للدعاية الكاثوليكية باللغات العربية والسريانية والفارسية والقبطية » .

وفي السنة ١٦٢٨ طلبوا من المجمع المقدس ان يحول اليهم ثلثمائة سكوت كان قد عينها اعانة سنوية لمدرسة حوقا المارونية في شمال لبنان « لان في نيتهم ان يفتحوا في

(١) كما فصلناه في مجلتنا السورية ج ٢ : ٢٩ و ٣٠

(٢) Louis Courmenin des Hayes

(٣) عد الاب توما فيتالي للموارنة في بيروت كنيستين على اسم السيدة العذراء ومار جرجس

بيروت مدرسة لاحداثها نزولاً على رغبة الامير فخر الدين » .

وبناء على طلبهم اوصى بهم المجمع الشيخ ابا نادر الخازن « صاحب النفوذ الكبير لدى الامير » بكتابين وجهها اليه في السنتين ١٦٢٩ و ١٦٣١ . وفي السنة ١٦٣٠ كتب اوربانس الثامن رسالتين الى البطريرك الماروني وشعبه يوصيهما خيراً بالمرسلين المذكورين .

وجاء في الدويهي « في السنة ١٦٣٢ اخذ رهبان الفرنج سكنه في جبة بشري لكثرة الامان والاطان[١] . وانعم السيد البطرك للرهبان السكلنتية[٢] في دير مار يعقوب الحباش في قرية اهدن برضى الاسقف ورضى اهل الضيعه . واعطى الرهبان الكبوشيه دير ماري قبريان اهدن . ثبتوا مدة وانتقلوا الى دير مار توما بقرب حصرون . استقاموا سنتين ونزلوا الى طرابلس . وكذلك [انعم] على بعض من الجبسا[٣] » .

ولما نكب فخر الدين نكبته الاخيرة في السنة ١٦٣٤ « وُشي الى قائد الحملة العثمانية ان الامير كان يستشير الاباء الكبوشيين في كل كبيرة . وشيد لهم ديرًا في صيدا جلب اليه مياه المدينة كلها حارماً اهلها الضروري منها . وانه نزولاً على رغبتهم هدم كل جوامعها وطرد خدامها . فاستشاط القائد غضباً وقبض عليهم وسجنهم . ودك ديرهم حتى الارض » .

وجاء الكرمليون الى لبنان في السنة ١٦٣٤ على قول الدويهي « فاخذوا السكنه اولاً في دير مار اليشع (بوادي قديشا) وبعد مدة انتقلوا الى دير مرت مورا باهدن، ثم عادوا الى مار اليشع[٤] » .

وسار خلفاء الامير على سياسته فحافظوا على المرسلين وأيدوهم ونشطوا غيرهم على اللحاق بهم[٥] .

وهكذا تسنى للامير الحكيم ان يساوي بين جميع رعاياه ويؤلف قلوبهم وينفخ في

---

(١) في حكم الشيخ ابي صافي الخازن
(٢) الفرنسيسكان
(٣) ز ١٣٦ ود ٢٠٣ و دم ١٠٦
(٤) ز ١٣٨
(٥) تجد في كتابنا ف ٤١-٤٧ تفاصيل اوفى في هذا الموضوع فراجعه .

صدورهم روح التضامن والوطنية الحقة، التي اوقفت عند قدمي جبلهم الاشم كل تعدٍ غريب، كما تتكسر الامواج الصاخبة على اقدام صخوره . قال الاب لامنس صاحب تاريخ سوريا « بعد وفاة الامير عادت الولايات السورية الى نير الاتراك . اما لبنان فحافظ وحده على فكرة الاستقلال التي كونها الامير في رعاياه » .

وعمرت البلاد واينعت الاراضي واحتلت معاهد الدين والعبادة والعلم في لبنان هضابه واوديته وسهوله وثغوره، فكانت فيه مبعثاً للحياة الروحية والادبية والزراعية والوطنية . وجرّ تيار المسيحية حكامه انفسهم من آل شهاب المسلمين وابي اللمع الدروز وحرفوش الشيعيين فتنصروا، واصبح لبنان معقلاً للكثلكة في الشرق الادنى .

الباب الثالث - الزراعة

عمل الامير بهمة شماء على انماء الزراعة وتربية المواشي والصناعات الناتجة عنها . نشطها ونظمها على اتقن الاساليب واوفرها مورداً . فكانت شجرة باسقة نضرة، أينعت بكل فروعها، واثمرت ثماراً شهية عادت بالرخاء على الرعية والحكومة . لان ثروة الدولة قائمة على ثروة الرعية . حتى ان اعداءه لما ارادوا اغراء نصوح باشا على اكتساح بلاده قالوا له « ان بلاد ابن معن عامرة واهلها متكاثرة، وانه يحصل منها اموال جمة[1] » . وهذا ما اطمع بها الامراء جيرانه فاشتركوا في الحملة عليه في السنة ١٦١٣، حتى بلغ رجالها اربعة وثمانين الفاً . وبعد ان اجتاحت الحملة قسماً من البلاد ونهبتها قال الخالدي « ومع ذلك كان الرخاء موجوداً والغلال في القرايا بلا حد ولا قياس[2] » .

ولنمر الان سراعاً بالموارد الزراعية التي صرف الامير همه اليها .

١ - **الحرير** - وجه فخر الدين الى هذا المورد الثمين عناية خاصة فاصبح الاول

---

(١) خ ٧
(٢) خ ٢٥

بين المنتوجات الوطنية . فعاش لبنان منه ثلاثمائة سنة، أميره وتاجره وفلاحه وماشيته.

وكان لبنان شحيح السكان، الا جبة بشري، فشجع فخر الدين اهلها على النزوح الى بقية المقاطعات لاصلاح اراضيها واستثمارها . ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الموارنة بكدهم وذكائهم من تحويل قممها العارية الى جنائن معلقة، وسفوحها الجرداء واوديتها الوعرة الى رياض غناء .

وكانوا من أمهر مربي دودة الحرير، فنشروا هذه الصناعة في لبنان كله وفي بعض انحاء سوريا وفي جزيرة قبرس، واستخدمهم في مطلع القرن الماضي محمد علي باشا في ادخالها الى وادي النيل[١] .

ففي السنة ١٦٢٤ كتب الاب ماجري في مفكرته « هربت من هواء الاسكندرونة الردي الى بلدة تدعى باياس، حيث ضافني ورحب بي ماروني كريم يعنى بتربية دود القز في بستان واسع » . وذكر الهولندي مونتر في التقرير الذي رفعه حوالي السنة ١٦٠٥ الى فردنان الاول عن قبرس ان « زهاء خمسمائة اسرة وصلت اخيراً من سوريا للاشتغال في تربية دود الحرير » .

وعد سانديس في السنة ١٦١٠ الحرير والقطن اهم محاصيل بلاد فخر الدين[٢] . ولما تولى الامير طرابلس في السنة ١٦٢٧ عكف على انهاض زراعتها وتجارتها . قال الدويهي « ونصب في مغراقها اربعة عشر الف نصبة توت . ونصب ايضاً بستان اكبر في اراضي الحيصه[٣] » .

وكان الحرير اللبناني لجماله ومتانته يستهوي اصحاب معامل النسيج في اوربا، فتزدحم في طلبه مراكبهم في الثغور اللبنانية وتحمل منه الى بلادهم الكميات الوافرة، ليصنعوا منه افخر الاقمشة الحريرية والجوخية وأنعمها لارقى طبقة من قومهم وأنعمها . قال ماجري في كلامه عن صيدا في السنة ١٦٢٤ « ما يزيد في ثروتها ورود المراكب الاوربية غير المنقطع للمتاجرة وخاصة لشراء الحرير الذي يأتيها من

(١) لدينا عن جاليتي جتيم والوادي الشرقي المارونيتين وثائق شتى سننشرها في الجزء الثالث من مجموعتنا « السوريون في مصر » .

(٢) ص ٢١٢

(٣) ز ١٣٥

القرى القريبة » . وذكر كانتشياماري في تقرير السنة ١٦٠٥ في مقدمة الصادرات اللبنانية اصناف « الحرير البيروتي الذهبي اللون والابيض الطرابلسي اللازم لمعامل تسكانا ولمبارديا ».

وكان القنصل فراتسانو يوصي في رسائله امراء تسكانا « اذا رغبتم في تصريف الاقمشة التسكانية في الشرق، من جوخ ومخمل ودمقس، عليكم بالحرير اللبناني . فيتسنى لكم ان تنسجوا او تبطّنوا به افخر الاقمشة بارخص الاسعار، وتروجوا تصريفها في الاسواق . وهي الخطة التي يتمشى عليها تجار البندقية ومصانعها » .

وقدّر الخبراء التسكانيون سنة ١٦١٤ ايراد الامير من هذا الصنف بثمانين الف غرش ذهباً، اي ما يعادل ثلث دخل خزنته في ذاك العهد . هذا فضلاً عن المنافع الاخرى، التي يجنيها الفلاح اللبناني من الدودة وورق التوت وقشره . « فالجزّة » اي الاوراق التي يقرضها دود القز، وقشور الاغصان التي يقطعها من الشجرة، علف جيد في فصل الشتاء لمواشيه، التي توفر له الجبن والسمن والالبان . ويعلف بالاوراق الفاضلة عن الدودة، وهي المعروفة « بالتشرينية »، خروفاً ام اكثر يذبحه ويقطعه ارباً ويصنع منه « القورما »، اي القديد، فيكفيه طول السنة لحماً ودهناً . اما الدود المخنّق فمن افضل الاسمدة لارضه .

ورغبة في تصريف الحرير اللبناني كان الامير يقايض بـه الواردات الاجنبية، ويستخدمه في تسديد الاموال الاميرية والتجارية، وفي هداياه الى السلطان ووزرائه والى اصدقائه وخدمه، ويوصي عماله وعملاءه بان يحذوا حذوه في ترويج المحصولات اللبنانية .

ففي السنة ١٦٠٧ استرضى مراد باشا الصدر الاعظم بما قيمته ثلاثمائة الف غرش ذهباً من الحرير والنقد[1] . وروى القنصل فراتسانو ان حاكم عكا غرّم تاجراً تسكانياً مبلغاً من المال، ولما صدر اليه امر الامير برده عوّضه عنه قطناً ونقداً[2] . وفي السنة ١٦٢٩ تعاقد الامير والبارون دلاجره، مندوب الغراندوق التجاري، على شراء حمولة خمسة مراكب من الاقمشة التسكانية بما يعادل قيمتها حريراً . وقبل ان تقلع المراكب من صيدا راجعة الى ليفورنو انعم الامير على ربابنتها ومندوبيها وقنصلها بعشرات الارطال من الحرير .

---

(١) ف ١٤٦

(٢) ف ٣٦٦

وكانت اغلب هداياه الى اسرة مديشي من هـذا الصنف . ففي السنة ١٦٢٩ المذكورة اهدى ثمان بالات من الحرير الى الغراندوقة « راجياً ان تقبلهـا وتنعم بها اكراماً له لانها من ثمار جنائنه » . فلما وقع نظر الاميرة عليها هتفت « لم ارَ في حياتي اجود من هذا الحرير ولا اجمل منه » . وفي السنة ١٦٣٠ اهدى اليها كمية مثلها والى الارشيدوقة اربع بالات . وفي السنة التالية بعث اليها بعشرين بالة هدية . وبعد بضعة اشهر شحن الى ليڤورنو خمساً واربعين بالة من « الحرير البيروتي الابيض »، واوصى وكيله ابراهيم الحاقلاني ان يقدم واحدة منها الى الكردينال مديشي، ليصنع منهـا برفيراً ارجوانياً، وان يبيع الباقي ويودع ثمنه مصرف الرحمـة بفلورنسا، باسمه وباسم اولاده الصغار الثلاثة . وكان في نيته ان يرسل سنوياً كمية مثلها للغرض عينه[1] » .

وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام عن علاقات الامير بدولة تسكانا .

٢ ـ **اصناف غيرها** ـ وصف المهندس سانتي في السنة ١٦١٤ بلاد الامير انها « غنية بالحرير والزيت والقطن والعسل والشمع والقمح والحبوب ورماد الزجاج والكرمة، وكل ما يشتهيه الانسان من اصناف المآكل . اما العنب فيجففونه ليأكلوه زبيباً ولا يعصرون منه الا القليل » .

اولاً . الزيتون والصابون ـ يشغل الزيتون المقام الثاني بين الموارد اللبنانية . وهو لذيذ الطعم غزير الزيت، اتخذه اللبناني رفيقاً لكسرة خبزه، اذا فاته البصل، واستعاض بزيته في الطبيخ عن السمن . لان ليس في الجبال مراع تقدم له الزبدة بسعر متهاود . فاصبح الزيتون عاملاً للاقتصاد وثروة لا يستهان بها . واصبح له شأن كبير في بلاد صفد بعد تولي الامير عليها، بدليل ان القسط الثاني من مالها كان يجمع في موسم الزيت، كما جاء في الخالدي[2] .

شجع فخر الدين زراعة هذه الشجرة القنوعة الوديعة الصبورة الدائمة، فجاءت مورداً هاماً للرزق وللخزينة . حتى ان الخبراء قدروا في السنة ١٦١٤ دخله من الزيت والخمر بخمسين الفاً .

(١) ف ٤٧-٤٩

(٢) خ ٧١

ناهيك عن استخدام فضلات الزيتون بعد عصره في صناعة الصابون . وقد اشتهر الصابون اللبناني باسم الطرابلسي، كما اشتهر الصابون الفلسطيني بالنابلسي . وروى الاب ڤيتالي في السنة ١٦٣٣ عن اهالي العاقوره انهم « قد أثروا من احتكار مصابن سوريا، لانهم امهر صناع هذا الصنف » .

واشتهر الزيتون والزيت اللبناني وصابونه بجودتها في الاسواق شرقاً وغرباً فكانت تُهدى لاكبر الكبار . ففي السنة ١٦١٦ لما عاد الحاج كيوان من تسكانا، حيث قضى سنتين ضيفاً على اسرة مديشي الحاكمة، رأى ان الزيتون اللبناني افضل ما يهديه اليها، فبعث من صيدا الى كل من اعضائها ووزرائها بجرة من الزيتون .

وفي السنة ١٦١٢ اوسق فخر الدين الى الاستانة ثلاثة مراكب صابون هدية الى نصوح باشا الصدر الاعظم[1] .

وفي السنة ١٦١٩ شحن ولده الامير علي الى هذه العاصمة مركبين صابوناً، فبيع باسعار جيدة[2] . وفي السنة ١٦٣١ بشّر عامل ليڤورنو الغراندوق « ان قد دخل الميناء مركب آتٍ من صيدا موسق صابوناً وقمحاً » .

ثانياً . الرماد ـ بين الغرائب التي شاهدها الاب دنديني في طرابلس، لما مر بها في السنة ١٥٩٦، « قافلة مؤلفة من خمسين الى ستين جملاً، محملة رماداً، مستخرجاً من حشيشة يحرقونها في حفر خاصة بهذا الغرض . ثم يجمعون رمادها ويصدرونه الى البندقية والى جميع ممالك اوربا تقريباً . فتصنع منها كمية وافرة من الزجاج النقي الكثير الضيا. » .

وفي التقرير الذي قدمه كاتشياماري في السنة ١٦٠٥ الى الغراندوق فردنان الاول بخصوص البعثة التي كان يعدها الى صيدا، اشار عليه ان تحمل المراكب في عودتها الى ليڤورنو « كمية من اصناف الرماد، الصالح لصنع الزجاج والصابون . وان تكمل وسقها من الانسجة والخيوط القطنية والصوفية، خاصة الحموية، والحرير الابيض الطرابلسي والذهبي البيروتي ومن اصناف العطارة والبهارات وجوز الطيب والعفص والنيلة اللازمة للعطارين والصباغين والنقاشين » .

وفي ٣ نيسان من السنة ١٦٣٢ كتب القنصل فراتسانو الى صديق له في بلاط

(١) خ ٨
(٢) خ ٩٠

تسكانا يسأله عن « سعر الرماد المستعمل لصنع الاقداح، والصالح لانواع البلّور والصابون. وهو يغني عن ملح النطرون بل يفوقه جودة . وتجارته رابحة مضمونة . اما سعره فيمكن تحديده بخمسة وعشرين سكوتاً القنطار » . واردف بقوله « فاجتهد ان تتفق مع دردوڤين[١]، تاجر الاقداح في البندقية، على تصريف الف قنطار منه في السنة[٢] ».

ثالثاً . القطن والقصب ـ عدّ سانديس في السنة ١٦١٠، كما ذكرنا، الحرير والقطن في مقدمة الحاصلات اللبنانية . وقد ظل القطن في لبنان الى عهد غير بعيد ثالث الحاصلات، كما عرفنا من رحلات دلاروك وڤولني[٣] وغيرهما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وذكر الخالدي بتفصيل ما جرى في ميناء عكا لثلاثة مراكب فرنسوية قصدت اليها في السنة ١٦٢٢ لشحن القطن . وكان احدها يحمل اربعين الف ريال لهذا الغرض[٤] . وورد مراراً في الوثائق التسكانية ذكر هذا الصنف بين المنتوجات اللبنانية . وكانت تقارير القنصل التسكاني في صيدا تتبع دائماً اسعاره في اسواق صيدا وعكا . واشار فخر الدين في رحلته الى ايطاليا الى محالج بزر القطن في بلاده كشيء معروف لدى جميع القراء[٥] .

ومن موارد لبنان الكبيرة في عهد الصليبيين القصب والسكر . فقد كانت الاراضي المنبسطة بين طرابلس وميناها وسهول صور وصيدا وعكا مشغولة بهذه الزراعة وعليها كثير من المعاصر . وقدر السائح بورخارد دخل معاصر السكر في طرابلس بما ينوف عن ثلثمائة الف دينار بيزنطي[٦] . وفي التقرير الذي قدمه القنصل مارسيلي[٧] الى دوج البندقية في السنة ١٢٤٣ م حكى عن ايراد معاصر السكر الخاصة بالجالية البندقية في خراج صور .

وما زال القصب يزرع حتى الان في سهول صور وصيدا . بيد ان استعماله يقتصر على الاكل . ولبنان يشتري كميات عظيمة من السكر الاجنبي باعلى الاسعار . وقد علمنا

(١) Dardovin
(٢) ف ٥٠ و٥١
(٣) De La Roque. Volney
(٤) خ ١٢٦ و١٢٧
(٥) خ ٢١٥
(٦) E. Rey. Colonies Franques en Orient. p. 374
(٧) Burchard. Marsili

اخيراً بسرور ان قد تأسس في طرابلس مصنع لاستخراجه . فنعم الفكرة لوتمت وعمّت .

اما عن تجارته في عهد الامير فتنقصنا المعلومات .

رابعاً . القمح والحبوب ـ كان محصول القمح والحبوب وافرًا في بلاد الامير حتى اصبح من اهم صادراتها الى اوربا، لاسيا في عهد حرب الثلاثين سنة (١٦١٨–١٦٤٨) .

ففي السنة ١٦٠٥ رغّب كانتشياماري الى الغراندوق فردنان الاول في محالفة فخر الدين بقوله « اذا لم توفَّق الى محالفته سياسياً، فصداقته مفيدة لستر اغراضٍ غيرهـا، اهمها استيراد القمح من بلاده[١] » . وجاء في تقرير ماشنجي المقدم في السنة ١٦١٤ في صدد كلامه عن المحصولات اللبنانية « اما الارز فيزرعونه . بيد انهم اخذوا يهملونه الان بعض الاهمال، لحصولهم عليه من الاسكندرية بسهولة وباسعار رخيصة » .

وفي السنة ١٦٢٩ وردت الى ميناء صيدا عدة مراكب تسكانية وهولندية لشراء القمح والحبوب على اصنافها، خاصة الفول . وفي السنة ١٦٣١ اقلعت من صيدا خمسة مراكب تسكانية، ثلاثة منها اوسقت قمحاً واثنان ارزًا . وكان قد سبقها عشرون مركباً من مختلف انحاء اوربا فشحنت قمحاً، عاد عليها بارباح جيدة، كما شهد القنصل فراتسانو .

وروى الدويهي بين حوادث السنة ١٦٣٢ « سارت مراكب كثيرة من بـلاد الفرنج الى عكا وصور والرمله وطرطوره بسبب وسق القمح . وكانت الغلة شحيحة وهم يشترونها باغلى ثمن . وكان الامير فخر الدين مساعداً معهم . حتى ان في مدينة عكا وحدها انعدّوا ماية وعشرين برشه بطلب القمح[٢] » .

خامساً . الكتان ـ تكلم الامير في رحلته الى ايطاليا (١٦١٣–١٦١٨) عن الكتان كصنف غريب عن بلاده . قال « وفي بلادهم يزرعوا الكتان وكذلك في جميع بلاد النصاره ويعملوا منه قماش قمصان وخيطان وقماش عال يعملوا منه الياقات . كل دراع يصل ثمنه للغرش وأزيد[٣] » . وفي السنة ١٦٣١ بعث قنصل تسكانا في صيدا الى بلاده بثلاثة قناطير كتان لتباع هناك لحسابه . وفي رأس قائمة الصادرات

(١) ف ١٤٤

(٢) ز ١٣٥ ق

(٣) خ ٢٢١

اللبنانية التي قدمها القنصل المذكور الى الغراندوق في السنة ١٦٣٢ ذكر اصناف الكتان. هذا دليل، اذا صح ظننا، ان الامير ادخل زراعة هذا الصنف الى لبنان ونشطها فنجحت حتى امست من صادراته [1] .

سادساً . الاحراش والبساتين ـ شهد السائح سانديس في السنة ١٦١٠ ان « فخر الدين رمم الخراب وشجر الاماكن المهجورة [2] » وكلف الامير المهندس شيولي التسكاني تنسيق حرش بيروت، حتى ان بعضهم نسبه اليه . وعني ايضاً ببقية الاشجار المثمرة عناية شملت كل نافع منها . ولعله منشئ بساتين الليمون والموز، التي تتمنطق بها السواحل اللبنانية من طرابلس حتى صور كحزام اخضر بين رمال الشواطئ الذهبية والامواج المزبدة وصفحة البحار الزرقاء الواسعة من جهة، وصدور الجبال الجبارة المشرفة عليها من الجهة الاخرى .

بيد اننا عارفون تمام المعرفة ان البستان الذي الحقه بقصره في بيروت كان من عجائب الدنيا، وقف امامه السياح الغربيون مندهشين من جماله وكماله ونظامه . فكتب عنه الاب روجيه انه « فريد في آسيا، فلقد حوى كل اثمار الدنيا » . وذكره ماجري في السنة ١٦٢٤ باعجاب ونسب انشاءه الى مهندسين ايطاليين . ووصفه موندرل في السنة ١٦٩٧ في رحلته وصفاً شائقاً سنعربه بين الوثائق . ومما قاله فيه « اجمل ما شاهدت في قصر الامير بستان البردقال المقسوم الى اربعة عشر مربع متساوية، تتخللها المماشي المبلّطة واقنية الري » .

ولا ننس ان ضريبة الارض في عهد الامير كانت مبنية على عدد الاشجار المثمرة القائمة عليها . فتنشيط زراعتها عاد على خزينته بالاموال الغزيرة .

ولا نخاله قصر همه على الاشجار المثمرة بل تعداها الى الخضر . فالقنصل فراتسانو بعث من صيدا الى احد كتبة ديوان الغراندوق بكمية من بزر القرنبيط هدية . وقد روى الامير في رحلته الى ايطاليا ان هذا الصنف نادر فيها . وبعث الاب روجيه الى فرسان مالطه بكمية من « الخس الابيض الروماني » مكافأة على اطلاقهم سراح قائق موثوق بضائع قبرسية، خاصة خوري الروم في البترون .

---

(١) ف ٥٠-٥٢

(٢) س ٢١٢

واعلمنا هذا الاب ايضاً ان الامير كان يهوى درس النباتات من حشائش واعشاب وانه كلف احد المصورين الفرنسويين فرسم له منها الفاً وخمسمائة باوراقها واصولها والوانها، كما سبق القول[١] ·

٣ ـ **المواشي** ـ وعني الامير عناية تذكر فتشكر بتربية المواشي والحيوانات الداجنة وتحسين نسلها ·

اولاً · الابقار ـ جاء في تقرير سانتي للسنة ١٦١٤ عن الموارد اللبنانية « ان اغلب الابقار والجواميس والجمال والمعزى خاصة الامير، يسلمها الى الفلاحين بالشركة، على ان يعطوه جلودها، وان نفقت فعليهم لا عليه · ولا يأذن لاحد في ان يقتني اكثر من ثلاثة ابقار » · ولا نخاله قد ابقى على هذا النظام لما اتسع ملكه · وروى الاب روجيه ان الامير وهب كلًا من فلاحي الناصرة ثلاثة ابقار من حصته، شرط ان يحسنوا معاملة الاباء الفرنسيسكان، الذين اقامهم فيها · وقرأنا في تقرير ماشنجي « ان موارد فخر الدين، من غير الرسوم والضرائب، ناتجة عن استثمار مساحة كبيرة من الاراضي الزراعية لحسابه الخاص، وتربية كمية وافرة من الابقار بالشركة مع الفلاحين» ·

وسعى الامير في تحسين نسل الابقار اللبنانية بواسطة الاجناس التسكانية، التي اعجب بها في اثناء اقامته في ايطاليا · فاوصى في السنة ١٦٣١ وكيله ليونشيني ان يشتري له من تسكانا « اربع بقرات وثوراً من اكبر واجمل ما يجده · لان التي جلبها معه البارون دلاجره لم تعجبه لصغرها وشحة حليبها » · وسأل الغراندوق فردنان الثاني ان يبعث اليه « بجنائني ماهر، وبمهندس خبير في تنظيم الري وتخطيط الاقنية · وست ام ثمان اسر من مهرة الفلاحين ليعلموا ذويه طرق الزراعة وتربية المواشي المتبعة في ايطاليا » · ورغب الى هذه الاسر ايضاً ان تجلب معها الادوات الزراعية اللازمة للشغل وان يستصحب كل منها زوجاً ام زوجين من الابقار الجيدة · وكلف وكيله شراءها · واذا كان الفلاح متزوجاً فليستصحب معه عائلته · لان الامير يعاهده على تعيين منازل ملائمة لها في اي بلدة شاءت، وعلى ترتيب قسوس يخدمونها في الروحيات · ومتى رغبت في العودة الى وطنها اعادها على نفقته[٢] » ·

---

(١) ف ٥٢ و٥٣

(٢) ف ٥٣ و٥٤

ثانياً . الخيل – تحسيناً لنسل الخيل كان الامير يسعى وراء الاصائل العربية، ولم يلقَ كبير صعوبة في مسعاه لعلاقات الصداقة التي كانت تربطه برؤساء القبائل العربية، كعمرو شيخ المفارجه والامير حمدان قنصوه والاميرين مدلج ورباح . كانوا يبتاعون له او يهدون اليه اجاودها[١] .

وقد بنى في قصره ببيروت اصطبلات متقنة توفرت فيها للخيل كل اسباب الصحة والراحة . شاهدنا عقودها الرشيقة، المتينة مصطفة تحت قاعة القصر، التي خصّصت في آخر عهدها لاعمال البورصة في بيروت، غرب السراي الصغير . وكانت معاول الجهل تعمل فيها لتستعيض عنها باعمدة شنيعة من الترابة المسلحة .

نوه بهذه الاصطبلات الرحالة موندرل في السنة ١٦٩٧ . ووصفها بعده بوكوك[٢]، الذي مر ببيروت في السنة ١٧٣٧ . قال « اما اصطبلات القصر ففخمة، مبنية اسواقاً من الاعمدة المربعة العقود . ولكل حجرة معلف وكوّة للتهوية » .

وفي السنة ١٦١٣ اصطحب معه الامير الى تسكانا هدية لقزما الثاني « حصاناً احمر كحيلة السكين ليس له نظير في كل عربستان[٣] » . « اشتراه بالف واربعمائة ريال[٤] » . وسنة ١٦٣١ ارسل الى ولده فردنان الثاني « زوجاً من جياد الخيل، وكانت الفرس من اجمل ما عرف في بلاده شكلاً، واعرقها نسباً، جاءته هدية من ملك العرب »، كما شهد فراتسانو . وكتب الامير الى الغراندوق بهذا الخصوص « لما سمعتُ برغبتك في اقتناء خيل من النسل الذي املكه، ارسلت اليك من اصطبلي زوجاً استخرجته من خصاص اصائلي » . وبعث ايضاً بحصان جميل هدية الى عمه الامير لورنسو، الذي كان اوصى المندوب التسكاني بشرائه .

ثالثاً . الكلاب – وشملت عناية الامير الكلاب ايضاً . فهذا الحيوان رفيق الفلاح الامين، وحارس بيته وماشيته وغنمه، وشريكه النشيط في صيده . في السنة ١٦٣١ اهدى فخر الدين الى ارشيدوقة تسكانا، وكانت مولعة بالصيد، اربعة كلاب سلاقية،

---

(١) خ ٦٩ و١٥٨

(٢) Maundrell. Pococke

(٣) خ ٣٢

(٤) ف ١٨٣

مؤكداً لها « ان احدها قد اصطاد في السنة عينها خمسين أيلاً وحده » . فبادلته الاميرة بكلبة صغيرة سر بها السرور كله، ورجاها « ان تلحقها بذكر من جنسها ليرافقها » .

ولم يكتفِ بها بل اوصى وكيله ليونشيني ان يستجلب له من تسكانا « كلبين من الجنس البولوني الضخم، المدرّب على صيد الخنازير . والح كثيراً في الحصول عليهما . وآخرين من الجنس الكبير الانكليزي او الكورسيكي، الذي يهجم على الانسان، ليستصحبهما في روحاته وجيئاته . واربع اناث من النوعين المذكورين . فضلاً عن زوجين آخرين، ذكرين وانثيين، باذنين كبيرتين، الواحد ابيض والآخر اسود او ابلق . وكلبين غيرهما ذكراً وانثى من اصغر الكلاب[1] »

الباب الرابع - التجارة

١ ــ **حالتها قبل الامير** ــ ظهرت مواهب فخر الدين الادارية ظهوراً لامعاً في السياسة التي اتبعها لتنشيط التجارة في مملكته . فقد نشر الامن براً وبحراً، وحمى التجار وخولهم من التسهيلات والميزات والحصانات ما استطاع اليه سبيلاً . واذا بصيدا وصور وبيروت وجبيل وطرابلس، قواعد فنيقية الساحلية وعواصم العالم القديم التجارية، تستفيق من السبات، الذي اقعدها منذ القرن الثالث عشر، فتشاهد بارتياح مراكب البندقية وبيزا وجنوا ومرسيليا الاوربية، وتونس والجزائر ومراكش ومصر الافريقية، والبحر الاسود والارخبيل التركية، عائدة اليها، مرفرفة باجنحتها البيضاء على سطح بحارها الزرقاء الزاهية، مثقلة بالمصنوعات والمعادن والنقود الاجنبية، وحاملة منها المنتوجات الوطنية .

لم يصِب جبل لبنان الاشم، المنتصب افقياً فوق البحر المتوسط، من الاراضي الزراعية سوى شقة ضيقة بين قدميه « وفقش الموج » . بيد ان الخالق حباه بسلسلة جميلة الحلقات من الخلجان الظريفة الهادئة، ملجأً اميناً للمراكب من العواصف الهوجاء، وحبا آله ذكاء، ونشاطاً استعاضوا بهما عما حرمتهم الطبيعة . فكان الفنيقيون اول من ركب

---

(١) ف ٥٤ و ٥٥

خشبة شقوا بها غير هيّابين عباب البحر المتاوج المعربد المتلاطم، وجابوا على ظهرها الخفيف الرقيق بحر الروم، كما يُجاب في بركة . وانشأوا لهم في سواحله مستودعات، ما عتم ان تحولت الى مستعمرات لهم زاهرة، مثل قرطاجنه في افريقيا، وقادس في اسبانيا، ومسّينا في ايطاليا، ومرسيليا في فرنسا . واقتحموا مضايق الدردنيل الى البحر الاسود وجالوا في شواطئه وانشأوا لهم فيه المستودعات . واجتازوا مضيق جبل طارق فداروا حول القارة الافريقية جنوباً، وبلغوا غرباً حتى اميركا الجنوبية .

وحذقوا صناعات الفخار والمعادن والاقمشة، خاصة الارجوان . واستنبطوا حروف الكتابة والحساب ونشروها في الاقطار القديمة . فاصبحت شقة الساحل اللبناني الضيقة محور الحركة التجارية والثقافية في العالم .

ولم تكتفِ الطبيعة ان تحجز بين فنيقية الضيقة وما وراء البحار من الاقاليم، بل وقفت قمم الجبال اللبنانية بارتفاعها الشاهق ووعورها وثلوجها حاجزاً عالياً بينها وبين السهول الداخلية . على ان همة الفنيقيين كانت ارفع من ناطحات السحاب . فشقت اليها الطرق مكتسحة الغابات الكثيفة، ووطئت رؤوسها الشامخة وداست ثلوجها، فحولتها الى نقطة اتصال بينها وبين بقية المعمور .

بيد ان فخر الدين لما تولى فنيقية الجديدة وجد ثغورها راقدة منذ ثلاثة قرون رقاداً اقرب الى الموت منه الى الحياة، لانقطاع حبل الامن براً وبحراً، ولجور الحكام « وتقلب الاحكام » . وقد بقي لطرابلس وحدها نسمة من الحياة بفضل الاوربيين، خاصة البنادقة، الذين اتخذوها ميناء حلب، قاعدة التجارة في آسيا، فانتقل قناصل البندقية من دمشق الى الفيحاء في العام ١٥٤٥ . ولم يطل مقامهم بها بل استوطنوا حلب نفسها في السنة ١٥٤٨، وحافظوا على طرابلس كميناء لمراكبهم . وما زالوا على ذلك حتى اضطرهم واليها يوسف باشا سيفا بجشعه وعسفه الى استبدالها بخليج الاسكندرونة، الذي لا يبعد عن حلب اكثر من ثلاثة ايام، بدلاً من ثمانيـة كانت تتطلبها المسافة بينها وبين طرابلس . انما امسوا في الشهباء كالمستجير من الرمضاء بالنار، لان ولاتها لم يكونوا اقل جشعاً وظلماً من سيفا .

٢ ـ **خطة الامير** ـ رأى فخر الدين الفرصة سانحة لاجتذاب التجار الحائرين المتململين الى ثغوره، فيستفيد من خبرتهم ورأسمالهم وعملائهم ويروّج محصولات بلاده .

رسم لنفسه خطة رشيدة سار عليها حياته كلها، وهي حماية التجار بحراً من القرصان، وبرًا من اللصوص، وتسهيل المعاملات والتنقل عليهم، ومنحهم ما امكنه من الرعاية والميزات .

اولاً . تأمين البحار ـ اي مركب قصد الى ثغوره حق له عليه الحماية . لم يكن لديه اسطول يحميه، انما لم يعدم وسيلة للوصول الى غرضه سواء اكان القرصان شرقيين ام غربيين . كان المعتدون يفقدون الحق في اللجوء الى موانئه والتموّن منها والتعامل معها، ويقعون تحت طائلة غضبه . فان لم تطلهم يده في بلاده طالتهم في بلادهم . فقد كان يشكوهم الى اسيادهم ويتشدد في طلب مقاصرتهم . وكان عواهل الغرب مضطرين الى استجابته، ان لم يكن بداعي الصداقة، فلحماية مصالح بقيـة رعاياهم في بلاده .

في بدء السنة ١٥٩٤ حالما صارت اليه صيدا سكنها[١] واتخذها قاعدة لمملكته وسياسته التجارية ومنفذًا لمحصولاتها . وما زال يجاهد في سبيل ترقيتها حتى اصبحت اكبر ميناء تجاري في البحر المتوسط .

وبعد عودته من ايطاليا سكن بيروت حيث نجده في اخر شباط من السنة ١٦١٩[٢] وعكف على عمارها وانهاض تجارتها، تاركاً صيدا لابنه الامير علي وصور لاخيه الامير يونس . وفي السنة ١٦٢٢ بنى فيها قصره الشهير . وبعد عشر سنين اقام في زاويته الشرقية برج الكشاف، ليكشف منه على السواحل والبحار، ويراقب حركات القرصان، فيحمي المراكب من أذاهم . وجعل ارتفاعه ستين قدماً، بيد ان ضخامة جدرانه تدل، كما لاحظ السائح موندرل، على انه اعدّه لاستئناف تعليته .

وكان على عماله ان يحموا المراكب والتجـار . روى الخالدي عن ثلاثة مراكب فرنسوية قدمت في السنة ١٦٢٢ لشحن القطن من عكا . فاقترب منهـا قرصان من تونس رافعين العلم الفرنسوي خدعة، وتمكنوا من الاستيلاء على حمولة مركبين . اما الثالث، الذي كان حاملاً اربعين الف ريال، فتلقى من عمال الامير في الـبر اشارات

---

(١) ز ١٢١ ق حيث يعين الدويهي ولاية الامير على صيدا في السنة ١٦٠٠، مخالفاً المحبي (٣: ٣٥٧) الذي عين لها الثامن من كانون الثاني ١٥٩٣ . وهو الاصح كما سترى .

(٢) خ ٨٢ حيث يقول « وعاد الى بيروت سكنه » .

مكنته من الافلات ومن تفريغ شحنه خارجاً عن الميناء، تحت حماية صوباشي الثغر . ولم يكتفِ هذا الموظف بهذه المساعدة بل ما زال بالقرصان حتى استرد منهم ما نهبوه . وما ان علم الامير بالتعدي حتى اسرع بنفسه الى عكا ليقتص من المعتدين . ولما بلغها رأى حمولة المراكب سليمة . وكان بحاجة الى مبلغ لاكمال المال الاميري فاستقرضه من اولئك التجار . وبدلاً من ان يتمسك بالخدمة التي اسداها لهم ليتخلص من دينه او يخفضه وفاه بعد شهرين من ثمن حريره واملاكه . قال الخالدي « وقصد بذلك استجلاب التجار وعمار الاسكلة ولم يفعل مثل يوسف باشا سيفا الذي ضبط قبل هذه الحادثة غليونين فرنسويين وكان بهما ثمانون الف غرش، فضلًا عن البضايع وقتل جميع المراكبيه من تجار وبحريه وباع الغليونين بثلاثة آلاف غرش . ومن حين صارت منه هذه الفعلة ما عاد دخل اسكلة طرابلس من تجار الافرنج احد[1] » .

وفي السنة التالية بلغ الامير ان القرصان التونسيين هاجموا في ميناء صيدا مراكب فرنسوية وان قلعته دافعت عنهم بسبعين مدفعاً . وكان نازلاً راس العين بصور فركب ليلاً وخيالته، ووصل الى صيدا السحر . وما علم القرصان بقدومه حتى اسرعوا في الهرب[2] .

ولم يكن يسمح حتى لاصدقائه بان يعبثوا بسواحله . ففي السنة ١٦٢٢ كان مركبان مالطيان « رابطين الشواطئ اللبنانية، يأسران التجار المسلمين »، فاصدر امره باللحاق بهما . فضبطوا الواحد قبال شاطئ الاوزاعي ببيروت والثاني على ساحل الدامور . واسر الامير ربابنتهما وبحارتهما[3] واستخدمهما بعدئذ في نقل جنوده وذخائره[4] .

وفي السنة ١٦٣٢ شكا الامير قرصان ليڤورنو الى فردنان الثاني غراندوق تسكانا صديقه . فقد بلغت بهم القحة ان رموا قصر اخيه الامير يونس بصور بالقنابل بعد ان لقوا منه احسن معاملة . وقد شهد شيڤرانو قنصل البندقية في حلب ان « الامير دأبه حماية التجار من تعدي القرصان وترغيبهم في الانتقال الى ثغوره[5] » .

(١) خ ١٢٦ و ١٢٧
(٢) خ ١٩٤ و ١٩٥
(٣) خ ١٣١ و ١٣٢
(٤) خ ١٩٠
(٥) ف ٥٦ و ٥٧

ثانياً . تأمين البر – ومتى وطئ التاجر ارض الامير شعر بحمايته وعطفه .

١ . الطرق والاسواق . مرَّ بك الكلام عن الامن الذي كان ناشراً لواءه في مملكة الامير طولها وعرضها، بينما كان التاجر في البلاد المجاورة عرضة لنهب اللصوص وجور الحكام . واستشهدنا بالرحالة سانديس الذي اكَّد ان « الامير قد اطلق الحرية للتجار ليجوبوا بلاده وانهم يتجولون فيها والدراهم على اكفهم ولا خشية عليهم من سوء » . واشرنا الى الابراج والقلاع التي رممها او شادها في المراكز المهمة لحماية التجار. وقد تجاوزت الاربعين .

روى القنصل فراتسانو انه بعيد وصوله الى لبنان ذهب في اوائل السنة ١٦٣٠ لمقابلة الامير في القاع « حيث تلتقي القوافل القادمة من بلاد فارس والاستانة الى حلب ودمشق والعائدة اليها . فرآه يبني خاناً وسوقاً عظيمين لنزول التجار وجمالهم واحمالهم وقد احاطها بسور عال حصين والحقها ببرج وجامع للصلاة . وجرَّ الى هذا المكان الماء الغزير، محولاً نهراً عن مجراه الطبيعي مسافة ستة او سبعة ايام، لراحة القوافل التي تمر بهذه النقطة وتنفق الاموال الطائلة في طريقها » .

وقد نوهنا بالخان العظيم الذي بناه في صيدا لنزول تجار الافرنج وقنصلهم وكهنتهم وتخزين بضائعهم . وهو ما زال قائماً يشهد لعنايته بالتجارة واصحابها . وذكرنا ايضاً كيف انه في السنة ١٦١٨ توجه بنفسه ليكشف عمارة تل الهريج بقرب صفد « مربط اللصوص والخائنين » . ولما راى ان سورها لم ينجز بعد نصب خيمته وظل شهراً كاملاً « مكابراً على نفسه » والحمى تأكل اضلاعه حتى انجزه[١] .

فضلاً عن الطرق التي فتحها وعبَّدها والجسور التي شادها تسهيلاً للمواصلات، كجسور صيدا والقاسميه وبيروت ونهر الكلب . وفي السنة ١٦٣٠ سأل الغراندوق ان يرسل اليه « مهندساً ماهراً ببناء القلاع ومدّ الجسور والمعابر وجرّ المياه » . وفي السنة عينها قاد بنفسه حملة على تدمر وجهز القلعة بالاعتدة والرجال حماية للقوافل التي تجتاز صحراء سوريا[٢] .

ب . تسهيلات وميزات . كان الامير يتوسع مع التجار الاجانب حتى التجاوز عن

---

(١) خ ٨٦ و٨٧

(٢) ف ٥٧ – ٥٩

هفواتهم . سبق القول ان حاكم عكا غرَّم تاجراً تسكانياً مبلغاً من المال لسوء تصرفه وقلة استقامته في المعاملات التجارية . ولما علم الامير بذلك اصدر امره برد المبلغ الى التاجر، فرده العامل نقداً وقطناً .

ولم يكن فخر الدين يضرب نقوداً باسمه، انما كان شديد السهر على صحتها . حكى الاب روجيه ان تاجراً فرنسوياً في عكا استحضر من مرسيليا كمية وافرة من النقود المزيّفة. فقصد اليه الامير بنفسه وقال له « انت تعلم ان فعلتك هذه يُجازى عليها في فرنسا بالقتل . اما انا فاكتفي بحجز النقود لامنع التداول بها في بلادي » .

وتسهيلاً للمعاملات التجارية وترويجاً للمنتوجات الوطنية كان يستبدل بها حمولة المراكب الاجنبية، واحياناً يقرض اصحابها المال ليتموا شحنهـا . روى فراتسانو ان الامير تعاقد في السنة ١٦٢٩ والبارون دلا جره، مندوب تسكانا التجاري، على استبدال حمولة خمسة مراكب من الاقمشة بما يوازي قيمتها من الحرير اللبناني . وفي هذه الاثناء توفي البارون فشحن الغراندوق المراكب الخمسة وكلف امرها مندوباً غيره رأى من مصلحة سيده ان يكتفي باستبدال نصف الاقمشة حريراً، وان يصرّف النصف الآخر في دمشق . فلم يشأ الامير مطالبته بشروط العقد وذهب حتى الى تسليفه ثلاثة آلاف غرش ليكمل حمولة المراكب في عودتها الى تسكانا .

وقد اثبتنا كلام الدويهي بشأن المئة والعشرين مركباً، التي قصدت في السنة ١٦٣١ من اوربا الى عكا وغيرها من السواحل اللبنانيـة لشراء القمح ولقيت الرفض من تجاره . فساعدها الامير على شرائه، انما باثمان عالية عادت على السوق بانتعاش عظيم، لاسيما ان غلة السنة التالية جاءت وافرة جداً حتى هبط سعر الغرارة من اربعين غرشاً الى اثني عشر[1] .

٣ ـ **النجاح** ـ تكللت هذه السياسة الحكيمة بنجاح باهر وعادت على لبنان برخاء فريد في تاريخه . فكان تجار البلدان المجاورة يتركون مراكز اشغالهم ويقصدون الى الثغور اللبنانية طمعاً في حماية الامير وما يخولهم من التسهيلات . فيربح لبنـان، كما قلنا، خبرتهم ونشاطهم ورؤوس اموالهم وعملاءهم، وتروج محصولاته ومصنوعاته .

---

(١) ف ٥٩

وكان هؤلاء من مختلف شعوب البحر المتوسط، فرنسويين وهولنديين وتسكانيين وانكليز واتراك ومغاربة ويونانيين، وغيرهم من الشرقيين.

مر بك كلام سانديس في السنة ١٦١٠ ان «اغلب التجار في بلاد الامير انكليز، وهو يطلق لهم حرية التجول ويحمي اموالهم ويعاملهم ارقّ المعاملة[1]». واكد الاب روجيه عطف الامير على التجار الفرنسويين ومعاملته لهم معاملة ممتازة. وانه شيد خان صيدا لهم خصيصاً. وفي السنة ١٦٣٣ لما ظهرت امام صيدا العمارة العثمانية وطلبت من الامير تسليم حصنها، قصد اليه عميد التجار الفرنسويين فيها وهدّده «ان هو سلم الحصن الى الاتراك امتنعت المراكب الفرنسوية عن المجيء الى صيدا». فكان لهذا التهديد وقع اليم على قلب الامير لرغبته الشديدة في رواج التجارة اللبنانية.

وروى سانتي في السنة ١٦١٤ ان «الفرنسويين والانكليز والاتراك كانوا يتعاطون التجارة في بلاد الامير». وفي التقرير الذي قدمه في السنة ١٦٢٤ شيڤرانو قنصل البندقية في حلب الى دوج دولته قال «لقد ساد الخلل والاضطراب البحار السوريّة. فبتُ اتوقع تقهقر تجارة رعاياكم في القريب العاجل. لان والي حلب لما رأى الامير فخر الدين قد خرّب طرابلس وقهر والي دمشق فكر في اكتساب تجار هاتين المدينتين وابتزاز اموالهم. بيد ان آماله قد خابت. لان هؤلاء التجار، واغلبهم فرنسويون وهولنديون، انتقلوا الى صيدا، حيث يلقون من الامير حسن المعاملة والتشجيع. ولما كان دأب الامير حماية المراكب من القرصان فقد راجت التجارة في بلاده رواجاً كبيراً وعادت عليه بالارباح الطائلة. والمنتظر ان تزداد حركتها يوماً عن يوم فتعطل على تجارة حلب تعطيلاً محسوساً[2]».

وقد اثبتنا رواية فرانسانو عن وقوف الامير في وجه الجيش العثماني القادم لقضاء الشتاء في طرابلس، وعن تحول قسم منه الى دمشق، حيث امعن نهباً حتى هرب كثيرون من تجارها الى صيدا تحت حماية الامير.

وكان فردنان الاول غراندوق تسكانا قد حاول عبثاً في السنة ١٦٠٢ فتح باب المبادلة التجارية بين تسكانا وسوريا. وبعد المعاهدة السياسية التجارية التي عقدها مع

(١) س ٢١٢
(٢) ف ٦٠ و ٦١

الامير بلغت التجارة التسكانية في لبنان شأواً اثار حسد بقية الشعوب واضطر حفيده الغراندوق فردنان الثاني الى تعيين مندوبين تجاريين، عرفنا منهم البارون دلا لجره وميشيري وكورتيزي وليونشيني. فاستخدمهم الامير لمصالحه ايضاً ووكل في السنين الاخيرة اشغاله الى ابرهيم الحاقلاني.

وكانت اهم صادرات تسكانا الى لبنان الاقمشة والنقود المضروبة حديثاً برسم الغراندوقة، والاعتدة الحربية كالبنادق والمدافع، فضلاً عن البارود والنيران الاصطناعية. وفي السنة ١٦٢٩ عين الغراندوق قنصلاً له في صيدا ليسهر على مصالحه ومصالح رعاياه وينظمها ويحسنها. كما سيأتي الكلام في حينه.

وقد نشرنا بين الوثائق قائمتين للبضائع التي كان يتبادلها لبنان وتسكانا بعث بهما القنصل المذكور الى سيده. فذكر بين صادرات صيدا اصناف الكتان والصوف والقطن الخام والمغزول واصناف الحرير من ابيض واصفر، وبعض الاقمشة القطنية والحريرية والنصف الحريرية والدمقس، فضلاً عن الرماد وملحه والصابون والصمغ العربي والزاج والقمح والارز وغير ذلك. وبين واردات تسكانا الاجواخ والمخمل والحرائر والقرمز على اختلاف قياساتها والوانها واشكالها، والورق من خشن وصقيل، والاقداح والصحون والدوارق البلّورية والزجاجية، والزجاج، خاصة عيون النوافذ المستديرة، وقضبان الفولاذ وحلقات الشيّ، والسلاسل والاشرطة والمسامير والمواس والسكاكين والاجراس الصغيرة والشماعدين والقبّعات وانواع العطارة.

وكان الامير يعامل كل الدول الاوربية معاملة حسنة، سواء أكانت صديقة الدولة العثمانية ام عدوتها، مستفيداً من جميعها. فيتعاقد جهاراً مع رعايا الدول المحالفة لتركيا ويخولهم كامل الحقوق والميزات المنصوص عنها في عقود دولهم مع الباب العالي. اما الغير المحالفة فكان يرتبط معها سرًّا سياسياً وتجارياً. فيستورد منها الذخائر الحربية التي كان هو بحاجة اليها لمعارك الدفاع والتوسع، ويبادلها بالمنتوجات اللبنانية.

وفي المقال التالي يطلع القارئ على ارقام الارباح، التي كانت تمثلها هذه السياسة الرشيدة. روى فراتسانو في السنة ١٦٣١ « حالما تنزل مندوب الغراندوق عن احتكار شراء القمح، الذي منحه الامير اياه اكراماً لسيده، انتهز الفرصة عشرون مركباً، كانت راسية في صيدا طلباً للقمح، واشترت منه كميات وافرة عادت عليها باجود الارباح ».

واثبتنا رواية الدويهي عن المئة والعشرين مركباً التي شحنت في السنة ١٦٣٢ قمحاً من عكا وجوارها .

ويكفينا القول ان تنشيط الامير لحركة التجارة في ميناء صيدا ضمن لهذه المدينة رخاء قرنين وانوف . ففي السنة ١٦٧٠ تجاوزت فيها ميزانية التجارة الفرنسوية وحدها مليوني ليرة ذهبية . وهكذا القول عن بيروت التي اعاد اليها الامير عزها الغابر، فبلغت بعده شأناً كبيراً برعاية آل الخازن قناصل فرنسا فيها، واصبحت في القرن المنصرم اهم ميناء تجارية في البحر المتوسط الشرقي . وهي الان عاصمة لبنان الزاهرة[١] .

الباب الخامس - المالية

ان جهود الامير في توطيد دعائم العدل ونشر لواء الامن في بلاده، وتنشيط الزراعة والصناعة والتجارة اغدقت الخيرات والاموال على شعبه وعلى خزينته . وضماناً لهذا الرخاء وضع نظاماً دقيقاً في جباية الاموال الاميرية[٢] وقيدها وتوزيعها على المنافع العامة .

نحن نجهل اسماء وزراء ماليته، ونذكر فقط ان اليهودي ابرهيم نحماس كان وكيلاً لاشغاله وابا ضاهر حبيش اميناً لخزينته، او حارساً لها، كما دعاه اوربانس الثامن . وقد اكد لنا الاب روجيه ان « الامير كان مطلعاً على جميع اشغال البلاد وشؤونها الهامة، واحوال رعاياه وحالتهم، يعرف بالضبط اسماءهم والقابهم ومقدرتهم المالية . فقد كان لديه سجل يحوي اسماء جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، وآخر يقيد فيه عدد الاشجار المثمرة، وثالث يدون فيه عدد الجواميس والثيران والابقار والمعزى » .

وأكد الخالدي انه « كان يباشر تدبير مملكته بنفسه . ويضبط اموالها ويتقن امورها بقوة حدسه . وكان قوي العزم . شديد الحزم . حسن التدبير[٣] » .

وعرّفنا الدويهي انه في السنتين ١٦٢٦ و١٦٣٢ ارسل من يعدّ الرجال والاشجار

(١) ف ٦١ و ٦٢

(٢) عن تشديده في تحصيل المال راجع خ ٧١ و رص ٣٢

(٣) خ ٤

في دولته[١]، مما يدل على انه كان يجدد الاحصاء كل خمس او ست سنين .

هذا التدبير يظهر لنا الآن عادياً في كل دولة منظمة، بيد انه في عهد الامير، لاسيما في الدولة العثمانية، كان مستحدثاً . فالنظام في الشرق كان غريباً . ولنمر الآن بابواب ميزانيته واحداً واحداً .

١ ـ **الدخل** ـ اهم ابواب الدخل كانت الجزية والمواشي والاشجار والجمارك .

اولاً . الجزية ـ حرم الشرع الاسلامي النصارى واليهود الخدمة في الجندية . وعدَّهم « مادة المسلمين[٢] »، ففرض عليهم جزية سنوية يدفعها كل رجل بالغ منهم .

علمنا من رحلة سانديس ان الامير « كان يتقاضى سنوياً من المسيحيين واليهود ريالين عن كل واحد[٣] » . هذا في القسم الخاص بالامير . اما في لبنان الشمالي، الخاضع وقتئذ لابن سيفا، فقد افادنا الاب روجيه « ان النصارى كانوا يؤدون سنوياً اثني عشر فرنكاً فرنسوياً عن كل منهم، ليجوز لهم ان يعيشوا حسب شريعتهم . حتى اذا بلغ الحدث الرابع عشرة أدَّى فرنكين، وزاد كل سنة فرنكاً حتى تبلغ جزية رأسه ستة فرنكات . ولقاء هذا كل مسلم يمر بجبل لبنان كان عليه ان يؤدي لحاكمه نصف فرنك عن نفسه ونصف آخر عن حمولة كل بغل او جمل » .

واكبر الظن ان فخر الدين كان يعفي المسيحيين المتجندين في جيشه من الجزية، لانها وضعت بدلاً من الخدمة العسكرية .

ثانياً . المواشي ـ جاء في تقرير سانتي للسنة ١٦١٤ « يتقاضى الامير رسماً عن كل رأس من البقر والجواميس والجمال والمعزى، التي يسلمها الى الفلاحين . على ان تكون جلودها له، وان نفقت فعليهم لا عليه . ولا يسمح لغيره بان يقتني اكثر من ثلاثة ابقار » . وقدَّر هذا الخبير دخله من المواشي بخمسين الفاً . وقال سانديس « يجبي الامير من كل شيء خمسه[٤] » .

---

(١) ز ١٣٥ و١٣٧

(٢) يحيى ابن آدم . الخراج ص ٢٢

(٣) س ٢١٢

(٤) س ٢١٢

ثالثاً . الاشجار ـ لما كانت ضريبة الارض تجبى عن الاشجار المنتجة القائمة عليها، جاء تنشيط فخر الدين لنصب التوت والزيتون مورداً وفيراً لخزينته . اخبرنا الدويهي[١] بين حوادث السنة ١٦٢١ ان «ابن سيفا بعث عد شجرية جبة بشراي وظلمها حتى انعدّ باهدن ٥١٦٥ اصل » . فمن هذا نتبين اهمية هذه الضريبة .

وقال سانتي « لكي نقف على مقدار الاموال التي تغذّي خزينة الامير علينا ان نعرف اولاً ان الاراضي كلها ملكه، وهو يسلمها الى الفلاحين ليستثمروها، على ان يؤدوا له ثلاثة ريالات عن كل مئة نصبة توت، ومن الحرير والقطن ثلثه . ناهيك عن كميات وافرة من محصول الحرير والقطن يجنيها الامير من الاراضي التي يستغلها لحسابه الخاص » .

وفي القائمة المنشورة هنا تعلم ان سانتي قدّر دخل الامير من الحرير والتوت بثمانين الف غرش، ومن النبيذ والزيت بخمسين الفاً . وروى الاب روجيه انه « كان يتقاضى سنوياً عن كل شجرة مديناً او ستة لياردات فرنسوية[٢] » .

رابعاً . الجمارك ـ قال سانتي عن الرسوم الموضوعة على الموانئ اللبنانية « كل مركب يرسو في موانئ الامير يؤدي رسماً قدره خمسة وعشرون غرشاً، وكل عشر لبرات[٣] من الحرير والقطن تدفع ربع سكوت[٤] . هذا عن البضائع التي تباع في الاسواق او تخزن في البلاد . اما التي تمر بها في طريقها الى دمشق او تصدر من هذه المدينة الى موانئه فتتحمل رسوماً باهظة . فضلاً عن شتى الضرائب غير العاديّة والبلص التي يفرضها الامير تحت ستار تجهيز الاموال السلطانية، ويحتفظ بها لنفسه » . واعلمنا سانديس انه « كان يتقاضى من التجار ثلاثة في المئة فقط[٥] » .

خامساً . المجموع ـ ويختم سانتي تقريره عن موارد الامير بقوله « ومما اتصلت بنا معرفته تمكنا من تحديد ابواب الايراد بالارقام التالية :

---

(١) د ١٩٨ و دم ١٠٠

(٢) الليارد (liard) كان يوازي ربع صلدي او سنتيماً وربع السنتيم

(٣) اللبرة تعادل نصف كيلو او رطلاً مصرياً على وجه التقريب

(٤) السكوت كان يساوي في فرنسا سبعة فرنكات وربع الفرنك

(٥) س ٢١٣

٨٠٬٠٠٠	غرش من		الحرير والتوت
٣٠٬٠٠٠	«	«	القطن
٥٠٬٠٠٠	«	«	النبيذ والزيت
٣٠٬٠٠٠	«	«	القمح والحبوب
١٥٬٠٠٠	«	«	المواشي
٢٠٬٠٠٠	«	«	الرسوم
٧٠٬٠٠٠	«	«	الضرائب
٢٩٥٬٠٠٠	المجموع ».		

ونبهنا الخبير المذكور في هذا التقرير، الموضوع سنة ١٦١٤، ان هذه الارقام تقريبية. وفي السنة ١٦٢٤ قدّر السفير دهاي دخل الامير السنوي بتسعمائة الف فرنك ذهباً. اما الاب روجيه الذي كتب بعد مصرع الامير فاوصله الى مليوني فرنك ذهبي.

فضلاً عما كان يصل الى يده من غنائم انتصاراته الكثيرة. ففي معركة عنجر، بعد ان غنم احمال الجيش الدمشقي المؤلف من اثني عشر الف محارب، وضع يده على اهراء آل حرفوش في سهول البقاع الخصبة، وكانت تزيد عن الثلاثين[1]، وعلى عشرة الاف رأس من المعزى كانت في حوزتهم[2].

٢ ـ **الخرج** ـ كانت اكبر ابواب خرجه الخراج والجيش والحاشية والاشغال العامة.

اولاً. الخراج ـ كانت اراضي الولايات العثمانية معدودة كلها ملكاً للسلطان. ففي الشرع العثماني لم يكن الولاة سوى ضامني اموالها. يوزعون المقاطعات على السناجق، اي الحكام الثانويين، لقاء مبالغ مربوطة يعاهدونهم عليها. ويعهد السناجق بدورهم في تحصيلها بالطريقة عينها الى آخرين. فكانت هذه السلسلة الضمانية تبدأ بالفلاح الذي يستثمر الارض بعرق جبينه وتنتهي الى السلطان المالك الاوحد للاقاليم العثمانية.

بيد ان ضمان مال لبنان كان يتوارثه امراؤه ويستقلون بادارة مقاطعاته وماليتها وجيشها، كما سيأتي الكلام، فلم يكن احد يزاحمهم على الضمان.

(١) خ ١٥٣
(٢) خ ١٥٦

ادَّعى سانتي ان الامير كان يسدد نادراً الاموال الاميرية ويستبقيها لنفسه. فخالف برأيه هذا المعوج جميع المؤرخين والحقيقة بعينها . لان سياسة الامير مع الدولة العثمانية كانت قائمة على تسديد الاموال الاميرية بنظام، محافظة على مركزه وتبديداً للشبهات الحائمة حول طموحه الى الاستقلال وعلاقاته المشبوهة بالدول المعادية للسلطان. وكان احياناً يذهب الى تقديم المال سلفاً[1] .

اما مقدار هذا المال فحدده الاب روجيه بستين الف سكوت، وسانتي في السنة ١٦١٤ بسبعين الفاً، ودهاي في السنة ١٦٢٤ بثلثمائة واربعين الفاً . ولا عجب اذا زاد نسبة الى اتساع مملكة الامير المستمر، التي بلغت في السنة ١٦٣٠، كما شهد القنصل فراتسانو، سبعة اثمان ما كانت عليه في السنة ١٦١٣ .

ثانياً . الجيش - وهكذا قل عن نفقات جيشه، الذي كان يتزايد باتساع ميدان فتوحاته، وبالتالي بزيادة عدد حصونه . فكان يتراوح بين عشرة آلاف واربعين الفاً . وقد بلغ مئة الف، كما سترى .

جاء في تقرير ماشنجي، الموضوع في السنة ١٦١٤، «يبلغ عدد جيش الامير عشرين الفاً، ثلاثة الاف ينال الواحد منهم شهرياً اربعة ريالات، خلاف النفقة ». واخبر الخالدي ان في السنة نفسها حين كان الامير في تسكانا، « ارسل حسين اليازجي متسلم قلاع الامير يشكو اليه من السكمانية التي في القلاع، بأنهم صاروا آخذين بخشيش الطايفة ثلاث مرات، لكل رجل في كل مرة خمس غروش والعلوفة كانت لكل رجل ثلاثة غروش . فما رضوا الا باربعة[2] »، هذا عن المدة الواقعة بين تشرين الاول وآذار .

اما معلومات سانتي في هذا الصدد فاوضح بياناً . قال « اكبر نفقة يتكبدها الامير ناتجة عن ابقاء الف وخمسمائة راجل تحت السلاح ومئـة وخمسين فارساً براتب ثلاثة سكوت في الشهر، خلاف النفقة . وهو يعطي لكل فارس حصاناً وخادماً يسوسه . ويقدم الطعام لاغلبهم، لهم ولاسرهم، لاسيما حراس القلاع . اما رواتب القواد فباهظة . وتبلغ هذه النفقة ثمانين الف غرش سنوياً . » هذا في السنة ١٦١٤ .

وقال الخالدي بعد ان وصف معركة عنجر والاستيلاء على قلعة بعلبك « في نهار

---

(١) خ ١٧ و ٨٠ و ٩١

(٢) خ ٣٢ و ٣٣

الاحد ثالث رجب[١] فرق الامير علي على السكمانية الذين في بابه عن شهر جمادى الثاني . واعطى كل نفر منهم ثلاثة غروش علوفة وخمس غروش بخشيش وعشرة غروش لكل بلوكباشي ثمن خلعة . كل ذلك حلوان فتح القلعة . وكانت عدة البلوكباشية ثمانين والنفر اربعة آلاف وخمسماية[٢] » .

ثالثاً . الحاشية ـ واردف سانتي بقوله « تقدّر نفقات الامير على اسرته وحاشيته الخاصة بمئة الف ذهب . يصرف معظمها على الطعام . فهو يبسط مائدته كل صباح لكل غاد وحاضر . فيجلسون افواجاً افواجاً . حتى اذا نهض الواحد جلس الآخر الى ان ينتهي الجميع من الاكل . واغلب المواد الاولية تأتيه هدايا . ولكل من زوجاته الاربع منزل خاص بها في جهة مستقلة عن الاخرى . واكثر حاشيته من عبيد روسيين وهنغاريين يبتاعهم صغاراً في الاستانة ويختنهم ويجعلهم في خدمته . واذا كبروا ازوجهم من جواريه . فلا يتكلفوا ابتياع زوجاتهم كما يفعل غيرهم » .

رابعاً . الاشغال العامة ـ كانت الاشغال العامة تستنفد منه مبالغ طائلة، فضلاً عن اشغاله الخاصة، كالقصور والجنائن المنسقة على الطرز الاوربي، كما شهد من رآها مثل الابوين روجيه وماجري والسائح موندرل وغيرهم . بيد ان النفقات على توطيد الامن وترميم الحصون والقلاع والابراج والاسوار وتجهيزها بالاسلحة والرجال، وتسهيل المواصلات بانشاء الطرق والمعابر والجسور، وتنشيط الزراعة والصناعة والتجارة بمدّ اقنية الري واقامة الخانات والاسواق وحراسة الثغور والبحار، كانت تخرج من خزينته دون ان يحمِّل رعاياه شيئاً منها . خلافاً لخطة الحكام المجاورين، فقد كانوا يتخذون هذه الاعمال فرصة لارهاق رعاياهم بالرسوم والضرائب غير العادية، فتتحول عاجلاً الى عادية، كأنها ضرائب مقررة . فتقع حملاً ثقيلاً على عاتق الفقراء والاغنياء، حتى ان التجار كانوا يهجرون المنازل والاوطان والعملاء هرباً من وطأتها .

خامساً . التوفير ـ وسنأتي على ذكر المبالغ الطائلة التي كان ينفقها على الهدايا الى السلطان ووزرائه وكبرائه، حتى المعزولين منهم، وكانت تسمى « خدمة[٣] » .

---

(١) ١٠٣٣ هـ = ٢١ نيسان ١٦٢٤

(٢) خ ١٨٠

(٣) خ ٧ و٣٣ و١٩٩ و٢٤٢

وستتكلم ايضاً بطريقة غير مباشرة عن المبالغ التي كانت تتطلبها حروبه المستمرة، وان عوضت عليه الغرائم والغنائم التي كان يجنيها من نصراته. ونكتفي الان بالاشارة الى روح الاقتصاد، لا البخل كما ادعى سانتي، الذي كان يسود هذه النفقات، ليذخر الاموال ليوم الحاجة.

جاء في تقرير سانتي للسنة ١٦١٤ « باستطاعة الامير ان يوفر سنوياً من ايراده زهاء مئة وخمسين الفاً. وللمال المذّخر لديه صيت بعيد. لان الاتراك لم يزعجوه مدة خمس وعشرين سنة متوالية. فضلاً عما اكتسبه من غزو البلدان، وما آل اليه من وراثة احد اخواله، الذي ترك له كمية وافرة من المال ». وقال سانديس: « اذا ضايق الاتراك الامير فامامه البحر يركبه الى صديقه غراندوق تسكانا او الى جهة اخرى من اوربا، حيث يمكنه ان يقتني لنفسه مقاطعة، لان الرأي العام مجمع على ان لديه كمية وافرة من المال[1] ».

وروى الاب روجيه « ان الامير يذخر سنوياً نحو مليون فرنك ». واخبرنا ان في السنة ١٦٣٤، بعد ان واجه نفقات الدفاع عن مملكته ضد الحملة العثمانية الكبرى، وتوقف بسببها سنتين عن جباية الاموال « اهدى الى قائدها اربعمائة الف غرش ذهب، واخذ معه الى الاستانة اربعة عشر بغلاً محملاً نقوداً ذهبية وفضية ليقدمها الى السلطان». وقال المحبي[2]، بعد ان اخبر عن أسر الامير في السنة عينها، « وضبط الوزير احمد باشا ما للامير من الاموال والامتعة. ولم يظهر من النقود الا الشيء اليسير. واما الاملاك والعقارات والامتعة وحلى النساء واواني الذهب والفضة وآلات الحرب فقد ظهر منها شيء وافر. ووقف الوزير على تكية بناها في دمشق قرى من ضواحي صيدا وبعلبك كانت املاكاً لفخر الدين[3] ».

وجاء في ملحق الخالدي « وطيلع (الوزير من قلعة نيحا) اموال لم تتشرح[4] ».

---

(١) س ٢١٢

(٢) مح ١ : ٣٨٧ و٣٨٨

(٣) ف ٦٢ - ٦٣

(٤) خ ٢٤٨

الباب السادس - الجندية

اذا كان المال عصب الحرب فالوطنية عصب النصر والاستقلال. من مفاخر فخر الدين الخالدة بثه في صدور رعاياه، على اختلاف مذاهبهم ومللهم، روح الوطنية اللبنانية الحقة.

منذ الفتح الاسلامي امسى المسيحي في الشرق غريباً عن وطنه، والوطن غريباً عنه، لانه حُرم الدفاع عن هذا الوطن. ولما نادى فخر الدين في رعاياه بالحرية الدينية والمساواة المدنية والاخاء صالح المسيحيين مع الوطن وصالح الوطن معهم. فانفتحت عين الشرق، بعد ان مزقه التعصب الديني، على مشهد فريد: المسيحي يحارب بجانب الدرزي والشيعي والسني، مازجاً دماءه بدمائهم دفاعاً عن الوطن، الذي اصبح للجميع.

هذا التضامن، وقل التآخي، كان سرّ القوة في الجيش، الذي نظّمه فخر الدين، فوحّد مقاطعات لبنان المتفرقة، وضمن استقلاله بحدوده الطبيعية مدة ثلاثة قرون، لم تطأه رجل جيش غريب، وان وطئته حيناً لم تثبت طويلاً، بل عادت بعد قليل عنه. كالصخرة المنتصبة على شاطئه، تهاجمها الامواج وتلطمها وتزحف احياناً حتى اعلاها، بيد انها لا تلبث ان تنحسر عنها وتتكسر على قدميها، فتتلاشى.

كان جيش الامير ثلاث فئات: وطني ومأجور ومساعد.

١ ـ **الجيش الوطني** ـ كان مؤلفاً من اللبنانيين، خاصة من عنصريهم الكبيرين: الماروني والدرزي. وذكر الدويهي[١] والخالدي[٢] بين صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعي الجنوب والبقاع. وبعد السنة ١٦٢٧، التي استولى فيها الامير على طرابلس والكوره، نرى في جانبه فرقة اخرى من الملكيين. وكانت هذه الفرق تحارب تحت الوية امرائها ومقدميها ومشايخها، ويخضع قوادها لاوامر القيادة العامة، التي كان يتولاها الامير او ابنه علي. واحياناً اخوه يونس. وفي آخر عهده جعل فخر الدين ابا نادر الخازن قائداً عاماً لجيشه.

---

(١) ز ١٣٦

(٢) خ ٧٦ و١٥٠

كان اللبنانيون نواة جيش الامير وروحه الحية . لحمتهم الوطنية وهدفهم الاعلى توحيد لبنان وتحريره من سيطرة الاتراك وجعله أمنع من ان تناله يد اجنبية مهما طالت وصالت .

وقف هذا الجيش الوطني في السنتين ١٦١٣ و١٦١٤ في وجه الحملة الكبيرة التي قادها حافظ احمد باشا والي دمشق على لبنان، المؤلفة من اربعة وثمانين الفاً[١]، وهزم في السنة ١٦١٦ في اربع مواقع وفي يوم واحد اليمنيين المتحالفين مع ابن سيفا[٢]. فحفظ للبنان كيانه وثروته، ولاميره الغائب في اوربا عرشه .

تمكنت اواصر الالفة والتضامن بين الموارنة والدروز، بعد نكبة الشوف في السنة ١٥٨٥، كما سبق القول . وقد اوردنا شهادة الرحالة ماجري في السنة ١٦٢٤[٣]، واليك تعريبها كاملة « لقد تضاءل عدد الدروز . لان ابرهيم باشا والي القاهرة اقنعهم خدعة في السنة ١٥٨٣ بتسليم سلاحهم وارتد عليهم فجأة فقتل منهم ستين الفاً[٤] . فلا يسع الامير اليوم ان يجند منهم اكثر من اثني عشر الفاً . بيد ان عشرين الفاً من الموارنة يحاربون تحت لوائه . والدرزي من اشد الرجال بأساً وامهرهم في الرماية بالبندقية » . وقال الاب ڤيتالي في تقريره عن الدروز « يتمرنون منذ نعومة اظفارهم على حمل السلاح . وهم شديدو الميل الى الموارنة ؛ يكفي ان يشعر الدرزي بمرور ماروني بقربه ليدعوه اليه ويضيفه كأعز اقربائه » .

وفي السنة ١٦٠٥ اكد كاتشياماري لفردنان الاول انه « اذا جهز حملة على الاراضي المقدسة امكنه ان يعتمد على عشرين الفاً من نصارى الجبل » .

وقال ايضاً ماجري في رحلته « لقد وسّع فخر الدين مملكته كثيراً بمؤازرة الموارنة . لان عشرين الفاً من رجالهم يحاربون في صفوفه . واغلب قواده منهم » . وقد سمعنا الدويهي يقول « اغلب عسكر الامير كانوا نصارى وكواخيه وخدامه موارنة[٥] » .

وفي السنة ١٦٢٤ كتب فخر الدين نفسه الى اوربانس الثامن يبشره « انه استولى

---

(١) خ ١٢ و٢٣ و٣٥ – ٣٩ و ز ١٣٦

(٢) خ ٥١ – ٥٣ و ز ١٣٧ و د ٢٠٥

(٣) رص ٣٨

(٤) وقال المحبي « وقتل منهم مقتلة عظيمة » . مح ٤ : ٤٢٦

(٥) د ٢٠٥

على كل البلاد المجاورة له حتى انطاكية، مساحة مئات من الاميال، بجيش مؤلف معظمه من النصارى ».

وقد اثبتنا كلام الاب روجيه ان المسلمين والاروام والدروز انفسهم تخلوا عن الامير في نكبته الاخيرة، « ما عدا ابا نادر فقد صمد يدافع عنه حتى سقط آخر رجل من رجاله قتيلاً او جريحاً » . وروى الاب نفسه ان في معركة بانياس، التي جرت في السنة عينها، هاجم الامير علي بقليل من رجاله الجيش العثماني العظيم، فذهب ضحية طيشه الفا درزي والف ماروني[1] .

٢ ـ **الجيش المأجور** ـ ضناً بحياة مواطنيه وعملهم في الزراعة والصناعة، كان الامير، كغيره من الامراء المجاورين[٢]، يستأجر جنوداً من طائفة السكبان، او السيمان، العاصين على الدولة . فيبقيهم تحت السلاح درءا للطوارئ، وحفظاً للامن والحدود والقلاع . وكانوا منظمين على هيئة الانكشارية « عصب الدولة العثمانية »، كما لقبهم ماجري . وبعد عودته من المنفى زاد الامير عددهم فعرفوا « بالسكبانية الجديدة » بينما السابقون اصبحوا يلقبون « بالسكبانية القدماء[٣] ». وكان الامير فضلاً عن هولاء يستخدم من المسترزقة من يقصده، او ينفك عن خدمة غيره من الامراء، كالاربعمائة فارس من البغداديين الذين كانوا في خدمة محمد باشا[٤]، وسكبانية آل حرفوش[٥] .

هذه الطائفة، مع ما كانت عليه من الجشع والفظاظة والتقلب، أدت للامير خدمات كبيرة لشدة مراسها ولعصيانها على السلطان ويأسها من العفو . برهنت على ذلك في السنة ١٦١٣ لما صمدت في القلاع في غياب الامير امام صدمات قوات الحملة العثمانية الهائلة . ونفر قوادها من الوعود الخلابة والنقود الوهاجة التي عرضها عليهم احمد حافظ باشا، كما سترى تفصيله في حينه .

بيد ان اخلاصها كان متوقفاً على اخلاص قوادها، وقد كانت تنقاد اليهم انقياداً

---

(١) ف ٦٩ و ٧٠

(٢) خ ١٠٠ و ١٥٠ و ١٥٢

(٣) خ ١٦٩

(٤) خ ١٧٨ و ١٨٠ و ١٩٢ .

(٥) خ ١٧٣

اعمى. ففي السنة ١٦١٣ خان سكمان غزير مولاهم[١]، فاضطر الجيش الوطني الى تحمل ضغط الاعداء وحده. وهذا التقلب كان يحمل احياناً الامير على تولي قيادتهم بنفسه، او بواسطة ولده علي، ليضمن ثباتهم، كما فعل في معركة عنجر[٢].

وفي السنة ١٦٢٣ لما حمل الامير على عرب فلسطين ولّى السكمان الادبار عند اول صدمة[٣]. ورفضوا في السنتين ١٦١٢ و١٦٢٣ مواصلة الزحف على حوران وغزه لبعد المسافة وساوموه على الاجرة وهو في اشد المواقف حرجاً[٤]. وانتهزوا، كما سبق القول، فرصة غيابه في تسكانا فطالبوا قائدهم باضعاف الاجور والبخاشيش، حتى اضطر الى ان يبيع بعض اثاث الامير وحلى نسائه سدًّا لجشعهم. فارسل اليه الامير من تسكانا عشرة آلاف غرش، وهي آخر ما بقي معه في الغربة[٥]. واحياناً كانوا يعصون اوامره[٦] ويقتتلون بينهم[٧]. وفي نكبته الاخيرة تركوه[٨]، فاقتصر الامير على جيشه الوطني[٩].

٣ ـ **الجيش المساعد** ـ كان الامير في حملاته الكبيرة يستنجد بحلفائه، كآل شهاب وحرفوش وقبائل البدو في عجلون وحوران.

كان آل شهاب السنيون، حكام وادي التيم، اقربهم اليه نسباً واخلصهم والزمهم له في حروبه. وكان رعاياهم الدروز شديدي الرغبة في شد إزر اخوانهم في الشوف وبيت معن الدرزي.

وكان موسى حرفوش الشيعي اول من شد مشده في السنة ١٥٩٣ ضد ابن الفريخ لحلّ محله في ولاية البقاع، حيث يؤلف بنو مذهبه الاكثرية. وصاهر الحرافشة الامير كآل شهاب، بيد انهم كانوا اقل اخلاصاً منهم كما سيأتي شرحه.

---

(١) خ ٢٤ و٢٧ و٢٨ و٣٦ و٣٧
(٢) خ ١٦٩
(٣) خ ١٦٠ و١٦١
(٤) خ ١٠ و٢٧ و١٧٥ و١٨٥
(٥) خ ٣٢ و٣٣ و٣٤
(٦) خ ١٨٦
(٧) خ ١٧٥ و١٧٦
(٨) خ ٢٤٧
(٩) ف ٧٠ و٧١

وكان الامير يعتمد على شيعي بلاد بشاره وجبيل، الذين حاربوا في جانبه في معركة نهر الكلب في السنة ١٥٩٨[1]. وقاتلوا معه في السنة ١٦٢٣ على عين عنجر بني مذهبهم من آل الحرفوش[2]، مما يدل على ان روح الوطنية التي خلقها في صدور اللبنانيين تغلبت على روح التعصب المذهبي.

ومن حلفائه عرب عجلون وحوران من آل المفارجه وقنصوه. قال سانتي « يستطيع اصدقاء الامير من العرب ان ينجدوه بعشرة آلاف محارب، اغلبهم خيالة، مسلحون بالحراب والقسي والسيوف العريضة النصال. يجيدون مباغتة العدو، بيد انهم لا يقوون على الصمود في ميدان قتال منظم، لاسيا اذا كان العدو مسلحاً بالبنادق. يميلون الى الغزو والنهب والفتك ». وهو ما كان يحمل الامير على ان لا يستدعيهم الا في حملاته خارج حدود مملكته، خوفاً على بلاده من اذيتهم. ويقول ماريتي عن الامير انه في السنة ١٦٣٤ فضل ضياع ملكه على السماح لهؤلاء البدو ان يدوسوا ارض لبنان.

وكان جميع حلفائه مدينين له بمراكزهم وبعضهم بحياته. وكثيراً ما ضحى في سبيلهم راحته وماله وجازف احياناً بملكه ورأسه[3]. وسنشرح ذلك في الفصل الثاني من هذه المقدمة[4].

٤ ـ **عدد الجيش** ـ كان عدد جيش الامير، يختلف، او بالاحرى يزداد كما قلنا، حسب ازدياد ولاياته. حين اقلع الى ايطاليا كان يعدّ عشرين الفاً فبلغ في آخر حياته مئة الف. اما اختلاف معاصريه في شأن هذا العدد فراجع الى اختلاف الازمنة التي كتبوا فيها، او اقتصار بعضهم في الكلام على جيشه العامل.

ذكر كاتشياماري في السنة ١٦٠٥ « اثني عشر الفاً من الجنود المدربين على القتال والمسلحين بالبنادق» واردف بقوله « ان شاء الامير جند عشرين الفاً ». وقال سانديس في السنة ١٦١٠ « ان لديه اربعين الف جندي مدرّب، يدفع لهم الرواتب بصورة دائمة، بينهم قسم من المسيحيين[5] ».

(١) د ١٨٤
(٢) خ ١٥٠
(٣) خ ١١
(٤) ف ٧١ و٧٢
(٥) س ٢١٢

وفي السنة ١٦١١ تعهد المطران جرجس بن مارون، سفيره لدى البابا والغراندوق، بتجهيز سبعين الف محارب؛ بينهم ثمانية آلاف جهزهم الشدياق ابو خاطر مقدم جبة بشري الماروني. وروى الخالدي ان الامير انجد في السنة ١٦١٢ حليفه الشيخ عمرو سنجق حوران «بما ينوف عن ثلاثة آلاف خيال وماش[١]». ولدى وصوله الى تسكانا عاهد قزما الثاني على «تجنيد عشرين الفاً من رعاياه المخلصين، البواسل، المسلحين بالبنادق والسيوف، فضلاً عن ان حلفاءه العرب يقدمون له من المقاتلين العدد الذي يطلبه».

وكتب سانتي في السنة ١٦١٤ «اذا أجهد الامير نفسه حشد من رعاياه عشرة آلاف راجل وخمسمائة فارس». وهو كما رأيت يقتصر على رعايا الامير لان رفيقه ماشنجي ذكر «عشرين الفاً، منهم ثلاثة آلاف يتقاضى كل منهم شهرياً اربعة ريالات خلاف النفقة».

وفي السنة ١٦١٨ لما سئل في نابولي «كم كنت تجمع عسكري في بلادك». اجابهم «يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة في أيدينا جمعنا أزيد من عشرة آلاف رجل، من غير الذين يتأخروا في البلاد[٢]». وردّد دهاي في السنة ١٦٢٤ رقم «العشرة الالاف. خلاف السكمان المكلفين حراسة الحدود».

وعلمنا من الخالدي ان في معركة عنجر (نيسان ١٦٢٣) «كانت عدة البلوكباشية ثمانين والنفر اربعة آلاف وخمماية[٣]».

ويقول الاب روجيه «بلغ عدد جيش الامير العامل خمسة عشر الفاً. وهذا العدد كان كافياً ليستولي على الاراضي المقدسة لو شاء الامراء المسيحيون مؤازرته». وكتب الرحالة دارڤيو[٤] في مذكراته «كانت فرقة السكمان نواةً لجيش قوي تعود الامير ان يجمعه من الوطنيين، يبلغ اربعين الفاً».

وروى القنصل فراتسانو في السنة ١٦٣٢ «جهز فخر الدين على الامير طرابيه سنجق حيفا ثلاثين الفاً من حملة البنادق». اما المحبي[٥] فقدّر جيش الامير بمئة الف[٦].

---

(١) خ ٩
(٢) خ ٢٣٥
(٣) خ ١٨٠
(٤) D'Arvieux
(٥) مح ٣ : ٢٦٧
(٦) ف ٧٢ و٧٣

وفي اوائل السنة ١٦٢٤ ذهب الامير وولده الى ملاقاة محمد باشا في البقاع. قال الخالدي « فنظر الباشا الى عسكر الامير فخر الدين فلم ير له اولاً ولا آخراً[1] ».

٥ ـ نظام الجيش ـ وصف سانتي في تقريره الموضوع في السنة ١٦١٤ جيش الامير فقال « ان قوة جيشه راجعة ليس الى وفرة الجنود ودربتهم بل الى بسالة الامير وما اكتسبه في حروبه العديدة من الخبرة والاتباع. فضلًا عن بأس شعبه وجبانة مجاوريه. فالرجالة يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال. يمشون وراء الراية بلا ترتيب ويحاربون بلا نظام. اما الفارس فيلبس ثقيلًا. يلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القداحة، لان ليس لديهم غيرها، ام بارودة هندية طول قصبتها ستة اقدام، خفيفة ومتينة. وفي رأسها سن من حديد. يعلّق السيف في جنبه والدبّوس في السرج ويمسك ترساً يقيه الضربات. يمتطون الخيول العربية الغالية الثمن، الصبورة على التعب، وذات السرعة المدهشة. ومع ان طعامها الحشيش لا غير وحفنة من الشعير فهي تعمل النهار كله بلا كلل ولا ملل. يسيرون جماعات بلا بوق، ويحاربون افراداً بين كرّ وفر. وكل الامر متوقف على سرعة الحصان وخفة حركاته ».

« واذا عسكروا لا يحفرون الخنادق ولا ينشرون خيمة او شيئاً آخر يقيهم لفحات الشمس المحرقة ام قرسات البرد وهطل الامطار. حتى انهم لا يستخدمون القش لاتقاء الرطوبة. عندهم من الحيوانات لحمل الاثقال وجر المدافع عدد وافر. والمدافع عندهم نادرة ويجهلون استعمالها. يحمل كل جندي على كتفه زاد ثلاثة ام اربعة ايام وعليه ان يقتني من ماله ما يلزمه من السلاح. لا معامل عندهم لصنع البنادق او البارود، بل يستوردون البنادق من الاستانة والبارود من انكلترا ».

هذا الحكم، مع انه غير مرض، عائد على فخر الدين بالفخر. فبجنود جاهلين الفنون الحربية، قليلي السلاح كان يتغلب على جيوش تفوقهم عدداً. ومما لا شك فيه ان اميرنا كان بونابرت الشرق مدة السنين الخمس والاربعين، التي تولى فيها الحكم. لم يخذل في اثنائها الا في صحراء فلسطين، حيث كان العرب يهربون امامه كما هرب الروس امام بونابرت، ليفنوا جيشه في الصحراء جوعاً وعطشاً. ولنمسك على سانتي قوله « ان قوة

(١) خ ١٧٨

الجيش كانت راجعة الى بسالة اميره اكثر منها الى عدد جنوده ونظامهم » . ومع انه لم يتخرج في مدرسة حربية، كان يعرف كيف يرتب رجاله في ميدان القتال ويعين لهم النقط الملائمة وينجد المراكز المهددة ويضرب العدو الضربة القاضية في الوقت المناسب، نازعاً منه ما احرزه في بادئ الامر من التفوق بعدده . وكثيراً ما كان يخلص بيقظته وجرأته جيشه من ورطات صعبة ومآزق خطرة ويحولها فجأة الى نصرة في جانبه .

وان شئت التثبت من ذلك عليك ان تراجع في الخالدي وصف المعارك الكثيرة التي خاضها، حيث كان مجرد حضوره ضماناً كافياً لنصرة ذويه . وقد رأيت كيف خلص الامير بشجاعته وحنكته ويقظته فرقة من جنوده وقعت في السنة ١٦٢٠ في كمين على ساحل طرابلس[١] .

وقد سطعت مواهبه الحربية في موقعة عنجر الشهيرة، حين تغلب باربعة آلاف على الجيش المتحالف المؤلف من اثني عشر الفاً، وفي مقدمتهم انكشارية الشام البعيدي الصيت . وسنأتي على وصف هذه المعركة في حينها[٢] .

٦ ـ **النظم والتجهيز** ـ اما العيوب التي اشار سانتي اليها فغير ناتجة عن تهامل الامير او جهله، بل عن تحريم انشاء المعامل والمدارس الحربية عليه . ومع انه لم يدرس فنون الحرب الا في ميادين القتال، فلم يال جهداً عن تجهيز جيشه وقلاعه باحدث الاسلحة واستجلاب الخبراء الاوربيين لتنظيمه وتدريبه وكان يبتاع باعلى الاسعار الاسراء الاوربيين الخبيرين ويغدق عليهم الرواتب الكبيرة ويعاملهم احسن معاملة .

وضع في قلعة الشقيف قبل سفره الى ايطاليا ثمانية عشر اسيراً فرنسوياً ماهرين باستخدام المدافع . فما اقترب منها الجيش العثماني ونصب مدافعه عليها حتى حطموها وفتكوا برجاله فتكاً ذريعاً اضطره الى العودة على اعقابه يجر اذيال الخيبة والعار . وسترى في الوثائق ان القائد فراتسانو قنصل تسكانا في صيدا كان من اسراء الامير وخدامه .

وكان الامير يلح على امراء الغرب اصدقائه ان يبعثوا اليه بالمهندسين والقواد

---

(١) رص ٣٦

(٢) خ ١٥٠ و١٥١

والخبراء الماهرين بصنع البارود وصبّ النحاس وتركيب المدافع واستخدامها. وقد سأل الغراندوق فردنان الثاني فارسل اليه فرّاناً لصنع الكعك للجنود. وكان يبتاع من الغرب بسخاء الاسلحة والمدافع والبارود وما شاكل ذلك من معدات القتال، التي جعلت جيشه يتفوق على مجاوريه.

وكان امراء الغرب يخطبون ودّه بهدايا من الاسلحة والذخائر والمدافع. ففي السنة ١٦٠٧ اهدى اليه نائب ملك اسبانيا في نابولي «مدفعين وكمية من البنادق واشياء غيرها». وفي السنة التالية بعث اليه فردنان الاول غراندوق تسكانا بالف قصبة للبنادق. ولما حالفه سأله الامير «اولاً ان يرسل اليه خبيراً بصب المدافع، مع المواد اللازمة لصب اثني عشر مدفعاً وما يلزمها من الكلل. ثانياً ان يستفك الفلورنتيين الثلاثة، الذين وقعوا اخيراً في اسر الاتراك ليستخدمهم عنده؛ لانهم عارفون حق المعرفة بحصونه وقلاعه. ثالثاً ان يبعث اليه بثلاثة ام اربعة ألغام».

وروى الخالدي ان احمد حافظ باشا استجلب في السنة ١٦١٣ من قلعة الامير في صيدا مدفعاً «كبره خارج عن الفهم ونصبه امام قلعة شقيف ارنون. فداخل من في القلعة الوهم. وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر[1]».

وعند وصول الامير الى تسكانا كان اول طلب قدمه الى قزما الثاني «ان يرسل الى ذويه خمسين او ستين قنطاراً باروداً وما يلزمها من الرصاص، واربعة او خمسة مدافع يسع كل منها قنابل وزنها من ١٢ الى ١٥ ليبرة. فنزل الغراندوق عند سؤاله وامر بان يعطى الكميات المذكورة وان يوفدوا الى ذويه عشرة رجال ماهرين باستعمال المدافع وصنع الدواليب وكل لوازم المدفعية».

وفي السنة ١٦٣١ بعث اليه الغراندوق فردنان الثاني مع مندوبه ليونشيني بكمية من قنابل المدافع «سر بها السرور كله». ولما عاد المندوب الى تسكانا اوصاه الامير بان يبتاع له «كمية وافرة من الاسلحة للرجالة والخيالة. وقارباً لاتينياً مع بحارته. وان يربط لخدمته مهندسين يجيدون بناء القلاع وترميمها».

وفي السنة عينها اوعز الى ابرهيم الخاقلاني، بان يشتري له من تسكانا «باروداً واسلحة وذخائر ونحاساً وان يصطحب معه خبراء بصب المدافع».

---

(١) خ ٣١

وفي السنة ١٦٣٢ كتب القنصل فراتسانو الى سيده ان البارود الذي ارسله الى الامير « أدّى له خدمة جلى في حملته على عرب فلسطين » .

وفي السنة ١٦٣٤ لما تعاقد سفيره المطران جرجس بن مارون مع البابا اوربانس الثامن وفردنان الثاني اشترط ان يرسلا اليه « مهندسين وخبراء في فني الحرب والتحصين مع بعض مدافع وكمية من البارود والرصاص ».

وقال سانتي في صدد كلامه عن جيش الامير « انه لا يملك قوة بحرية بتاتاً لان شعبه منصرف عن الملاحة » . وللامير عذره في ذلك فقد كان يستحيل عليه ان يجهز تحت انظار الاتراك اسطولاً يقاوم به عمارتهم، التي كانت تلقي الرعب في صدور الامراء والملوك الاوربيين انفسهم . انما سعى طيلة حياته الى احلال الاوربيين في جزيرة قبرس ليحموا باساطيلهم شواطئه الى ان يتسنى له تجهيز عمارة لبنانية .

ومنعاً للعمارة التركية من دخول موانئ صيدا وصور وعكا طمرها بالمراكب والحجارة . وكان قد حجز غليونين لقرصان مالطه لتعديهم على شواطئه فاستخدمها في الدفاع عن جيشه، اذا سار على الشاطئ، ونقل البضائع والذخائر والجنود بين هذه الموانئ، كما فعل في حملته على عرب فلسطين[١] .

ولما كان في تسكانا صرح لعاهلها انه « لا ينقصه للدفاع عن مملكته سوى قوات بحرية . اما في البر فلا يخشى الاتراك ولو جهزوا عليه مئة الف مقاتل » .

هذه الجهود تبرئ اميرنا من التهم الموجهة اليه في صدد تنظيم الجيش والملاحة الحربية[٢] .

الباب السابع ـ الحصون

قال المحبي في ترجمة فخر الدين « تدرّج بعد موت أبيه وعلا شأنه الى ان جمع جمعاً كبيراً من السكبان واستولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وبيروت وما في تلك

(١) خ ١٩٠
(٢) ف ٧٣–٧٧

الدائرة من اقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب . وعاد من بلاد الفرنج في شوال ١٠٢٧[1] وزاد بعد ذلك في الطغيان والاستيلاء على البلاد . وبلغت اتباعه نحو مائة الف من الدروز والسكبان . واستولى على عجلون والجولان وحوران وتدمر والحصن والمرقب وسلميه . وبالجملة فانه سرى حكمه من بلاد صفد الى انطاكية . وبلغت شهرته الآفاق حتى قصدته الشعراء من كل ناحية ومدحوه[2] . . . »

وقال المؤرخ نفسه في ترجمة احمد باشا الكجك قائد الحملة الاخيرة على الامير «كان الامير فخر الدين قد خرج عن طاعة السلطنة وجاوز الحد في الطغيان واخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق وتصرف في ثلاثين حصناً . وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيماً . وبالجملة فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة[3]».

وقد شك الاب لامنس اليسوعي، صاحب تاريخ سوريا[4]، في صحة كلام المحبي عن عدد جنود الامير وحصونه وسعة مملكته، وظنه مغالاة من حفدة الامير ومجاملة من الكاتب . مع ان المحبي كان يكره الامير والدروز كما يشتمّ من كلامه . بيد ان لدينا شهادة الامير نفسه . فقد كتب في السنة ١٦٢٤، كما سبق القول، الى اوربانس الثامن يبشره « باستيلائه على كل ولايات مجاوريه حتى انطاكية، مسافة مئات من الاميال » . فكان اذاً حاكماً على لبنان وسوريا، فضلاً عن قسم كبير من فلسطين، كما سنبينه في الفصل القادم .

ولدينا ايضاً شهادة فراتسانو قنصل تسكانا في صيدا . فبعد وصوله الى صيدا في اواخر السنة ١٦٢٩ قصد الى القاع في البقاع، حيث كان الامير، وعاد منها بطريق غير الاولى . وكتب الى سيده ما يلي بحرفه « تصل مملكة الامير الى مسافة نصف يوم من حلب، ويومين من بغداد . فعل ذلك للاستيلاء على قلعة تدمر . وتمتد حدودها من الجهة الاخرى الى مسافة نصف يوم من دمشق . اما شواطئها فتنبسط من حيفا، حيث يحكم الامير طرابيه، حتى أذنه . فتكون قد زادت سبعة اثمان عما كانت عليه في السنة ١٦١٣» . ووصف القنصل البلاد التي مر بها وصفاً يستلفت النظر، ستقرأه في الوثائق .

(١) ايلول ١٦١٨

(٢) مح ٣ : ٢٦٧

(٣) مح ١ : ٣٨٦

(٤) La Syrie II : 79

وقد جهز الامير هذه المملكة الواسعة، بالرغم من منع الباب العالي، بشبكة متينة من القلاع والحصون والابراج والاسوار، بنى بعضها ورمم البعض الآخر، لرد الغارات عن البلاد وتوطيد الامن فيها وحماية التجارة، كما قلنا. وحالما تلقى من الاستانة في السنة ١٦٢٤ لقب «سلطان البرّ»، الذي خوله السلطة على بلاد عربستان، قصد على رأس جيش لتفقد ولايته. فمر بحمص وحماه، واخترق برية سوريا وبلغ دجلة والفرات وعاد الى حلب فانطاكية فدمشق فحوران ومنها الى فلسطين، مرمماً القلاع ومجهزها برجاله، محصلاً الاموال الاميرية من مدنها وعشائرها، منظماً احوالها، قاطعاً دابر الشقاوة واللصوصية فيها. حتى ان والي حلب، حاكم المقاطعات الشمالية من سوريا، هرول لملاقاته وتقديم الطاعة له والذخيرة لجيشه. واستصرخه آل دمشق لشحة القمح، فبعث اليهم من حوران بالف جمل محملة منها، ونادى بالاسعار من اعلى المآذن وحذّر الطامعين والمخالفين، فطاعوه وشكروه. وسنشرح هذا في حينه[1].

وعلمنا من الدويهي ومن فراتسانو انه اخضع بلاد الكلبية اي النصيرية واستولى على قلعة صهيون الشهيرة في بلاد العلويين، فضلاً عن تدمر في برية سوريا الوسطى.

وفي السنة ١٦٢٨ كتب فخر الدين الى الدوق البوكركي نائب ملك اسبانيا في صقلية «وان سألتم عن احوال البلاد بتاع الاتراك فان في يدنا بلاد كثير واخذنا منهم حصارات كثيرة وقلع كثيرة». وفي السنة التاليـة ١٦٢٩ سأل غراندوق تسكانا ان يبعث اليه بما اخذه مهندسو بعثة السنة ١٦١٤ من رسوم القلاع اللبنانية بقصد ترميمها، خاصة قلعتي الشقيف وبانياس، اللتين هدمهما جركس باشا في السنة ١٦١٦، فضلاً عن رسوم صور ونيحا والمغارة.

ودعماً لكلامنا هذا واتقاء للمراجعات في بقية كتابنا رأينا ان نرتب هنا جدولاً الجدياً باسماء القلاع والحصون والابراج التي كانت في مملكة الامير وما عرفناه من تاريخ استيلائه عليها وترميمه لها، وهو عمل شاق اخذناه على عاتقنا للفائدة التاريخية التي تنجم عنه، راجين حلم القارئ اذا جاء ناقصاً.

١ - ابو الحسن من قلاع الصليبيين، منتصبة فوق نهر الليطاني. رممها الامير يوسف

---

(١) خ ٢٦٣ - ٢٦٤

الشهابي حوالى السنة ١٧٧٧ باعانات جمعها الاب عجيمي من فرنسا وايطاليا[١].

٢ - انطاكية . بنى فخر الدين في السنة ١٦٢٥ قلعة تشرف على المدينة[٢].

٣ - بانياس او صُبيبَه فوق مدينة بانياس الحالية، المعروفة قديماً بقيصارية فيلبس. روى ساندِيس في السنة ١٦١٠ ان الامير استولى عليها بحيلة . « ضرب خيمته بقرب سورها فجاء الشيخ صاحبها مرحباً به ودعاه لزيارتها. فدخلها الامير مع زهاء ثلاثين من رجاله مسلحين خفية . ولما استقر بها تسلق بقية رجاله الاشجار والابراج اليها حسب اتفاق سابق. فتملكها دون سفك دماء، وحصّنها، ونقل حاميتها القديمة الى غير مكان من مملكته[٣] » . وعلمنا من الدويهي ان اصحابها كانوا من بيت طريفه ومن اعداء الامير[٤]. وصفها ماشنجي وسانتي في تقريريهما وصفاً وافياً . دكها في السنة ١٦١٦ محمد جركس باشا والي دمشق[٥]، فاعاد الامير بناءها في السنة ١٦٢٥[٦].

٤ - البحصاص برج قبلي طرابلس استولى عليه مع طرابلس في السنة ١٦٢٧[٧].

٥ - بجعون قلعة من مقاطعة الضنيه، التي استولى عليها في السنة ١٦٢٣[٨].

٦ - بشري . كان فيها برج استولى عليه الامير في السنة ١٦٢٢[٩].

٧ - بعلبك قلعة عظيمة من عهد الفنيقيين حاصرها الامير في السنة ١٦٢٣ فلم يقوَ عليها[١٠]، ثم اخذها بعد نصرة عنجر في السنة نفسها[١١] فهدم جزءاً منها[١٢]. ثم رممها في السنة ١٦٢٤[١٣] . وصفها فراتسانو في الرحلة التي قام بها في اوائل السنة ١٦٣٠ .

---

(١) مجلة المسرة ١٦ : ٨١
(٢) خ ٢٤٣
(٣) س ٢١١
(٤) ز ١٢١ق
(٥) خ ٥٠
(٦) خ ٢٤٣
(٧) ز ١٣٥
(٨) خ ١٢٢
(٩) خ ١١٦ و ١١٧
(١٠) خ ١٦١
(١١) خ ١٧٢
(١٢) خ ١٧٣
(١٣) خ ٢٤٣

٨ – بيروت . كان لها برج غير الكشاف، يُعرف « ببرج بيت الامير جمال الدين ». وصفه الخالدي بين حوادث السنة ١٦٢٧ فقال انه « برج منيع حاكم على جميع المدينة والبيوت[1] » .

٩ – تبنين . من اعمال لبنان الجنوبي، سماها الصليبيون طورون[2] .

١٠ – تدمر . مدينة في برية سوريا . شهيرة في التاريخ والآثار الباقية . فيها قلعة تعرف بقلعة ابن معن، ما زالت قائمة حتى اليوم . ارتاب الابوان اليسوعيان لامنس[3] وتوتل[4] في دعوى استيلاء الامير عليها . مع ان المحبي ذكرها بين قلاعه[5] . وروى عنها الدويهي في حوادث السنة ١٦٣١ بقوله « توجه الامير في الرجال الى مدينة بعلبك بسبب قلعة تدمر . فاخذها من يد الاشوام[6] » . فهي غير القرية المعروفة بهذا الاسم بقرب العاقوره بلبنان في جرود مقاطعة جبيل[7] . وشهد ايضاً القنصل فراتسانو في السنة ١٦٣٠ بقوله بسط الامير حدود مملكته حتى حلب وبغداد ليستولي على قلعة تدمر[8] .

١١ – جبيل . قلعة قديمة جداً من عهد الصليبيين نزعها من الامير يوسف باشا سيفا في السنة ١٦١٨ وهدمها ليجعل حدود سيفا القبلية تحت رحمته[9] .

١٢ – جزين . مغارة محصّنة في جوار واديها . لجأ اليها الامير قرقماس في السنة ١٥٨٤ ومات فيها[10] . واختبأ فيها فخر الدين في السنة ١٦٣٤ فقبض عليه فيها[11] . وهي غير قلعة نيحا الواقعة شرق البلدة .

---

(١) خ ٦٧

(٢) خ ٥٥ Toron.

(٣) La Syrie II : 79

(٤) المشرق ١٩٣٤ : ٦٢٨

(٥) مح ٣ : ٢٦٧

(٦) ز ١٣٥ ق

(٧) د ١٦٥

(٨) ف ٣٣٤

(٩) خ ٧٨ و٨٠ و٨١

(١٠) د ١٧٨

(١١) د ٢٠٤ وخ ٢٤٨

١٣ - جينين حصن بمقاطعة نابلس كان يعرف «بعمارة فاطمة خاتون بنت السلطان الغوري» . استولى الامير عليه في السنة ١٦٢٣[١] .

١٤ - حصن الاكراد او قلعة الفرنجي . قلعة عظيمة ما زالت قائمة حتى الان . عرفت في عهد الصليبيين بحصن الفرسان[٢] . حاصرها الامير في السنة ١٦١٨ ورجع عنها صلحاً[٣] . وتسلمها بعد موت يوسف سيفا باشا من اولاده[٤] .

١٥ - حلب . في السنة ١٦٢٥ شيد الامير مقابل المدينة قلعة على كتف الروج[٥] .

١٦ - حيفا . وضع يده على برجها في السنة ١٦٢٣ وجهزه بحامية . ثم اخلاه صلحاً فهدمه ابن طرابيه[٦] .

١٧ - دوبيه . برج في بلاد بشاره قُبض فيه على الامير يونس اخيه في السنة ١٦٣٤[٧]

١٨ - السلط او الصلت . قلعة بمقاطعة عجلون استولى عليها في السنة ١٦٢٣[٨] .

١٩ - سلَميه او سليمه او سلمينه . قلعة الى الشمال الشرقي من حمص استولى عليها في السنة ١٦٢٥[٩] .

٢٠ - سمار جبيل . قلعة فوق البترون نزعها من سيفا في السنة ١٦١٨[١٠] هدم الزلزال برجها الاوسط في السنة ١٦٣٠، فاعاده الشيخ ابو نوفل الخازن في السنة التالية[١١]

٢١ - شقيف ارنون . قلعة دعاها الصليبيون بوفور[١٢] . روى سانديس في السنة

---

(١) خ ١٨٥ و١٩٣

(٢) Crak des Chevaliers

(٣) خ ٧٧ – ٨٠

(٤) دم ٢٠٢ و ز ١٣٥ و مح ٣ : ٢٦٧

(٥) خ ٢٤٣

(٦) خ ١٩٣ و١٩٧ و١٩٨ وز ١٣٣ق

(٧) خ ٢٤٨

(٨) خ ١٨٤ و٢٠١ – ٢٠٥

(٩) مح ٣ : ٢٦٧ و دم ٢٠٢ و د ٢٠٢

(١٠) خ ٧٨

(١١) د ٢٠٢

(١٢) Beaufort اي الحصن الجميل

١٦١٠ ان الامير «اخذها من صاحبها خدعة وحصنها تحصيناً قوياً وجعلها مخبأ خزنته[١]». وصفها سانتي وماشنجي في تقريري السنة ١٦١٤. هدمها جركس باشا في السنة ١٦١٦[٢]. وفي السنة ١٦٢٩ طلب الامير من الغراندوق رسمها ليعيد بناءها.

٢٢ – شميميس او الشاميس. حصن قديم بقرب حلب من اعمال العرب[٣].

٢٣ – الشوبك قلعة في سنجقية عجلون وتسمى كرك الشوبك. آلت اليه مع السنجقية في السنة ١٦٢٢[٤].

٢٤ – صافيتا في بلاد العلويين دعاها الصليبيون القصر الابيض[٥]. اخذها الامير من اولاد يوسف سيفا باشا بعد موت والدهم في السنة ١٦٢٥[٦].

٢٥ – صفد قال الاب روجيه ان الامير جدد في صفد قلعة الصليبيين المعروفة باسم الملكة استير[٧].

٢٦ – صلخد او سلخد في الحوران، قلعة بناها في السنة ١٦٢٥[٨].

٢٧ – صهيون. في بلاد العلويين قلعة من اعمال الصليبيين. ما زالت محفوظة جيداً. روى فراتسانو ان الامير تملكها عنوة في السنة ١٦٣٢. وصفها بول دشان في مجلة سيريا[٩].

٢٨ – صور. في السنة ١٦٠٧ عرض عليه ملك اسبانيا ان يبني له في هذه المدينة قلعة. وكان الامير يونس اخوه يسكن فيها قصراً حصيناً اثار شبهة الباب العالي في السنة ١٦١٩[١٠]. وادعى قنصل فرنسا في صيدا ان الامير اذن للتسكانيين ان

---

(١) س ٢١١

(٢) خ ٤٩ و ٥٠

(٣) د ٢٠٢

(٤) خ ٩٥ و ١١٠ و ١١٤

(٥) Château Blanc

(٦) د ٢٠٠ و ٢٠٢

(٧) La Reine Esther

(٨) خ ٢٤٣

(٩) Paul Deschamps. Syria. 1935

(١٠) خ ٨٦

يبنوا قلعة في صور . فيها الان برجان . برج في الميناء خربته الامواج . والثاني قائم على تل في مدخلها .

٢٩ – صيدا . لها قلعة في الميناء تصل باليابسة بجسر من حجر . واخرى على تل مرتفع يشرف على المدينة منسوبة الى لويس التاسع ملك فرنسا . قال ماشنجي « ان قلعة صيدا قابلة للتحصين » . وروى الخالدي عن مدفع كان في قلعتها « كبره خارج عن الفهم » جره احمد باشا حافظ في السنة ١٦١٣ لضرب قلعة الشقيف[١] . وقال الاب روجيه عن الخان الذي بناه فخر الدين في هذه المدينة للتجار الفرنسويين انه « بمثابة حصن قوي » . وقال عن المدينة ان المعنيين أحاطوها بسور يحميها .

٣٠ – طرابلس . فيها قلعة شهيرة للصليبيين ما زالت قائمة . صارت الى الامير في السنة ١٦٢٧ مع ايالة طرابلس[٢] . وذكر الاب روجيه ودلاروك[٣] قلعة اخرى « بناها الامير تحت طرابلس » .

٣١ – عجلون . ملك قلعتها في السنة ١٦٢١، لما صارت السنجقية اليه[٤]، فوضع في قلعتها حامية من رجاله[٥] .

٣٢ – عربيه . قلعة صليبية فوق وادي الابرش . احدى مراكز الدفاع عن طرابلس شمالاً .

٣٣ – غزير . عاصمة بني عساف . كان فيها قصر حصين انتزعه الامير من يوسف باشا سيفا في السنة ١٥٩٨ على اثر معركة نهر الكلب[٦] . وبعد ان رده اليه سلخه عنه نهائياً عقب موقعة جونيه في السنة ١٦٠٥[٧] . وقال سانديس « غزير مكان حصين لا يؤخذ[٨] » .

---

(١) خ ٢١
(٢) ز ١٣٥
(٣) De la Roque
(٤) خ ١١٠ و١١٤ و٢٠٣
(٥) خ ٢٠٢ و٢٠٤
(٦) د ١٨٣
(٧) د ١٨٥
(٨) س ٢١١

٣٤ – قب الياس . بنى فيها قلعة في السنة ١٦٢٥[١] ما زالت آثارها قائمة الى اليوم .

٣٥ – القليعات في جون طرابلس . كان فيها قلعــة قديمة ذكرها الدويهي بين حوادث السنة ١٢٦٤ مسيحية[٢] . وقال ان الامير عمرها في السنة ١٦٢٧[٣] » . ولعلها المقصودة من الاب روجيه ودلاروك .

٣٦ – القبرانية برج في الهرمل[٤] .

٣٧ – الكشاف . برج بناه الامير في السنة ١٦٣٢ في الطرف الشمالي من قصره ببيروت ليكشف منه الجوار والبحار[٥] . كان ارتفاعه ستين قدماً وسمك جدرانه اثني عشر، مما يدل، كما لاحظ موندرل، على ان الامير كان ينوي تعليته .

٣٨ – اللبوه . حصن يحمي مدخل البقاع من الجهة الشمالية، كما تحميه بعلبك من الجهة القبلية .

٣٩ – مارون . قلعة من اعمال الصليبين بجوار دير كيفا من مقاطعة صور . ما زالت آثارها باقية للآن .

٤٠ – المرقب . بين طرطوس واللاذقية تسلمها من اولاد سيفا في السنة ١٦٢٥[٦] .

٤١ – مسفيه . من قلاع الصليبين بين صافيتا وحصن الاكراد .

٤٢ – مصياف او مصيات . قلعة قديمة بين المرقب وحماه . احتلها في السنة ١٦٣٢[٧] .

٤٣ – مغارة الحمام بقرب صفد . روى الدويهي انه شيدها في السنة ١٦٣١[٨] .

٤٤ – نيحا او شقيف تيرون . وصفها ماشنجي وسانتي في السنة ١٦١٤ . نجت من الهدم الذي قرره جركس باشا في السنة ١٦١٦[٩] .

(١) خ ٢٦٣
(٢) د ١١١
(٣) ز ١٣٥
(٤) خ ٧٧
(٥) د ٢٠٣ و ز ١٩٧
(٦) دم ٢٠٢ و ز ١٣٤ق ومج ٣ : ٢٦٧
(٧) ز ١٣٦
(٨) ز ١٣٦ ق
(٩) خ ٣٨

٤٥- المريج تل . وفي بعض النصوص تل الريح بقرب صفد . كان مربط اللصوص فبنى فيه الامير عمارة محصنة في السنة ١٦١٩ وسوراً ووضع فيه حامية[1] .

تنبيه : راجع في فهرس الاعلام المرتب في آخر تاريخ الخالدي المطبوع حديثاً اسماء هذه الاعلام فتعرف شأن كل منها مع فخر الدين . ولما كان الامير متولياً سوريا ولبنان وقسماً كبيراً من فلسطين امسى صاحب كل القلاع والحصون والابراج والاسوار القائمة في هذه البلاد واكثرها من اعمال الصليبيين . فما سقط من اسمائها في هذه القائمة يضاف اليها .

(١) خ ٨٦ و٨٧ . تجد بقية المراجع في ف ٧٩ - ٨٣

الفصل الثاني

سياسة فخر الدين

الباب الاول - مشروع الوحدة اللبنانية

سطعت عظمة فخر الدين في سياسته الداخلية، الرامية الى الوحدة اللبنانية، والخارجية الرامية الى تعزيزها وتأمينها، سطوعاً أبهر ابصار معاصريه، فعدّوه عن حق « اكبر امير في الامبراطورية العثمانية » . رسم لوحدة لبنان واستقلاله وعظمته خطة واسعة النطاق، محكمة الجوانب، سعى وراءها طيلة خمس واربعين سنة، بقدم ثابتة وعزم حديدي ونظر حادّ، ويقظة وفطنة ومرونة . فأدرك الهدف وتجاوزه بمراحل .

من امير مقاطعة الشوف، الواقعة في طرف سلسلة لبنان الجنوبية، تمكن فخر الدين من ضم مقاطعاته الخمس عشرة المتفرقة سهلاً وجبلاً تحت لواء واحد . ولم يكتفِ بجدوده الطبيعية بل وسّعها حتى وراء أدنه في الاناضول شمالاً، وصحراء سوريا والجزيرة جنوباً، وحوران شرقاً . وتجاوزت قلاعه وحصونه وابراجه الاربعين، كما رأيت، وجنوده مئة الف . وتأميناً لهذا الملك الواسع من غدر تركيا وبطشها حالف امراء اوربا اعداءها الطبيعيين .

١ - السنجقيات والامارات - كانت سوريا في العهد العثماني، من جبال طوروس حتى رمال مصر، منقسمة الى ولايتين، حلب في الشمال، ودمشق في الجنوب، ولكل منهما سنجقيات . ولم يكن الوالي والسنجق سوى موظفين موقتين، اشتريا المنصب بالمال . لا يستقر بهما المقام حتى يدركهما النقل ام العزل . لاسيما اذا تغير جوّ السياسة في الاستانة . وكان كثير التقلب لضعف السلاطين وجشع الوزراء وضغط ثورة العجم الطويلة، التي استنفدت خزنة السلطنة، واهلكت رجالها، وضعضعت احوالها .

في التقرير، الذي قدمه الى دولته ڤنشنسو دندولو[1] قنصل البندقية في حلب، في ٢٧ شباط ١٦٠٢، عدّ ١٣٣ والياً تناوبوا على الشهباء في مدة ١٨٤ سنة، تسعة منهم عُينوا في السنوات الثلاث التي قضاها في هذه المدينة[2]. وشهد سانديس في السنة ١٦١٠ ان والي دمشق كان يتغير كل سنتين ام ثلاث[3].

واذا حطت رحال الوالي في مقر منصبه حامت حوله مطامع طلاب السنجقيات والوظائف الثنوية. فاستردّ منهم اضعاف ما بذله في سبيل وظيفته. وعمد الى الرعية فابتز مالها بشتى الاساليب، من ضرائب الى جرائم، الى بلص. ناهيك عما يستوفيه من اصحاب الاغراض، وطلاب الثأر ومثيري الاضطهادات والفتن الدينية. هذا والوزير غاضّ الطرف عن مظالمه، ولعله يشجعها ليقاسمه الغنيمة.

ولم يكن الفائزون بالسنجقيات والوظائف الثنوية باقل من الولاة وطأة على الشعب، ليستردوا اضعاف ما بذلوه للوالي او للوزير. لان الوالي لم يكن يملك حق التعيين بل التسمية فقط. يعرض للباب العالي امر الطالب، فيقره على منصبه ام يرفض المصادقة على تسميته، ويحوله الى ذويه والطارقين بابه رأساً والمزيدين في العطاء.

اما لبنان فكان مؤلفاً من مقاطعات مستقلة، لكل منها اميرها ونظامها وجيشها الوطني. ولم يكن للامير علاقة بالدولة العثمانية سوى بتأدية المال المعين على مقاطعته، يورده رأساً الى الباب العالي او على يد والي دمشق، وكيله في القسم الجنوبي من سوريا.

وفي ما عدا ذلك كان الامير مستقلًا عن الدولة العثمانية، يحكم في مقاطعته حسب التقاليد المرعية في اسرته وبلاده، لا يخالفها او يبدل فيها الا نادراً. وكان لكل مقاطعة اسرة عريقة في لبنانيتها توارثت الحكم فيها اباً عن جد قروناً عديدة. ولم يكن للامير الوارث من حاجة الى طرق الباب العالي ليقره في منصبه، الا اذا طمع بسنجقية يضمها الى مقاطعته، فيطلبها من الصدر الاعظم رأساً، ام بواسطة والي دمشق. وكان له من كواخيه وقواده شبه مجلس شورى، يأخذ رأيه في المهام الخطيرة والاوقات العصيبة، فيأخذ به غالباً واحياناً يستبد برأي نفسه.

---

(١) Vincenzo Dandolo.

(٢) Berchet: Relazioni p. 121

(٣) ص ٢١١

وللمحافظة على سلامة اراضيهم من تعدي الجيران وعلى الامن الداخلي من الاشقياء والطامعين، كان للامراء اللبنانيين، خلاف الجيش الوطني، جيش عامل من المستأجرة يحرسون القلاع ويسهرون على راحة العباد . وغرضهم من ذلك حقن دماء مواطنيهم، وتوفير اوقاتهم للزراعة والصناعة والتجارة كما سبق القول . فلا يستدعون الجيش الوطني الا لصد هجمات اجنبية او للقيام بحملات كبيرة .

فكان لبنان من هذا القبيل مستقلاً بنظامه مستقراً بأماراته الوراثية . وجل امرائه، ان لم نقل كلهم، من أسر استوطنت لبنان منذ القرن الثاني عشر في عهد الصليبيين او بعيدهم، وبعضها نزلته منذ القرن التاسع، فهي اذاً لبنانية . واشهر الاسر الحاكمة في لبنان من آل سيفا وشعيب وعسّاف وأبي اللمع وتنوخ ومعن وشهاب .

ولنستعرض تاريخ هذه الاسر بادئين من شمال لبنان الى جنوبه .

٢ ـ **الامراء اللبنانيون** ـ روى المؤرخون صالح بن يحيى وابن الحريري وابن سباط انه بعيد نكبة كسروان في السنة ١٣٠٧ م، التي دارت فيها الدوائر على نصارى لبنان وعلى حلفائهم الدروز من اتباع آل ابي اللمع، كُلف التركمان من آل سيفا وعساف، وامراء الغرب من آل تنوخ ومعن، محافظة السواحل اللبنانية، خوفاً من مهاجمة الافرنج لها واتصالهم بنصارى الجبل[١] .

فاكبر الظن ان آل سيفا تولوا حينئذ مقاطعة عكار، سهولها وجبالها . ونزل آل عساف من الكوره بامر الملك الناصر محمد بن قلاوون للمحافظة على الساحل حتى غزير[٢] . وفي السنة ١٣٤٥، بعد غارة ملك قبرس على بيروت، صدر الامر الى آل عساف وامراء الغرب بسكنى بيروت والمحافظة على شواطئها[٣] . وفي السنة ١٥١٥ ولى السلطان سليم العثماني بني عساف بلاد جبيل وكسروان[٤] .

اما طرابلس فكانت بيد النواب . ضمنها في السنة ١٥٢٣ محمد شعيب من عرقه[٥] .

(١) د ١٢٥

(٢) د ١٢٥ و ١٢٧

(٣) د ١٢٨

(٤) د ١٥٢ و ١٥٤

(٥) د ١٥٦

وفي السنة ١٥٢٨ وقع القتال بين آل شعيب ولاة طرابلس وآل سيفا ولاة عكار فانتصر آل معن امراء الشوف لآل سيفا اللبنانيين وايدوهم في حكم مقاطعتهم[١].

وروى الدويهي عن الامير منصور عساف ان حكمه امتد من نهر الكلب حتى الى حمص وحماه. وكان يولي هذه المقاطعات من يشاء. واتخذ كواخيه من آل حبيش الموارنة[٢]. وفي السنة ١٥٧٩ قُدّمت عليه الشكوى لقتله ابن شعيب صاحب طرابلس، فصدر امر السلطان بجعل طرابلس باشوية وان يتولاها يوسف سيفا التركماني[٣]. وثابر الباب العالي على تعيين النواب على طرابلس، بيد ان ابن سيفا لم يكن يترك لهم مجالاً للحكم.

اما مقاطعات المتن والغرب والشوف فكانت في عهدة المقدمين والامراء الدروز. ذكر المطران تادرس[٤] في تاريخه ان بيت ابي اللمع مقدمي الشحار والجرد والبقاع حاربوا في السنة ١٢٩٤م بجانب الكسروانيين الجيش الدمشقي الزاحف على كسروان فكسروه شر كسرة في عين صنين[٥]. وصاهر المعيون فخر الدين المعني الثاني، كما شهدت وثائقنا[٦]. واعطاهم الامير حيدر الشهابي في السنة ١٧١١ لقب امراء[٧]. وقد تنصروا في القرنين الاخيرين.

وكان آل تنوخ الدروز من نصارى العرب. ولما ظهر الاسلام اعتنقوه وسكنت قبيلة منهم حلب. ثم قامت الى الجبل الاعلى. وفي السنة ٨٢٠م استوطنوا كسروان. واقطع الملك نور الدين في السنة ١١٩٣م الامير حجي التنوخي القيسي مقاطعة الغرب. وفي السنة ١٣٠١ تبرأ علم الدين التنوخي من آل عشيرته وصار اميراً على الحزب اليمني[٨]. وانفردت سلالته باسم آل علم الدين وصارت عدوة التنوخيين. وكانت الست نسب والدة فخر الدين تنوخية. وفي السنة ١٦٣٤ لما قبض على فخر الدين اقيم الامير علي علم الدين

---

(١) د ١٥٨

(٢) د ١٧٣ و١٧٤

(٣) د ١٧٦ وز ١١٩ ق

(٤) استنابه في السنة ١٢٨٢ البطريرك ارميا الدملصادي لما سافر الى رومية. راجع مجلتنا البطريركية ٦ : ٣٣ و٧ : ٣٣٦

(٥) المجلة البطريركية ٧ : ٣٢٧

(٦) ف ٤٣٧

(٧) ش ٦٤ – ٧١

(٨) ش ٢٢٤ و٢٢٥

مكانه فقتل آل تنوخ واطفالهم في اعبيه غدراً وانقطعت بهم سلالة التنوخيين[١] .

فانت ترى ان آل تنوخ امراء كسروان ثم الغرب لبنانيون منذ فجر القرن التاسع . ولعل التقليد القائل باصل المعنيين المسيحي عائد الى اصل التنوخيين انسبائهم . والله اعلم .

وينتسب آل معن الى الامير معن الايوبي، الذي امره طفتكين صاحب دمشق في السنة ١١٢٠م ان يقوم بعشيرته الى البقاع ويصعد منها الى جبال لبنان لشن الغارة على الافرنج في السواحل . فسكن الشوف وتولاها، وتوارث اولاده واحفاده الحكم فيها[٢] .

وتولى امراء آل شهاب مقاطعة حوران منذ السنة ٦٤٤ مسيحية . وتزحوا في السنة ١١٧٣ الى وادي التيم واستوطنوه وتغلبوا فيه على الافرنج فحكموه[٣] . وفي السنة ١١٧٥ صاهروا آل معن[٤] . والتفت الاسرتان مع اسرة التنوخيين وظلت روابط القرابة والمصلحة تتمكن بينها حتى السنة ١٦٩٧، التي انقطعت فيها سلالة المعنيين بوفاة الامير احمد بن الامير ملحم بن الامير يونس شقيق فخر الدين المعني الثاني، فتولى ابن اخته الامير بشير الشهابي مكانه . ثم اقيم وصياً على الامير حيدر بن موسى الشهابي، الذي قررت الاستانة الحكم له، لانه ابن بنت الامير احمد المعني المذكور[٥] .

وظل الشهابيون يتوارثون الحكم في الشوف وتوسعوا فيه وفي بقية لبنان حتى السنة ١٨٤٢ .

ومما تقدم ثبت ان امراء لبنان كانوا جميعاً من ابنائه، ومستقلين في حكم مقاطعاتهم يتوارثونها اباً عن جد، بينما كانت سوريا بولايتيها حلب ودمشق رازحة رأساً تحت ضغط النير التركي، يحكمها ولاة اجانب توفدهم الاستانة كموظفين موقتين، لا يعرفون من لغة البلاد واحوالها سوى المال . ولا نعرف من هؤلاء الولاة العديدين اصيلاً، منذ نشأة العهد العثماني حتى اميرنا فخر الدين المعني الثاني .

وكانت مقاطعة صيدا وصور، المدينتين الفنيقيتين الصميمتين، جزءاً غير مجزأ من ولاية المعنيين امراء الشوف، قبل العهد العثماني . فقد كان الامير فخر الدين المعني

---

(١) ش ٢٤٦ و٢٤٧ و د ٢٠٥

(٢) ش ٢٤٧

(٣) ش ٤١ــ٤٥

(٤) راجع نسبتهم في ش ٣٦ ــ ٦٤

(٥) ح ٧٤٩

الاول صاحب الشوف متولياً على صيدا في السنة ١٥٠٥[١] . وبعد ان احتل السلطان سليم العثماني سوريا في السنة ١٥١٥ اقره على منصبه ومنحه لقب «سلطان البر»، الذي خوله الحكم على كل عربستان[٢] . قال الدويهي : «وكتب السلطان سليم الى امراء لبنان بالامان والحضور فحضروا فولاهم على مقاطعاتهم ورتب عليهم مالاً يسيراً . . . ولما عمرت البلاد جاء المتاولة من جهة بعلبك وسكنوا فاريا وحراجل وبقعاتا . والسنية من البقاع فاستوطنوا فنقا وساحل علما وفيترون وفقيع والجديده[٣] . وجاء الدروز من المتن والجرد وسكنوا برمانا ومزارع كسروان . ورجع النصارى النازحون من بلاد طرابلس . فان اهالي المجدل توجهوا الى عرمون واهالي يانوح الى كفور الفتوح . والشيخ حبيش بن موسى انتقل بعياله من يانوح الى غزير، حيث سكن الامير عساف[٤] » .

ولما غضبت الدولة على الامير قرقماس المعني في السنة ١٥٨٤ سلخت عنه صيدا وجعلتها سنجقية . بيد ان ولده فخر الدين الثاني استعادها بعد تسع سنين، اي في السنة ١٥٩٣ . وظلت صيدا تحت ولاية ورثائه حتى السنة ١٨٦٠، التي استأثر فيها الباب العالي بدخلها ودخل بقية الثغور اللبنانية كصور وبيروت وطرابلس، مع السهول اللاحقة بها، لقاء مبلغ كان يقدمه سنوياً الى الحكومة اللبنانية تعويضاً لها . والتعويض يثبت حقها في الملكية .

اما الجليل ومقاطعات نابلس وعجلون وغزه، التي ضمها الامير الى دولته، فقد كانت سنجقيات، يوزعها الباب العالي رأساً، ام بواسطة ولاة دمشق، على الذين يزيدون في العطاء . بيد ان سناجقها كانوا غالباً من عرب المفارجه وقنصوه وطرابيه الوطنيين، يتوارثونها ويتزاحمون عليها .

وقد استخدم فخر الدين المعني الثاني لتوحيد لبنان وضم ولايتي سوريا وسنجقياتها اليه وسيلتين : السيف والعطاء . استولى عنوة على بقية المقاطعات اللبنانية ووحّدها بالسيف، لانها كانت أمارات وراثية . اما الولايات وسنجقياتها فقد ابتاعها من الدولة العثمانية بالمال، لانها كانت تباع كالسلع في اسواق الاستانة لمن يزيد في العطاء .

ولنلقين الان نظرة على لبنان في السنة ١٥٩٠، التي تولى فيها فخر الدين امارة الشوف :

---

(١) د ١٦٣

(٢) خ ٢٦٢

(٣) راجع كتابنا «عودة النصارى الى جرود كسروان»

(٤) د ١٥٢ و١٥٣

٣ ـ لبنان في السنة ١٥٩٠ ـ ان سلسلة الجبل الجبارة، المنتصبة على الشاطئ الشرقي من بحر الروم، الناطحة السحاب على ارتفاع ٣٠٦٨ متراً، قد نصبت لبنان سيداً على البحار والسهول المنبسطة تحت قدميه. ولما كان سيداً كريم النفس شق ذيل ثوبه الاخضر المخملي خلجاناً ظريفة لجأت اليها القوارب من عواصف البحار، ووزع بسخاء على السهول المحيطة به المياه المتدفقة من جنباته، والمتجمعة من ثلوج رأسه.

بيد انه حرم نفسه خيراتها، واساء الى نفسه الاساءة كلها. لان السيول الهادرة جرفت تربته الى السهول فعقمته واخصبتها. والانهر المتدحرجة فتحت فيه الاودية العميقة كجروح بالغة في جسمه استنفدت دماءه لتغذية السهول. وجزأته الى مقاطعات مقطعة الاوصال: عكار، طرابلس، الضنيه، الجبه، البترون، جبيل، الفتوح، كسروان، القاطع، المتن، الغرب، الشحار، الجرد، الشوف، وادي التيم، البقاع، جبل عامل، بلاد بشاره، صيدا وصور.

وكان يتنازع هذه المقاطعات امراء كثيرون، بينهم الوطني الاصيل والاجنبي الدخيل. توصل اثنان منهم، منصور ابن الفريخ جنوباً، ويوسف باشا سيفا شمالاً، بالمكر والجسارة والقسوة، الى ضم اغلبها. وكانا يعدان العدة لابتلاع البقية.

كان ابن الفريخ البدوي ضاغطاً بيمينه الثقيلة على البقاع والجليل وعجلون ونابلس، ومادّاً يسراه لخنق امير الشوف الشاب فخر الدين المعني الثاني، وهو في ربيعه الثامن عشر. وكان ابن سيفا قابضاً بيد حديدية على طرابلس والجبه والضنيه وعكار وكامل سوريا الوسطى مع شبكة قلاعها وحصونها المنيعة. وتولى الامير محمد عساف الكوره والبترون وجبيل والفتوح وكسروان حتى بيروت. وقد جعل عاصمته غزير واتخذ كواخيه من آل حبيش وعطف على رعاياه من المسيحيين.

وكان الامراء والمقدمون الدروز من آل ابي اللمع وتنوخ وعلم الدين ومعن حاكمين مقاطعاتهم المتن والغرب والشوف في لبنان الجنوبي. بيد ان ابصار الداهيتين فروخ وسيفا كانت ترنو الى هذه المقاطعات وقد اتفقا على ابتلاعها وانتظرا الفرصة. فما عتمت ان جاءت.

في السنة ١٥٨٤ نهبت خزنة السلطان في جون عكار التابعة لابن سيفا. فزحف عليه جعفر باشا الطواشي واحرق عكار. بيد ان سيفا اتفق وابن الفريخ على الصاق

التهمة بالدروز وبمحمد العساف ليتخلصا منهم دفعة واحدة ويغنما مقاطعاتهم . فحضر ابرهيم باشا والي مصر الى الشوف بعسكر جرار وانهى الى قرقماس المعني امير الشوف ان يسلمه الغرماء . ولما لم يكن لديه غرماء، اختفى، فاباح الباشا لجنوده اموال الدروز واعراضهم ورؤوسهم، فقتلوا منهم ستين الفاً وامعنوا في نهب بلادهم وحرقها . ولما حضر ستمائة من عقالهم ليسترضوه غدر بهم وقتلهم .

وحضر اليه الامراء محمد بن العساف من غزير، ومحمد جمال الدين من عرامون الغرب، وابن عمه الامير منذر من اعبيه، فأخذهم مكبلين الى الاستانة، حيث برأوا ساحتهم لدى السلطان مراد بن سليم، فعاملهم بالحلم واعادهم الى مقاطعاتهم .

اما الامير قرقماس المعني فلجأ الى مغارة جزين ومات فيها عن ولدين، فخر الدين ويونس . وكان خالهما سيف الدين التنوخي، امير الغرب، قد ضمن ايضاً الشوف، فلما اشتد ساعدهما استدعاهما في السنة ١٥٩٠ وسلم فخر الدين اكبرهما مقاطعة ابيه وقواه بالمال والرجال[1] .

هذا هو الميدان المضطرب الخطر، الذي كتب لفخر الدين الشاب ان يخوض غماره .

٤ ـ **المحالفات** ـ لا نعرف اذا كانت الحوادث والفرص قد الهمت فخر الدين، أو والدته، تفاصيل مشروع الوحدة اللبنانية شيئاً بعد الشيء، ام انهما رسماه كاملًا قبل الشروع في تنفيذه، تاركين للحوادث والفرص تحويره او تفصيله . ومهما كان الامر فنحن نرى خطوطه واضحة لامعة وراء شبكة حياة الامير المحاكة من الحوادث العظيمة والاعمال الجبارة .

قلنا ان الامير استعمل للوصول الى هدفه السيف والعطاء . وهو، وان شاباً، لم يغتر بقوته، بل جمع على اعدائه قوى اعدائهم واصدقائه .

تحالف سيفا وابن الفريخ على هلاك الامراء اللبنانيين وابتلاع مقاطعاتهم . وكانا صاحبي الحول والطول في لبنان وسوريا وفلسطين . فجمع الامير عليهما المبغضين والمزاحمين وطلّاب الثأر او الغنيمة، فاصبح لديه فجأة وبلا نفقة جيش قوي، ان لم يوازِ جيشيهما عدداً وعدّة فاقهما ببأس قائده ويقظته .

---

(١) د ١٧٩ و ١٨٠ وز ١٢٠

ذكرنا من هؤلاء الحلفاء آل شهاب حكام وادي التيم برعاياهم الدروز، وآل حرفوش، الذين ولّاهم البقاع، بتبعتهم من اهل الشيعة، وعرب المفارجه مشايخ حوران، وعرب قنصوه امراء عجلون، وعلي باشا جانبولاد والي حلب، وموارنة لبنان الشمالي، الذين عملوا لمصلحته في ارض سيفا عدوه وواليهم .

وفي حملته على ابن الفريخ في السنة ١٥٩٣، وهي الاولى بعد ولايته على الشوف، نجد في معيته خلاف هؤلاء « الامير شرف الدين ومقدمي بيت الصواف وابي اللمع ومشايخ الجرد عموماً ومشايخ الشوف وجانب من كسروان »، كما ورد في حاشية علقت على مخطوطة « نصيحة الملوك للغزالي »[(١)]

وكان فخر الدين اذا سنحت الفرصة يشد المحالفة بأوصال القرابة . صاهر الامير علي شهاب ويونس الحرفوش ومقدمي ابي اللمع ويوسف سيفا ذاته . وبرهن لهم انه اخلص الاقرباء واوفى الحلفاء . الا انه اذا اشتم في نسيبه رائحة الخيانة عرف كيف يستخدم القرابة لهلاكه . كما فعل بيوسف سيفا حين حالف عليه الامير سليمان سيفا ابن اخيه[(٢)] والامير بلك ابنه[(٣)] .

واليك الان هذه السياسة في محور العمل[(٤)] :

الباب الثاني - الشروع في الوحدة اللبنانية

١٥٩٠ ـ ١٦١٧

ولد الامير فخر الدين المعني الثاني من الامير قرقماس معن والست نسب التنوخية في السنة ١٥٧٢، كما يستدل من الشعر الذي هنئ به والده وأرخ به مولده :

قد غدا الدين به مفتخراً أرخوه فخر دين هلّا[(٥)]

---

(١) مع ٦٨

(٢) خ ١٣٧

(٣) خ ١١٦ و ١٢٨

(٤) ف ٨٤ – ٨٧

(٥) مح ٣ : ٢٦٨

فكان اذاً في ربيعه الثامن عشر لما تولى في السنة ١٥٩٠ امارة الشوف .

١ ـ **مقتل محمد عساف** ـ ولم يعتل عرش أبيه حتى شعر به يتقلقل تحت قدميه. ففي السنة ١٥٩٠ نفسها توصل يوسف باشا سيفا الى ايقاع الامير محمد عساف في كمين بين البترون والمسيلحه والغدر به . «فانقرضت به دولة بني عساف الذين استوطنوا كسروان من السنة ١٣٠٦[١]» .

وفي السنة ١٥٩٣ تزوج سيفا ارملة ضحيته ووضع يده على جميع املاك آل عساف واموالهم . وقيل انه وجد في خزانتهم مائة كرة من القروش . وقتل من كواخيهم الشيخ سليمان والشيخ منصور والشيخ مهنا اولاد حبيش . ولجأ الشيخ يونس والشيخ حبيش اولادهم الى الامير محمد بن جمال الدين في الشويفات[٢] .

فتسنى لابن سيفا بهذه الضربة ان يضم اليه مقاطعات الكوره والبترون وجبيل والفتوح وكسروان حتى بيروت، وان يصبح ذا ثروة هائلة جمعها آل عساف طيلة ثلاثة قرون، وذا سلطة واسعة تمتد من بيروت حتى اللاذقية . فأمسى بقية امراء لبنان تحت رحمته .

هذا الخطر لم يفت ذهن الست نسب والدة الامير . فالى هذه المرأة المقدامة الذكية الفؤاد يعود نجاح فخر الدين في اول عهده، ان لم نقل في كامل خطته السياسية وحياته الادارية . فقد شهد سانديس في السنة ١٦١٠ « ان الامير لم يكن يشرع بقتال او يقوم بعمل خطير دون استرشاد والدته[٣] » .

٢ ـ **مقتل ابن الفريخ** ـ ولكن ما العمل والعدو عزيز الجانب قوي البطش غزير المال والرجال، سيد البلاد وداهية العصر . فقد « كان في وسع سيفا ان يجند اثني عشر الفاً[٤] من حملة البنادق المدربين على صنوف القتال »، كما شهد آنئذ قنصل البندقية في حلب، فضلاً عن قوى حليفه ابن الفريخ . فالنزول معه في الميدان هو عين

---

(١) دم ٩٢ق و د ١٨١

(٢) د ١٨٣ وز ١٢٠

(٣) س ٢١١

(٤) وفي التقرير المنشور في ف ١٢٨ « ثلاثين الفاً » .

الوقوع بين نارين : سيفا شمالاً والفريخ شرقاً وجنوباً . بيد ان الخطر كان داهماً لا يحتمل تلافيه تأجيلاً .

فرأى الامير ان يتخلص اولاً من ابن الفريخ ليحمي ظهره ويضعف عدوّه فيجمع عليه بعد ذلك كل قواه وقوى محالفيه . وقد توصل الى مأربه على اهون سبيل دون ان يجرد السيف من غمده . لم يتكلف سوى بضع دريهمات وكلمات معسّلات .

قال المحبي « وكان الامير منصور المعروف بابن الفريخ قد عظم امره . فولي حكومة البقاع . ثم اعطي حكومة نابلس . وانحاز اليه جماعة من جند دمشق[١] . واشتهر واخاف الدروز ثم شن الغارات عليهم . وكان هو السبب في اخذ ابرهيم باشا اليهم وقد جاء من نيابة مصر . ثم كان قيدومه حتى اثر فيهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم جمع له بين حكومة نابلس وعجلون . . . وزاد عتوه وتمرده . وخرب بلاد كثيرة وقتل خلقاً كثيراً . . . وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قبر الياس واستعمل فيها العَملة بالسخرة . وشرع في عمارة عظيمة خارج دمشق . وكان مبغضاً للرافض والدروز والتيامنة[٢] » .

« ثم لما ولي مراد باشا نيابة الشام، وهو الذي صار آخراً وزيراً اعظم، طلع من صيدا في احدى بعد الالف[٣]، فخدمه الامير فخر الدين بخدمة سنية واطمعه بكل جزئية وكلية . فعمل مراد باشا على قبض الامير منصور وهو آمن منه بعد ان آمره بعمل ضيافة له في بيته الذي ابتناه عند الدرويشية . ثم اعتذر عن الذهاب وامره ان تكون الضيافة عنده في دار السعادة . فلم يشعر الا وقد احيط به . ثم اودعه قلعة دمشق وعرض فيه الى السلطان مراد فجاء الامر بقتله . فقتل في نهار الثلاثاء ١٣ ربيع الاول ١٠٠٢[٤] واخرج من القلعة في بلنسة عتيقة . . . »

« وخلّف عشرة اولاد اكبرهم قرقماس الظالم العسوف . وكان عند قتل والده مقيماً ببوارش من ارض البقاع فارسل مراد باشا الى الامير فخر الدين بن معن يأمره بالكبس عليه . فتوجه اليه في جمع عظيم من الدروز والتيامنة . فقبل وصوله الى بوارش التي كان

---

(١) الانكشارية
(٢) سكان وادي التيم من الدروز والشهابيين
(٣) تبدأ في ٨ تشرين الاول ١٥٩٢
(٤) ٨ كانون الاول ١٥٩٣

نازلاً فيها جاءه النذير ففرّ ومعه مائة بندقاني . فعمدوا الى بيوته فنهبوها ونقلوا محاسنها الى بلادهم . ثم نزلوا الى قبر الياس ... ثم كانت عاقبته انه قتل على يد الامير موسى ابن الحرفوش بمواطأة الامير فخر الدين . وكان قتله في حدود ١٠٠٢[١] » .

٣ ـ **بيروت وصيدا** ـ وجاء في حاشية علقت على مخطوطة « نصيحة الملوك » للامام الغزالي، محفوظة في مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت « في مستهل ربيع الآخر ١٠٠٢[٢] برز الامر الى ساير الامارة والمقدمين بالركوب على بيت الفريخ وباحوا مالهم ودمهم وخدمهم . فقتل الامير فخر الدين ابن الامير قرقماس عمر بن الفلاحة من بيت الفريخ وابن زنبيل وارسل رؤوسهم الى الشام . وركب على قرقماس بن الفريخ الى قرية بوارش . وكذلك الامير محمد بن شرف الدين ومقدمين بيت الصواف ومقدمين بيت ابو لمع ومشايخ الجرد عموماً ومشايخ الشوف وجانب من بلاد كسروان . واجتمعوا اكابر طي وقيس ونهبوا جانب من بلاد البقاع . ثم انه في وسط ربيع الآخر سنة ١٠٠٢[٣] تولى الامير فخر الدين سنجق بيروت وصيدا بسعي مراد باشا[٤] » .

وجاء في تاريخ الازمنة للدويهي « في سنة ١٠٠٩ للهجرة[٥] جاء باشا الشام في البحر وطلع لمدينة صيدا . فواجهه الامير فخر الدين وقدم له التقاديم والذخاير فطيب خاطره وكتب عليه أيالة صيدا واقاليمها وسكن الامير في صيدا[٦] » .

وكانت صيدا تشمل اقاليم جبل عامل وبلاد بشاره ومنطقتي صور وعكا، كما يستدل من تاريخ الخالدي في معرض كلامه عن هذه الاقاليم التي صارت الى الامير حالما تولى صيدا .

وقد رأيت ان صيدا كانت بيدجده فخر الدين الاول في السنة ١٥٠٥ قبل استيلاء العثمانيين على سوريا وانها لم تنزع من آل معن الا موقتاً في السنة ١٥٨٤، حين جعلت سنجقية فاستردها فخر الدين بعد تسع سنوات[٧] .

---

(١) مح ٦ : ٤٢٦ – ٤٢٨
(٢) ٢٥ كانون الاول ١٥٩٣
(٣) ٨ كانون الثاني ١٥٩٤
(٤) مع ٦٨ و س ٢١١
(٥) تبدأ في ٣١ تموز ١٦٠٠ وهو خطأ
(٦) ز ١٢٠ ق
(٧) ف ٨٧ و ٨٨

وصيدا وصور على ما قدمنا مدينتان عظيمتان من صميم فنيقية بلغتا اوج السؤدد والثروة واصبحتا محور التجارة في البحر المتوسط بل في العالم القديم . دمّر المماليك ميناءيهما بعد نزوح الصليبيين عن لبنان وسوريا وضموهما الى ولاية بيروت التي عهدوا بها الى امراء الغرب اللبنانيين[١]، ثم الى آل عساف كما بينا .

قال الاب روجيه « ان صيدا مدينة بنهضتها الحالية الى المعنيين - كانت خراباً فرمموا قلعتها واقاموا سورها » . وروى الرحالة موندرل ان فخر الدين الثاني بنى فيها قصرًا لنزوله، وخاناً للافرنج يحتوي اربعاً وعشرين غرفة لنزول التجار وخزن بضائعهم . وقد اتخذه قنصل فرنسا مركزاً له واقام فيه معبداً كلف خدمته الاباء الفرنسيسكان .

واكبر الظن ان الامير كان يقضي الصيف في دير القمر وبقية السنة في صيدا . وفي السنة ١٦٠٥ لقبه كاتشيماري « بصاحب صيدا » وقال عنها انها « مدينة حصينة لها ميناء صالحة للملاحة » .

وفي السنة ١٦٠٨ استقبل الامير وفد الغراندوق فردنان الاول في قصره بصيدا . وبعد عودته من ايطاليا ترك الامير هذه المقاطعة لولده علي، الذي نصِب عليها في غيابه في السنة ١٦١٥[٢]، واستوطن بيروت . وذكر الخالدي ان الامير بعد ان خرج عمر باشا حليفه من طرابلس في ١١ ربيع الاول من السنة ١٠٢٨[٣] « عاد الى بيروت محل سكناه[٤] » .

وكانت صور كما سبق القول تابعة لسنجقية صيدا فعني الامير بعمارها وسلمها بعد عودته من الغربة الى اخيه الامير يونس . وانشأ فيها قصرًا حصيناً اثار شبهات الباب العالي، فاوفد في السنة ١٦١٩ علي باشا قبطان البحر ليتحقق من امره[٥] .

واصبحت صور لمركزها الحربي الممتاز محور كل المشاريع التي اعدها فخر الدين والامراء المسيحيون حلفاؤه في السنين ١٦٠٥ و١٦٠٨ و١٦١١ و١٦١٤ و١٦٢٤ و١٦٣٢

---

(١) H. Lammens. La Syrie II : 17, 18

(٢) خ ٤٥ و٤٦

(٣) ٢٧ شباط ١٦١٩

(٤) خ ٨٢

(٥) خ ٨٦

و١٦٣٤ و١٦٣٧ لنزول الحملة على الاراضي المقدسة، كما تشهد التقارير العديدة والخرائط الموضوعة لهذا الغرض . وقد نشرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب[١] . وكانوا يعرفون فخر الدين في اوربا « بأمير أو باشا صيدا »، او «بأمير صيدا وصور[٢] » .

ونرجح ان الامير سعى لدى مراد باشا القبوجي بتسليم سنجقيات ابن الفريخ الى حلفائه . لان الخالدي الذي استهل تاريخه في السنة ١٦١٢ ذكر الامير حمدان قانصوه سنجقاً لعجلون، وعمرو شيخ عرب المفارجه حاكماً لحوران[٣]، والامير يونس حرفوش صاحب بعلبك والبقاع[٤] . ورأيت ان الامير موسى حرفوش، ابن عم الامير يونس المذكور، رافق فخر الدين في حملته على ابن الفريخ وقتل بايعازه قرقماس الطاغية . ونراه في السنة ١٦٠٢ يكبس جبة بشري التابعة لابن سيفا انتقاماً لمقدمي جاج حلفاء فخر الدين، الذين قتلوا بايعاز سيفا[٥] .

بيد ان موسى حرفوش انحاز في السنة ١٦٠٦، لاسباب نجهلها، الى يوسف باشا سيفا، وقاتل في جانبه فخر الدين وحليفه جنبلاط في معركة عراد[٦]، ومات بعد قليل . اما ابن عمه يونس حرفوش فافترق عنه وحارب في صف فخر الدين . وبعد الانتصار « وقفه الامير على بعلبك والبقاع[٧] » .

ومما سبق ظهرت حكمة الامير وعفة نفسه . فقد اكتفى من تركة ابن الفريخ بصيدا، وسلم الى حلفائه من العرب والحرافشة سنجقيات عجلون ونابلس والبقاع . وجعل له منها حول مملكته الجديدة منطقة صديقة تتلقى عنه صدمات العدو الاولى، وتخوله الوقت الكافي لمنعه عن دوس اراضيه .

٤ ـ كسروان والفتوح ـ اصاب الامير بالسهم الذي صرع به ابن الفريخ،

---

(١) ف ١٠٣ و٢٢٥ و٢٤٢ و٢٨٨ و٢٩٣ – ٢٩٥ و٤٣٨ و٤٣٩

(٢) ف ١٠٢ و١٠٣

(٣) خ ٧ و٨

(٤) خ ٥

(٥) ز ١٢١ ق

(٦) مح ٣ : ١٣٦ و ١٣٧

(٧) خ ١٣٤

وهو الاول بين سهامه السياسية، هدفاً تشعب الى خمسة، كان لها الشأن الخطير في مشروعه الكبير وفي حياته . فقد ثأر لابيه وذويه، وتخلص من عدو قدير، واضعف ابن سيفا عدوه الآخر، وسلخ عن الاول صيدا وعن الثاني بيروت؛ فضلاً عن سنجقيات عجلون ونابلس والبقاع، التي وزعها على حلفائه من آل قنصوه والمفارجه وحرفوش، فتقوى بتقويتهم . واصبح في مقدوره ان يتفرغ لاذلال ابن سيفا الذي بدأ نجمه آنئذٍ في النزول، وما زال به الامير حتى اضطره الى الافول، بينما نجم فخر الدين اخذ في الصعود حتى فاته بمراحل .

كان استيلاؤه على بيروت تحدياً لابن سيفا جعل الندّين المتنازعين سيادة البلاد يقفان الواحد من الآخر موقف الحذر . واصبح لا مفر من ان يترك الواحد الميدان للآخر، او يُعدَم . ولم يطل بهما الامر حتى التقيا وجهاً لوجه .

بعد ان ترك مراد باشا ولاية دمشق جهز ابن سيفا في السنة ١٥٩٨ جيشاً كثيفاً لاسترجاع بيروت . فانتظره الامير مع حلفائه في وادي نهر الكلب الضيق، حيث لا يسع الجيش الضخم الحركة، وباغته وكسره وسلخ عنه كسروان والفتوح . وفي احرج المعمعة قتل رعد بن نبعه الطبشراني الامير علي ابن اخي يوسف باشا سيفا[1] .

رأى سيفا نفسه مغلوباً في ميدان الطعان، فلجأ الى الدهاء . وما زال يداهن فخر الدين حتى صالحه واستردَّ منه المقاطعتين بعد سنة .

فضّل الامير صداقة هذا العدو، الذي كان سيد البلاد الاكبر، وصاحب النفوذ العظيم لدى الباب العالي، على عداوته . بيد ان سيفا ما عتم ان خانه . روى الدويهي بين حوادث السنة ١٦٠١ « وفيها يوسف باشا حوّل الحاج يوسف وابو قانصوه ولدي احمد حماده على مقدمين جاج بسبب انهم كانوا من حوف الامير فخر الدين . وعندما كانت ايام الحصاد اخذوا مكاتيب من ابن سيفا بطلب الذبيحة حتى يزوجوا اخاهم الصغير وساروا الى جاج فحظيوا بالمقدمين عند البيادر قتلوهم اربعتهم وغنموا اموالهم وارزاقهم . ودخلوا على مشيخة جبيل عوضهم[2] » .

وتابع الدويهي روايته بقوله « وفي سنة ١٦٠٢ كبس الامير موسى ابن الحرفوش

(١) د ١٨٣ و١٨٤ وس ٢١١

(٢) دم ٩٣ ق ود ١٨٤ وز ١٢١ ق

مع جماعته جبة بشري[١] فنهبوا بيوتها واخذوا سايقتها لان اهلها كانوا في الساحل في حلالة القز . فلما بلغ ذلك يوسف باشا جمع سكمانه واهل الناحية فوق خمسة الاف نفس . فكبسوا مدينة بعلبك في يوم عيد مولد ماريحنا ونهبوا وقتلوا . فتشتت اهلها واحتمى شلهوب بن نبعه في قلعة بعلبك مع جماعة الحرافشة ومن اهالي البلد ما ينوف عن الف رجل دون النساء والصبيان . فخرق ابن سيفا بلاد الحدث وحاصر القلعة مدة خمسين يوم ثم ملكها وقتل لابن فاطمه ورعد بن نبعا من طبشار لانه كان مع الامير فخر الدين في وقعة نهر الكلب وقتل ابن اخيه الامير علي[٢] » .

فلم يطق فخر الدين صبراً على فتك ابن سيفا بمحالفيه وسلبهم مقاطعاتهم فتأهب لمنازلته . روى الدويهي بين حوادث السنة ١٦٠٥ « فيها كان الوقعة بين الامير فخر الدين وبين يوسف باشا سيفا عند جونيه . وكانت الهزيمة على ابن سيفا . وحكم البلاد الامير فخر الدين حتى جاء الحافظ . وكان الحاكم من قبله في اغزير الشيخ يوسف ابن الاسلماني[٣] » .

٥ ـ **معركة عراد** ـ لم يكن كسروان سوى ذنب الافعى . فقد بقيت في حوزة سيفا مقاطعات لبنان الشمالي وسوريا الوسطى، من جبيل حتى اللاذقيه، اي انه ظل حافظاً لقواه السياسية والحربية . فعقد فخر الدين، محافظةً على فتوحاته وخوفاً من نقمة عدوه، محالفة دفاعية هجومية مع علي باشا جانبولاد، الذي اغتصب ولاية حلب . روى المحبي عن علي باشا « انه امتنع من تأدية الاموال السلطانية، وجمع من السكمان او التفنكجيه ما اربى على عشرة الاف . فارسل يوسف باشا صاحب عكار الى باب السلطنة رسالة يطلب فيها ان يكون اميراً على عساكر الشام، والتزم بازالة الامير علي عن حلب . فجاء الامر على ما التزم . وارسل الى عسكر دمشق وامراء ضواحيها يطلبهم الى مجتمع العساكر وهو مدينة حماه . فتجمعوا هناك من كل ناحية » .

وارسل علي باشا يستنجد حليفه فخر الدين فاسرع برجاله واحتل طرابلس . وكان التصادم بقرب حماه فانكسر سيفا . وبينما كان منهزماً سدّ عليه فخر الدين الطريق

---

(١) التابعة ليوسف باشا سيفا

(٢) دم ٩٦ و د ١٨٤ و١٨٥

(٣) ز ١٢٢ و د ١٨٥ . والاصح المسلماني كما ذكره الخالدي خ ١٩ و٤٣ و٥٢ . وهو مسيحي كما قلنا

واضطره الى ركوب البحر الى قبرس[١]. واردف المحبي بقوله « واستولى الحليفان على مخيمه ومخيم عسكر الشام . ثم تشاورا على ان يقصدا طرابلس . فبعث علي باشا درويش ابن حبيب بن جانبولاد الى طرابلس . فضبطها واستولى على غالب اموال من وجده هناك واستخرج دفائن كثيرة لاهلها » .

« وسار الحليفان الى ناحية البقاع العزيزي واظهرا انهما غير راغبين في مقاتلة عسكر الشام » . اما ابن سيفا فلجأ الى احمد طرابيه، صاحب غزه فجهزه بجامية اوصلته الى دمشق حيث عاد الى تأليف جيش كبير . فلما علم جانبولاد وفخر الدين بقدومه قصدا الى دمشق . وتابع المحبي روايته « وكان قد استقر في واديها الغربي ما يزيد على عشرة آلاف رجل . والتقى الجيشان في نواحي عراد في يوم السبت اواسط جمادى الاخرة ١٠١٥[٢] وانكسر العسكر الشامي حتى قال ابن جانبولاد « العسكر الشامي ما قاتلنا وانما قابلنا للسلام » .

« وزحف ابن جانبولاد حتى قرية المزه . واما ابن معن فكان ضعيف الجسد في هاتيك الايام وكان نزوله في جامع المزه . واصبحت ابواب البلد مقفلة . وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلاً ومعه الامير موسى ابن الحرفوش . ولما عرف ابن جانبولاد بهربه غضب ونادى بالسكمانية ان يذهبوا مع الدروز وجماعة ابن معن لنهب دمشق . فوردوا افواجاً افواجاً الى خارج دمشق وشرعوا في نهب المحلات الخارجية . واستمروا ثلاثة ايام . وكانوا يأخذون الاموال والاولاد الذكور ولم يتعرضوا للنساء . فخرج عقلاء دمشق وراضوه بمائة وخمسة وعشرين الف غرش . فنادى ابن جانبولاد بالرحيل عن المزه . وسار على طريق البقاع وفارق ابن معن هناك » . وروت الوثائق التسكانية ان جانبولاد عرض على الامير قسماً من هذا المال فلم يرضَ ان يأخذ منه شيئاً . وكان في جانبه بهذه المعركة، خلاف المذكورين، ابن الشهاب امير وادي التيم ويونس بن الحرفوش .

ولجأ ابن سيفا الى حصن الاكراد فقصد اليه جانبولاد وحاصره . قال المحبي « واستصفى منه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش[٣] » . قال الدويهي « وصار الصلح بين

---

(١) س ٢١١ وف ١٤٣

(٢) ١٨ تشرين الاول ١٦٠٦ . وورد في ساندبس « في اواسط تشرين الاول » س ٢١١ .

(٣) مح ٣ : ١٣٦ و ١٣٨ و ف ١٤٢ و١٤٣ وخ ٥ و٦

يوسف ابن سيفا بكلربكي طرابلوس وبين علي باشا ابن جنبلاط . وتأهلوا من بعضها وتجدد اوجاق ابن جنبلاط الذين تسموا تفكجيه[١] » . وروى هيبوليت ليونسيني في تقرير ارسله الى بلاط تسكانا في السنة ١٦٠٧[٢] «واتفق الفريقان على ان يزف يوسف سيفا ابنته الى علي باشا، وان يزف هذا شقيقته الى ابنه حسين سيفا . ولما درى فخر الدين بالامر ارسل يتهدد ابن جانبولاد بقطع علاقاته به . فاجابه انه يفضل صداقتـه على مصاهرة ابن سيفا وامتنع عن ارسال شقيقته اليه . ولما قدمت ابنة سيفا الى حلب منعها من دخول قصره وارسلها الى احدى قريباتها في الشهباء . بيد ان سيفا لم يُعدم وسيلة لارضاء الحليفين» بالمال والمصاهرة . واكبر الظن ان يوسف سيفا زف بهذه المناسبة ابنة علي ابن شقيقه، المقتول في معركة نهر الكلب، الى فخر الدين[٣] .

رضي الامير بهذا الزواج املاً في ان تصبح هذه المصاهرة الثلاثية محالفـة يتضامن فيها الثلاثة على شد إزر بعضهم بعضاً وعـلى استقلال البلاد عن الدولة العثمانية، ظالمة الجميع . ووقع الاتفاق ان تبقى حمص وحماه مع لبنان الشمالي لابن سيفا، وولاية حلب لابن جانبولاد وان يحتفظ فخر الدين بالفتوح وكسروان وبقية لبنان الجنوبي .

بيد ان سيفا ولد خائناً . ففي السنة التالية جهز الباب العالي حملة على ابن جانبولاد بقيادة مراد باشا القبوجي . فاسرع فخر الدين لنجدته . اما سيفا فكان اول من وقف في جانب الوزير ضد صهره . ولما غلب على امره فكر الوزير في توجيه كل قواته على الامير . وارسل يسأله عن سبب عصيانه على الدولة . فاجابه الامير بهدية قدرها ثلاثمائة قرش ذهب ارسلها في غرة شعبان ١٠١٦[٤] مع ابنه الامير علي، ولم يكن قد تجاوز التاسعة، وبرفقته مستشاره الحاج كيوان ابن عبدالله من كبار انكشارية الشام . فاقتنع الوزير بهذا الجواب المفحم، وكتب يعتذر عن الامير الى السلطان . وجدد له سنجقيات صيدا وبيروت وغزير باسم ابنه علي الصغير[٥] .

---

(١) ز ١٢٢

(٢) ف ١٤٢

(٣) هكذا يفهم من كلام ليونسيني المبهم . وقد ذكر الخالدي بنت سيفا في السنة ١٦١٣ زوجة ثانية لفخر الدين (خ ١٨) . ولدينا وثائق مهمة اصيلة عن ثورة علي باشا جانبولاد ومحالفته لفردنان الاول غراندوق تسكانا وكسرته وما جرى في حلب من جرائها، سننشرها بفرصة قريبة .

(٤) ٢١ تشرين الثاني ١٦٠٧

(٥) خ ٥ و٦ و س ٢١١

ولم يكتفِ سيفا بخيانة صهره جانبولاد بل كان اول من سعى لدى الباب العالي ضد فخر الدين صهره الآخر، ودبّر عليه حملة السنة ١٦١٣ . وانتهز فرصة غيابه فغزا بلاده وحرق قصره في دير القمر واسترد بيروت وكسروان والفتوح . ولما تمكن الامير علي معن ابن فخر الدين في السنة ١٦١٥ من استرجاع ولاية أبيه، جمع سيفا على الشاب كل اعداء المعنيين من اليمنية وغيرهم . الا انه لقي جزاء خيانته بكسرة شنيعة كانت له في الرابع عشر من آب السنة ١٦١٦، في اربع مواقع : اعبيه واغميد وعين داره والناعمه . واهمها الاخيرة .

ولما عاد فخر الدين من ايطاليا في اواخر ايلول السنة ١٦١٨، وجد ابنه علي قد استرجع بهمة جيشه اللبناني المقاطعات التي استولى عليها قبل سفره، من الفتوح شمالاً حتى عكا جنوباً . فعمد الى انجاز مشروع الوحدة اللبنانية بضم لبنان الشمالي ولبنان الشرقي[1] .

الباب الثالث - اتمام الوحدة اللبنانية

١٦١٨ ـ ١٦٢٤

١ - جبيل والبترون - قضى الامير في ايطاليا خمس سنين منفياً ذليلاً كان في اثنائها عالة على امرائها . بيد ان هذا المنفى الطويل لم يثبط عزيمته بل اذكاها . ولما وطئت رجلاه عكا في آخر ايلول من السنة ١٦١٨ وعلم بالشرور التي اتاها ابن سيفا في ابان غربته اقسم بهدّ قواه واذلاله . ووردت امراء البلاد ومشايخها للسلام عليه، وبينهم الامير حسن ابن يوسف باشا سيفا جاء بهدية من الخيل . فالتفت اليه الامير وقال له « ما نحن محتاجون الى هذه الخيل بل مرادنا اخشاب نعمر بها حارتنا التي حرقها حسين باشا [اخوك] في الدير . والاثنين والعشرين الف غرش التي استدانتها جماعتكم من جماعتنا في اسلامبول، وجميع طرشنا وطرش توابعنا الذي ارسلناه الى عند ابيك وديعة ضبطه لنفسه . وكل من راح من جماعتنا اليه اخذ منه جريمة . وشكواه علينا الى الباب

(١) ف ٨٧ – ٨٩

العالي، وسباقه قدام الحافظ ونهبه بلادنا. والان مراده ان ينسينا كل ما فعله من الاشياء الذميمة بارسال راسين من الخيل[١] » . واقسم الامير :

بحـق زمزم والنبي المختـار لاعمّرِك يادير بحجار عكار[٢]

وكان عمر باشا الكتانجي قـد تعين على ايالة طرابلس ولم يمكنه سيفا سوى من ضبط المدينة وتمنع عن تسليمه مالها . فكاتب الامير بالركرب على ابن سيفا فوافقه . فتوجه من بيروت في ١٨ كانون الثاني من السنة ١٦١٩ . وارسل الى الشيخ ابي نادر الخازن ان يمسك طريق نهر ابرهيم، كي لا يدري سيفا بقدومـه، والى ولده علي ان يجمع رجال صفد وبلاد بشاره والشقيف في صيدا، والى الامير علي الشهابي ان يحضر الى هذه المدينة برجال وادي التيم . وسبقهم هو بمن معه . فلما بلغ نهر ابرهيم وجـد الشيخ ابا نادر واهالي كسروان في انتظاره . فركب بثلاثمائة خيّال الى عكار ووصل اليها عند الغروب . وبعد ساعة اذا بمشاعيل خارجة منها ومتجهة نحو الحصن . فتحقق الامير ان ابن سيفا قد درى بقدومه وهم بالهرب . فنزل عن فرسه ومشى امام عسكره لوعرة تلك الاراضي . وكان للحصن طريقان تبع الامير احداهما فالتقى باحمال سيفا . وغنم عسكره من اصناف الحرير والانسجة كمية وافرة . والتقى بالامير محمد بن حسن سيفا، ابن اخت علي باشا جانبولاد صديقه، وهو طفل في الخامسة، فارسله مع والدته الى سير في الضنيه ثم الى حارة الناعمه .

بيد ان سيفا تمكن من الهرب على الطريق الاخرى . فلحقه الامير بالف رجل فقط، لتكاسل الرجال من تعب الطريق وغزارة الامطار . وهجم على جيشه المصطف امام الحصن فضعضعه . وحاصر الحصن حيث لجأ ابن سيفا وجماعته .

وفي اثناء الحصار ركب ليلاً بمائة فارس الى عكار وحرقها وعين عملة فهدموا قصور ابن سيفا وذويه الفخمة، ما عدا قصر الامير محمد الصغير، ونقل حجارتها الصفراء الجميلة حتى البحر ومنه الى صيدا فدير القمر، حيث تشاهد في اغلب ابنية المعنيين[٣] .

وعاد الى حصار الحصن . ولما لم يكن سيفا لينتظر مباغتة الامير في فصـل الشتاء

(١) خ ٦٨ – ٧٠
(٢) ح ٧٢٠
(٣) ح ٧٢٠

والبرد القارس نفد منه الخبز واكل مع ذويه لحم الخيول . ثم اضطر الى مصالحته على ستمائة الف غرش . نقده منها مائة الف وكتب له بالبقية سندات على نفسه مضمونة برهن املاكه في طرابلس وغزير وبيروت . وكان ذلك في ٢٠ ربيع الاول من السنة ١٠٢٨ [١] .

ولم يكتفِ الامير باضعافه مالياً بل ضمن من عمر باشا المذكور مقاطعتي جبيل والبترون ونقده مالها السنوي سلفاً . فوضع سكمانه في قلعة سمار جبيل وهدم قلعة جبيل، ليترك باب هذه المقاطعة امامه مفتوحاً، اذا تسنى لابن سيفا استرجاعها . وكانت قلعة منيعة من عهد الصليبيين . وباشر بناء قلعة اخرى فوق البترون . وكان اهالي المقاطعتين قد هربوا خوفاً، فتريث الامير بضعة ايام وطيب خاطرهم واعادهم الى قراهم . لان خطته كانت عمار البلاد . وولى على جبيل الشيخ ابانادر الخازن وعلى البترون المقدم يوسف ابن الشاعر، وهو من ابناء هذه المقاطعة [٢] .

وفي ايار من هذه السنة فاز ابن سيفا من الباب العالي باسترجاع مقاطعتي جبيل والبترون . وتنازل عنها نهائياً الى الامير فخر الدين لقاء استعادة حفيده الامير محمد ووالدته [٣] .

٢ ـ **جبة بشري** ـ هي مهد الموارنة حلفاء فخر الدين المخلصين، واغنى المقاطعات اللبنانية بالرجال الاشداء والحرير والزيتون . كان الامير يرنو اليها بعين يقظى . فان سلخها عن سيفا حرمه اخصب بقعة في دولته، وحرر الموارنة من نيره الثقيل وضمهم الى صفوفه .

ولم تعتم الفرصة ان جاءت . في السنة ١٦١٩ نفسها ارسل يوسف باشا سيفا ابن اخيه محمد يعرض على الامير ان يعيد اليه مقاطعتي جبيل والبترون لقاء تنازله له عن املاكه في غزير . فنفر الامير من كلامه واجابه « لقد اشتكى علي عمك الى الباب العالي بعد عقد الصلح بيننا، وجاءنا الان بهذا الكلام . فاما ان ينزع نعمتي او انزع

---

(١) ٧ آذار ١٦١٩

(٢) خ ٧٣ – ٨١

(٣) خ ٨١ –٨٤ و ف ٨٩ – ٩٢

نعمته . وبدلاً من ان اعيد اليه جبيل والبترون، لقد صممت على ضمان طرابلس ايضاً بمئة الف[١] » .

قال هذا واوفد حالاً كتخداه مصطفى الى الاستانة، ففاز بولاية طرابلس باسم حسين باشا جلالي صديقه . واستصدر امراً بنفي يوسف باشا سيفا وهدم قلاعه وضبط ارزاقه وارزاق توابعه، وفاء للاموال المتكدسة عليه . وكلف الباب العالي الامير تنفيذ هذه الاوامر .

ولما رأى سيفا انه هالك لا محالة، وكان عالماً بشهامة عدوه، رجاه ان يصلح حاله مع الباب العالي . وعرض عليه مصاهرة مزدوجة بين ابنه بلك والامير علي معن . فقبل فخر الدين . ثم ارسل سيفا الى الباب العالي فوعد بمئتي الف ذهب خدمة للسلطان وبثلاثين الفاً لوزيره . فتمكن من استعادة ايالته بالزيادة التي تكفل بها فضلاً عن الهدية، الامر الذي اوقعه في عجز سبّب خرابه، لانه كان مديناً بمبالغ طائلة لتجار الاستانة[٢] .

وفي ايار من السنة ١٦٢١ جهز يوسف باشا رجاله على ابن اخيه سليمان حاكم صافيتا لميله الى فخر الدين[٣] . واستنجد سليمان بالامير فاسرع برجاله الى مساعدته . ولما علم سيفا بقدومه استرجع سكمانه مدعياً انه ما قصد الا التهويل على ابن اخيه ليؤدي المال المستحق عليه . فتظاهر الامير بصرف رجاله ووجه الشيخ ابا نادر الخازن بصحبة سليمان المذكور فحاصرا سكمان سيفا في حارات عكار التي جددها . فاخلوها فهدمها الامير، ما عدا حارة الامير محمد التي ابقى فيها سليمان سيفا المذكور عديله مع خمسة بلوكباشية من جنوده[٤] .

وفي حزيران السنة ١٦٢١ عينها وصل الى الامير احد الاغوات، موفداً من الصدر الاعظم ليكلفه تحصيل الاموال المتأخرة على سيفا . فعرض فخر الدين على الباشا ان يبيعه مخلفات آل عساف في بيروت ومزرعة انطلياس وحارة غزير بخمسين الفاً فيسدد عنه دين التجار . فاضطر الى البيع . ثم طالبه باموال الدولة فتمنع . فاصدر امره

---

(١) كان مال طرابلس في السنة ١٦٠٥ ستين الفاً، حسب التقرير المنشور في ف ١٣٨

(٢) خ ٨٩ — ٩٤

(٣) كان فخر الدين متزوجاً من علوه شقيقة سليمان المذكور .

(٤) خ ٩٦ و٩٧

الى رجاله بالهجوم على طرابلس فافتتحوها، بيد انه لم يسمح لهم بنهبها .

وفي الثامن والعشرين من تموز السنة ١٦٢١ المذكورة دخل الامير طرابلس ونزل حارة حسين باشا سيفا، وكانت عظيمة كلفت خمسين الفاً، وحاصر القلعة . فاطلقت حاميتها على القصر ثلاث قنابل لقتل الامير فهدمت جانباً من ايوانها . وكان الامير خارجاً عنها فلما علم بذلك امر رجاله بان يدكوا القصر دكاً، ففعلوا[١] .

وسئم الباب العالي من مماطلة سيفا في تسديد الاموال المتأخرة فعين على طرابلس عمر باشا الكتانجي . فكتب الى صديقه فخر الدين ان يساعد متسلمه على تسلمها . ولما وصل المذكور في تشرين الثاني من السنة ١٦٢٢ واستنجد بالامير جهز حملة لشد ازره . وما بلغ سيفا الخبر حتى اخلى طرابلس مع جميع اقاربه وذويه .

ولم يدع الامير الفرصة تذهب سدى، بل اوفد الشيخ ابا صافي الخازن، عم ابي نادر، فدخل برج بشري وطرد منه رجال سيفا وضبط الناحية . وهكذا تسنى للامير ضم كل المقاطعات المارونية اليه . فتقوى باهلها وتقووا به . وزاد سيفا ضعفاً على ضعف وفقراً على فقر[٢] .

٣ ـ **الضنية وعكار** ـ بقي على الامير ان يقطع مرحلة طويلة لبلوغ غرضه من الوحدة اللبنانية . فقد ظل سيفا قابضاً على طرابلس والكوره اللاحقة بها، وعكار وجبال الضنية المشرفة عليها ؛ فضلاً عن سهول البقاع الخصبة التي كانت بيد يونس الحرفوش، وهي جزء لا يتجزأ من لبنان .

وكان سيفا قد استعاد طرابلس لقاء عهد قطعه بتسديد المتأخر عليه للباب العالي وللتجار . بيد ان دخله هبط كثيراً بفقد المقاطعات والاملاك التي انتزعها منه الامير، بينما كانت الديون تتراكم عليه والفوائد تثقل كاهله حتى رزح تحت عبئها .

وفي السنة ١٦٢٣ لما بعث بكواخيه الى الاستانة ليتدبروا مالا يرضي به الباب العالي، قبض الصدر الاعظم عليهم وزجهم في السجن . فاعتذروا بفراغ يدهم وحيلتهم واشاروا على الوزير ان يقر ولاية طرابلس على عمر باشا الكتانجي، ويسلم سنجقيتي

---

(١) خ ٩٨ – ١٠٢

(٢) خ ١١٦ و١١٧ وف ٩٢ و٩٣

حماة وجبلة لغيره، وان يكلف فخر الدين شد إزر الباشا والسنجقين الجديدين في تسلم مناصبهم وضبط املاك سيفا وتوابعه وفاء للديون .

فجاء عمر باشا طرابلس وسأل الامير المساعدة . فوعده بالمعونة على ان يكتب عليه مقاطعتي عكار والضنية . وعاهده على دفع مالها سلفاً . وكان الباشا في غاية الحاجة الى المال لدفع رواتب جنوده، فنزل عند رغبته واقره على المقاطعتين[١] . وتغيرت الوزارة فتمكن سيفا من العود الى ولايته . وكان ولده بلك قد فارقه وانحاز الى حميه فخر الدين . فرجاه سيفا ان يعيده اليه ووعد بلك بمقاطعة عكار[٢] . ولما ثبت قدم ولده في المقاطعة اتفق وسليمان ابن عمه على طرد سكمان والده والاستقلال عنه . وخطر على بال سيفا معاقبتها فتهدده الامير فرجع عنها[٣] . واشتدت اواصر المحالفة بين سليمان ابن سيفا والامير على عمه[٤] .

ولما توفي حسين ابن يوسف باشا سيفا، صهر الامير، ارسل اخوه عمر باشا صاحب حمص يطلب ارملته . فرضي الامير بذلك، وحلت الصداقة بينه وبين صهره الجديد محل عداوة قديمة[٥] .

وسنرى بلك وسليمان سيفا في جانب فخر الدين في موقعة عنجر وغيرها، مما يشهد بصحة نظريته في مصاهرة اعدائه والتوسل بها، اذا خانوه، لاضعافهم[٦] .

٤ ـ **البقاع** ـ سهول مرتفعة خصبة تضمها سلسلتا لبنان شرقاً وغرباً وترويانها بمياهها . تحمي قلعة بعلبك الجبارة مدخلها من جهة دمشق، وحصن اللبوه من جهة حمص وحماة. انتزعها الامير في السنة ١٥٩٣، كما قلنا، من ابن الفريخ وتركها لموسى الحرفوش. ولما انحاز موسى في السنة ١٦٠٦ الى سيفا في موقعة عراد، سلمها الى ابن عمه يونس

---

(١) خ ١٢١ و١٢٢
(٢) خ ١٢٤
(٣) خ ١٢٥ و١٢٨
(٤) خ ١٣٧
(٥) خ ١٨٣
(٦) ف ٩٣ و٩٤

الحرفوش وعززه ووضعه تحت كنفه[١] ومنع احمد باشا الحافظ في السنة ١٦١٢ من اذيته، فعاداه الحافظ[٢] .

بيد ان يونس خان عهده وكان اول من انضم الى الباشا المذكور وحارب جنود الامير وقتل بعضاً من سكانه غدراً[٣] . وفي السنة ١٦١٥ نزع عنه جركس باشا البقاع واعطاها لابن عمه شلهوب الحرفوش . ورأى يونس ان نجم المعنيين عاد الى الزهاء. فتحول من عدو الى صديق . وحشر نفسه بينهم وبين جركس باشا، فأدى تدخله الى تسليم قلعتي بانياس والشقيف وهدمها[٤] .

واسترد بنفوذهم البقاع، وفاز لابنه احمد بكريمة فخر الدين[٥] . ومع ذلك لم يخلص الود، بل حاول أن يثير عليهم بني مذهبه من الشيعة[٦] . ولما عاد فخر الدين من ايطاليا اوفد يونس ابنه احمد المذكور بهدية للتهنئة . وكان الامير سليم الطوية، وقد نصب امام عينيه هلاك سيفا، فتناسى خيانة الحرفوش واذن له بمرافقته في حملته على سيفا، حيث غنم يونس غنائم وافرة[٧] . فعجب سيفا من حلم الامير نحو ابن الحرفوش وشدته معه وارسل يقول له « الامير يونس ابن الحرفوش قتل في غيابك السكمانية الذين عادوا من عند ولدك من البريه، وراح الى عند الوزير، وتسبب في هدم القلاع، وامس ارسل ولده الامير احمد الى قرية مشغرا وصار يكاتب بني متوالي وينصحهم ويفسخهم[٨] » فلم يعبأ فخر الدين بكلامه .

وواصل يونس من جهته تملق الامير حتى حمله على الرضى بزف ابنته المترملة الى حسين ابنه الآخر[٩] . وعلى التوسط لحسين المذكور بسنجقية حمص[١٠] . وبلغ يونس

(١) خ ١٣٤
(٢) خ ٧
(٣) خ ١٢ و ٢٢ و ٧٠
(٤) خ ٤٤ – ٤٨ و ٧٠
(٥) خ ٦٦
(٦) خ ٦٦ و ٦٨ – ٧٠
(٧) خ ٧٧
(٨) خ ٧٠
(٩) خ ١١٤
(١٠) خ ١١٨

بعطف الامير وتأييده مبلغاً لا يستهان به من الثروة والقوة « حتى اصبح يشد الف فدان ويملك اربعين قطيعاً من الماعز . واتسعت عليه الارزاق وانطلقت يده في الحكم حتى صار يمنع اهل الشوف من الزراعة في سهول البقاع . وكان بعضهم قد اشترى اراضي هناك في عهد ابن الفريخ، فحال دون تصرفهم بها(١) » .

وفي صيف السنة ١٦٢٣ انتهز يونس فرصة انهماك فخر الدين في حملة غير موفقة على عرب فلسطين، فجمع عليه كل حساده ومناوئيه . وكتب لكرد حمزه رئيس انكشارية الشام ليتحد معه على الامير . ولما وقعت الرسالة بيد فخر الدين كشف يونس القناع عن مكايده وحمل مصطفى باشا والي دمشق على ان ينكر على الامير سنجقيتي صفد ونابلس، وان يترأس الجيش المتحالف ضد فخر الدين، الذي بلغ اثني عشر الف محارب، خلاف العرب(٢) .

ولما درى الامير بالمؤامرة ترك فلسطين واسرع باهالي المتن والشوف والجرد والغرب ومتاولة بلاد بشاره الى قرية عيناتا في البقاع . ومنهـا الى قب الياس، حيث نزع من صهره حسين حرفوش زوجته والقصر الذي كان اعطاه لها مهراً(٣) . وارسل الى شهابيي وادي التيم ان يلاقوه الى ينبوع عنجر، حيث اجتمع جيش العدو ليزحف على لبنان . فسبقوه اليه واحتلوا تل قرية المجدل وتحصنوا في برجها، وكانوا الف مقاتل وارسلوا يعلمون الامير . فركب حالاً من قب الياس وقسم جيشه المؤلف من اربعة آلاف اربعة اقسام . فابقى معه السكمان الجدد ورجال الامير مدلج والغرب والمتن . وسلم اخاه الامير يونس قيادة السكمان القدماء، ورجال كسروان، وابنه علياً اهل الشوف؛ وكتخداه مصطفى بني متوال .

وصعدت طليعة عسكر الشام، «وكان كالبحر الزاخر»، من وادي المجدل وهاجمت الشهابيين فازاحتهم عن القرية . واحتلها ابن سيفا وابن الحرفوش وحاصراهم في البرج فتضايقوا اشد الضيق . فاسرع فخر الدين الى نجدتهم . ولما علم الشهابيون بقدومه تشجعوا، وهاجموا المحاصرين واستعادوا القرية . وجاءت مشاة الامير شمالاً عند الثغرة النافذة على

(١) خ ١٣٤ و ١٣٥

(٢) خ ١٤٠

(٣) خ ١٣٥ و ١٣٦

ينبوع عنجر، واقترب عسكر الامير علي معن من برج المجدل . فخرج من انكشارية الشام زهاء الف فارس وغاروا على الامير علي بشدة، فصمد لهم مع قوة الصدمة .

وفيما هم في ذلك ضرب فخر الدين بفرسانه مقدمة عساكر الباشا ضربة مؤلمة الوتها . فانكشفت مؤخرة فرسان الانكشارية واضطرت الى التقهقر . فانتهز الامير فرصة تضعضع جيش العدو ونادى بالهجوم العام . وانقض اللبنانيون على الدمشقيين انقضاض الصقور على العصافير فمزقوهم واعملوا باقفيتهم حتى ابواب المدينة . قال الخالدي « لو لم يلتهِ اللبنانيون بالغنائم والخيم، وكانت زهاء الفين، لقتلوا من الدمشقيين مقتلة عظيمة. ولم يقتل من جماعة الامير غير ثلاثة من العشير » .

اما مصطفى باشا فاحاطت به سكمان الامير واسروه مع رايته واحضروه امام سيدهم . بيد ان الامير في نشوة النصر ظل هادئاً محتشماً . فنزل عن حصانه وقبل ذيله وعين بلوكباشياً يوصله الى قب الياس سليماً . وتريث حتى العصر ريثما حمل جيشه الغنائم . وذهب لمقابلة الباشا . فاعتذر له هذا ان الحرب لم تكن برضاه، وان مسببيها كرد حمزه ويونس الحرفوش . واباح له ارزاقهما، وولاه البقاع وجدد له سنجقية صفد ونابلس وعجلون وزاد عليها غزه الخاصة بابن طرابيه، احد كبار المتآمرين . جرت الموقعة يوم الخميس ثالث تشرين الثاني من السنة ١٦٢٣ .

واجتهد الامير فرد الى الباشا جميع اسلابه ووضع يده على اهراء بني حرفوش، وكانت زهاء ثلاثين، خلاف الغلال الموجودة على البيادر . وضبط من قطعانهم عشرة الاف رأس معزى، اهدى منها الفين الى الوالي . « وظل الدروز واهالي كسروان وجبيل والبترون وبشري ووادي التيم يشتغلون في نقل الغلال نهاراً وليلاً حتى لم يبق احد من رجال الامير بلا مكسب[1] » . ولما ضم الامير البقاع الى ولايته اتصل بحلفائه الشهابيين اصحاب وادي التيم . وكانت اواصر المحالفة قد تمكنت بين الاسرتين بزواج علي معن ولده بجهان كريمة الامير علي الشهابي . وقد نوهت الوثائق التسكانية برقتها وذكائها وادبها[2] .

٥ ـ **طرابلس والكوره** ـ فضل الامير في بادئ الامر تطويق طرابلس

---

(١) خ ١٤٠ - ١٥٦

(٢) ف ٩٤ - ٩٦

واضعافها على ضمها الى دولته، لانها كانت من املاك السلطان . وفي ٢٠ تموز ١٦٢٥ توفي يوسف باشا سيفا منهوك القوى سياسياً ومالياً . وكان الامير في فلسطين منهمكاً في تسلُّم سنجقيات عجلون ونابلس وغزه، فعجل في الاتفاق مع عرب تلك الجهات وهرول الى طرابلس فدخلها في شهر كانون الاول من السنة عينها، وامعن فيها نهباً طيلة اربعين يوماً؛ الى ان وصل متسلمها الجديد مصطفى اسكندر، الذي لم يكن اقل وطأة منه على الاهلين، فاستبز ما بقي لهم[١] . فلم يرَ الباب العالي بدّاً من عرض ولاية طرابلس على الامير نفسه، الذي تظاهر بالرفض قناعة وحشمة؛ بيد انه بذل المساعي سراً في الاستانة بوساطة اصدقائه فنالها باسم ابنه حسين الذي رزقه من زوجته علوه، بنت الامير علي سيفا، ابن اخي يوسف باشا[٢] .

وحالما تسلمها جدّ في عمارها . قال الدويهي « في السنة ١٠٣٧[٣] تولى الامير فخر الدين أيالة طرابلس ومشّى ساقية القاع وعمّر القليعات في ارض جون طرابلس ونصب في مغراقها ١٤ الف نصبة توت . ونصب ايضاً بستان اكبر من ذلك في ارض الحيصه[٤] ». وفي ١٣ شباط ١٦٣١ كتب القنصل فراتسانو الى سيده في تسكانا « ارسل السلطان بيلوردي باشوية طرابلس الى فخر الدين[٥]، فتنازل عنها لحسين ثالث انجاله . لان جد حسين من امه كان صاحب طرابلس . ويسعى الامير الآن في حمل تجار صيدا على الانتقال الى طرابلس لانعاش تجارتها . وقد صرح بقوله : انا خربتها وانا ساعمرها . وهو اليوم اكبر أمير في الدولة التركية » .

وروى القنصل المذكور في مكان آخر ان فخر الدين اقام وكيلاً لولده على طرابلس رجلاً يدعى مصطفى آغا . فطغى وبغى حتى اضطر الامير ان يقتله وولده واتباعه ويستصفي اموالهم واملاكهم المجموعة من الرعية ظلماً . ونعرف من الدويهي انه عين مكانه الشيخ ابا نوفل الخازن[٦]، ومن الاب روجيه انه وضع السكبان الخمسمائة البغداديين تحت تصرف مصطفى المذكور .

---

(١) د ٢٠٠

(٢) ولد الامير حسين في آخر تشرين الثاني سنة ١٦٢١ . خ ١٠٥

(٣) تبدأ في ١٢ ايلول ١٦٢٧

(٤) ز ١٣٥ ورص ٤٥

(٥) لعله يعني تجديد البيلوردي

(٦) د ٢٠٤

وكانت الكورة تابعة طرابلس فاصبحت من ولايته . وقد ورد ذكرها بعد هذه السنة بين المقاطعات اللبنانية الخاصة بالامير . وصار اهلها، واغلبهم ملكيون، يشتركون في حملاته[1] .

وهكذا تسنى لفخر الدين بسيفه ودهائه اتمام الوحدة اللبنانية المنشودة، التي تتمتع بها الان الجمهورية اللبنانية الفتية[2] .

الباب الرابع ـ سياسة الامير مع تركيا

١ ـ **المداهنة والاعتدال** ـ كان الامير يكره الدولة العثمانية بصفة كونه لبنانياً ودرزياً ومعنياً، لانها ظلمت بلاده وبني ملته واسرته . لاسيا في السنة ١٥٨٤، لما اجتاحت جنودها الشوف واعملت فيه نهباً وحريقاً، وقتلت من دروزه ستين الفاً، وغدرت بستمائة من عقالهم، وسببت موت والده وخروج السلطة من يده، كما شرحنا ذلك سابقاً . وقد اقسم الامير وبنو جلدته بأخذ الثأر، وثأر الدرزي لا يموت .

بيد ان الدولة العثمانية كانت سيدة الشرق المطلقة، يرتعش لذكرها امراء اوربا انفسهم، مع ما بلغوا اليه من الحول والطول . فكان على الامير، للوصول الى غرضه من الانتقام ومن رفعة لبنان واستقلاله، ان يلجأ الى التسلح والتحصن والتآمر سراً، والى المداهنة ظاهراً .

كان يتوسع ويثري على حساب جيرانه، ويتآمر سراً على الدولة العثمانية مع الامراء الاوربيين والعصاة الشرقيين . واذا مر بجواره وزير من وزراء الدولة أسرع الى ارسال الوفود بالمؤن والمال . فيشتري بهذه الطريقة ضمائر الوزراء وصداقتهم وحمايتهم ويبدد ظنونهم به، متظاهراً بالطاعة والتعلق باهداب السلطنة . حتى اذا بعد ظلهم عاد الى مضايقة جيرانه والتآمر على الدولة .

روى سانديس في السنة ١٦١٠ «أشيع ان السلطان مستاء من علاقات الامير بدولة

---

(١) ز ١٣٦

(٢) ف ٩٧ و ٩٨

تسكانا ويعدّ حملة عليه . بيد ان الامير لا يخاف كثيراً هذه الاشاعة ويعرف كيف يدرأ عنه الخطر بعطاياه المتواصلة، ومظاهر الاخلاص للدولة، فضلاً عن نفوذ اصدقائه[١]».

وكان معتدلاً في عدائه. يشتهي الاذى والذل والخراب للدولة من صميم جوارحه، ويدلي سراً الى امراء الغرب بالمعلومات عن حركات اسطولها ومراكبها التجارية ليهاجموها ويغنموها، وعلى مواطن الضعف في ثغورها ليضربوها وينهبوها . غير انه كان يتحاشى المجازفات بلا طائل . ظل طيلة حياته يعقد مع امراء الغرب المعاهدات والمحالفات ليسلخ لبنان وفلسطين وقبرس وسوريا عن الدولة . وفي السنة ١٦٠٧ لما سأله فردنان الاول غراندوق تسكانا مساعدته على احتلال قبرس، وعده . بيد انه احجم لما رأى الحملة غير وافية، واعتذر له بعد ذلك انه كان واثقاً من فشلها .

ولما قصد في السنة ١٦١٣ الى تسكانا ليجمع كلمة الامراء الاوربيين في حملة كبيرة على الدولة لم تتفق كلمتهم . فتحمس صديقه قزما الثاني عاهل تسكانا وتكفل بان يقوم بها دون الاخرين . فاشار عليه الامير ان لا يركب وحده هذا المركب الخشن . اما وزراء الغراندوق فلم يقنعوا من شوره وعدّوه جبناً منه وتقلباً . فاجابهم « انا لا ابالي بحياتي بل افضل تضحيتها على المجازفة بشعرة واحدة من جنود الغراندوق » .

وروى الخالدي بين حوادث السنة ١٦٢٢ ان عمر باشا الكتانجي جاءه بتوصية من الصدر الاعظم ليشد إزره في تسلّم طرابلس من يوسف باشا . فجهز الامير من الجنود ما يكفل نجاحه وقادهم بنفسه . ثم تغيرت الوزارة وفاز سيفا باسترجاع ولايته . قال المؤرخ « فلما ورد الامر السلطاني بتقرير ابن سيفا اراد عمر باشا ان يمانع ليرسل الى استنبول ويراجع فما قبل الامير فخر الدين وقال لا يمكن مخالفة الاوامر السلطانية[٢]» .

وحكى الدويهي بين حوادث السنة ١٦٣١ ان الامير ساعد المراكب الفرنجية على شحن القمح من سواحله، بالرغم من منع الباب العالي . فلما سمع قبطان البحر العثماني ارسل عشرة اغربة لاجل محافظة السواحل . فجاؤوا الى طرابلس وساروا منها الى بيروت قصيدا فعكا فقبرس . قال « وارادوا الفرنج يكاونوهم فما اذن لهم الامير بل اشار عليهم بالخروج من قدامهم[٣]» .

(١) س ٢١٢
(٢) خ ١٢٣
(٣) ز ١٣٥ ق و١٣٦

وسبق القول عن قيام الامير بايراد الاموال الاميرية في مواعيدها، واحياناً سلفاً، محافظة على مركزه، وتبديداً للظنون الحائمة حول اغراضه من التوسع والتحصن والتحالف مع امراء الدول المسيحية. وكانت الخزينة العثمانية بحاجة شديدة الى المال لنفقات اخماد ثورة العجم وتعزيز الاسطول، فضلاً عن الفوضى وجشع الوزراء واصحاب المناصب.

وقد روينا عن تشدد الامير في جمع القسط الثاني المستحق على بلاد صفد وبشاره ليسدد بقية المال الاميري[1]. وحملته مع عمر باشا الكتانجي في السنة ١٦١٩ على ابن سيفا ومصالحته له على مبلغ نقدها منه مائة الف. قال الخالدي «ولما قبض المبلغ قال الامير لعمر باشا انت عليك مال للسلطنة وعلي انا مائة الف ذهبية خدمة للسلطان. وآغا الوزير عندك فترسل معه المائة الف مما في ذمتي وذمتك خير من جلوسه عندك. فاستصوب الباشا كلامه وسلموا الاغا المبلغ. ولما وصل المال الى استانبول صار له قبول عند اركان الدولة ولم يعاتبوا الامير فخر الدين بكلمة[2] بل ارسلوا تشكروا منه على تحصيل المال[3]».

٢ ـ **سياسته مع الوزراء** ـ قال الخالدي «ومن عادة الامير فخر الدين امير لواء صفد انه اذا تولى احد من الوزراء الصدارة العظمى يوجه اليه الخدم. ويرسل معهم كتخداه لحسن طاعته لولي الامر[4]». واذا مر احدهم بجواره او باطراف سوريا او فلسطين وجه اليه الزاد والاموال، وان معزولاً. وغالباً لم يكن ينتظر مرورهم بل يجهز اليهم التقادم حتى الاستانة. ولما كان الجميع راضين ببيع ضمائرهم كالسلع في الاسواق، لم يكن يحجم عن شرائها.

قلنا ان فخر الدين اضطر الى استعمال السيف لنزع المقاطعات اللبنانية من اصحابها والقيام بالوحدة اللبنانية لانها كانت وراثية. ولما كانت السنجقيات والولايات تعطى للمزيد فقد كان يبذل المال بسخاء في سبيلها فيتمكن من ضمها. وقد روينا كيف نال في السنة ١٥٩٣ بالعطاء والمداهنة من مراد باشا القبوجي سنجقيتي صيدا وبيروت ورأس

(١) خ ٧١ و ٧٢. راجع ايضاً عن جولته في سوريا وتحصيل الاموال خ ٢٤٢ – ٢٤٦

(٢) على غزو طرابلس

(٣) خ ٨٠ و ف ٩٨

(٤) خ ٥

ابن الفريخ، وكيف فاز في السنة ١٦٠٧ من المذكور بالعفو والاعفاء من القشلق لقاء ثلاثمائة الف غرش . وكان محمد باشا القبودان قد عزل عن ولاية مصر ومر بعيون البحر ثم بجسر البنات في طريقه الى الاستانة « فخدمه الامير بشيء كثير[١] » . وفي السنة ١٦١٤ تولى المذكور الوزارة العظمى خلفاً لنصوح باشا، فتذكر جميل الامير وعزل عدوه احمد باشا الحافظ عن دمشق وولى مكانه محمد جركس باشا واوصاه بالامير خيراً . فلما وصل الوالي الجديد الى دمشق « اطلق والدة الامير الموقوفة هناك في القلعة . وارسلها الى ولدها الامير يونس وكتب مكاتيب للامير فخر الدين يرجع الى بلاده واهله واولاده[٢] » . ولما استبطأه ولّى ابنه الامير علي مكانه[٣] .

وفي اوائل السنة ١٦٢٠ جهز الامير الى الاستانة مع مماليكه خمسة وعشرين الف غرش من المال الاميري ومبلغاً يوازيه هدية للوزير المذكور . ولما قدموا له الهدية رفض قبولها واجابهم « ان آل معن اصدقائي ومرادي ان يوفوا الذي عليهم، والذي لي عندهم ما يروح . فتوجهوا ودفعوا الخمسين الفاً بكاملها الى الخزينة السلطانية[٤] » .

وهذا لا يعني ان فخر الدين كان يأمن جانب هؤلاء الوزراء . فقد كان يحاذر الاجتماع بهم ويبعث اليهم بالعطايا على أيدي كواخيه، ويصحبهم احياناً وعند الضرورة القصوى باحد انجاله . ففي تموز السنة ١٦١٩ بلغ الباب العالي ما اقدم عليه الامير بعد رجوعه من ايطاليا من نهب طرابلس وتخريب عكار وبناء قصر حصين في صور، فاوفد علي باشا بالعمارة العثمانية الى لبنان . ولما بلغ صيدا ارسل اليه الامير كمية وافرة من المؤن لاسطوله وخمسة آلاف غرش تقدمة . غير ان الباشا نزل الى المدينة واستدعاه للحضور امامه واعطاه الامان . فارسل الامير يقول له « ان حضرتُ ومسكتني حنثتَ بعهدك، وان لم تمسكني جلبتَ عليك لوم الدولة » . فارتاح الباشا الى جوابه واحله في عينيه محل الاعتبار[٥] .

وفي السنة ١٦٢٠ وصل مصطفى كتخدا الامير الى الاستانة ووجد علي باشا

(١) خ ٣٩
(٢) خ ٤٣
(٣) خ ٤٨
(٤) خ ٨٨ و٨٩
(٥) خ ٨٥ و٨٦

المذكور صدرًا اعظم . فسأله سلخ ايالة طرابلس وسنجقيتي جبلة واللاذقية عن يوسف سيفا . فلبى طلبه وعين حسين باشا الجلالي صديق الامير على طرابلس، ومصطفى المذكور على جبلة واللاذقية «حرمةً لمولاه» . واصدر امرًا بهدم قلاع ابن سيفا وضبط ارزاقه وارزاق توابعه . وكلف فخر الدين نفسه تنفيذ هذه الاوامر[١] .

٣ ـ **وكلاؤه وكتخداؤه** ـ نظرًا الى «تغير الدول واختلاف الاحكام[٢]» «وكثرة اختلال الوزرا وعزلهم[٢]» في الدولة العثمانية، والفوضى الضاربة اطنابها في ولاياتها الواسعة، وكثرة الشكاوى المقدمة عليه من اعدائه وحساده، رأى الامير ان يتخذ له بين كبار الموظفين في الاستانة ودمشق وكلاء برواتب معينة يعملون لمصلحته . فيطلعوه على مجرى السياسة العثمانية وتطوراتها، واحوال السلاطين والوزراء والولاة، والتهمات الواردة اليهم بحقه، والمكايد التي تدبر لديهم عليه . ويبتاعوا لـه عطفهم، ويدرأوا عنه العقوبات التي ينوون انزالها به .

روى الاب روجيه ان احد كبار موظفي الباب العالي كان وكيلًا للامير في الاستانة، «يحسّن للسلطان ولوالدته ما يفعلـه الامير ويفوز له منها برغائبه» . واخبرنا سانتي ان المفتي الاكبر توسط للامير في اعادته الى مملكته بعد غضب السلطان عليـه سنة ١٦١٣ . وقال ماريتي «كان لوالدة الامير العلائق الحسنة المتينة بسلطانات القصر العالي وأميراته» .

وروى ايضاً الاب روجيه ان الامير كان له في حاشية والي دمشق اصدقاء نافذو الكلمة، مثل ابرهيم باشا الذي اشترى له اغلب شرفاء المدينة ووجهائها . وروى في مكان آخر ان الامير اتفق وسنجق اورشليم عـلى تسليمه المدينة المقدسة بلا قتال . فضلًا عن هؤلاء، اتخذ الامير كتخداء يجيدون التركية وطرق التدليس والرشوة واسترضاء كبار الموظفين . كان يعينهم للاقامة في الاستانة، أو يرسلهم اكثر من مرة في السنة بداعي تسديد الاموال الاميرية او بغيره، ويزوّدهم بالعطايا، فيتقربوا من هؤلاء ويفوزوا

(١) خ ٨٩ – ٩١ و ف ٩٧ – ١٠٠
(٢) خ ٢
(٣) خ ١٢٨

له بما يصبو اليه من مطالب العفو او التبسط او قهر الاعداء وتأييد الاصدقاء . نعرف منهم ثلاثة :

الاول، الحاج كيوان بن عبدالله . ترجمه المحبي فقال انه كان مملوكاً لنائب غزه فدخل في سلك انكشارية الشام وترقى حتى اصبح سرداراً . ووصفه بالجسارة والتطاول على املاك الغير بشتى الطرق الغير المشروعة . وسرد في هذا الصدد حوادث غريبة في بابها . ولما اختلف مع رفقائه قام عليه الجنود وطردوه، فانحاز الى فخر الدين[1] . ثم صالحهم وحفظ لهم في قلبه الضغينة حتى كان عصيان ابن جانبولاد فحمل فخر الدين على محالفته ومحاربة انكشارية الشام . وهكذا توصل الى خذلهم وانتهاك حرمة المدينة ونهبها . فثأر لنفسه .

وفي السنة ١٦٠٧، لما انتصر مراد باشا على جانبولاد قصد اليه الدمشقيون ليشكوا كيوان ؛ فحمل هذا الاموال من فخر الدين الى حلب ونال من الوزير العفو لنفسه ولمولاه .

وفي السنة ١٦٠٩ أوفده الامير الى الاستانة لمصلحة له . وفي وصوله الى صور صادف الامير يحيى العثماني قادماً بالعمارة التسكانية الى صيدا ليطلب مساعدة فخر الدين على السلطان احمد اخيه . فاشار عليه كيوان « ان لا يثق بسيّده لانه على غير دينهما» .

وفي السنة ١٦١٢ ألح كيوان على الامير بمساعدة عمرو شيخ المفارجه وحمدان قنصوه على استرجاع سنجقيتي حوران وعجلون . وكان نصوح باشا قد عزلها عنهما . قال الخالدي : وكان كيوان عنيداً فما زال بالامير حتى حمله على تجهيز قوة اعادتهما الى منصبيهما . فاصدر الباب العالي امراً بجملة السنة ١٦١٣ على الامير[2] . واقنع كيوان فخر الدين بالسفر الى اوربا والزمه ان يستأجر له مركباً كبيراً خاصاً به وباسرته كلف الامير خمسة آلاف ذهب[3] .

ولما تردد الامير في السنة ١٦١٤ في قيادة الحملة التي جهزها الغراندوق على لبنان

---

(١) وذكر المحبي ان « ابرهيم البيطار كان كتخداه . ولما قام الجند على مولاه لحق بالدروز ثم سافر الى وادي النيل » حيث كان له شأن كبير مع المماليك . وتوصل يوسف البيطار حفيده الى ان يضمن جمارك مصر . فعزز اولاد طائفته من الروم الكاثوليك . راجع كتابنا السوريون في مصر ٢ : ٤

(٢) خ ٩

(٣) خ ١٨ و١٩

عمد كيوان الى تسويد صحيفة مولاه لدى كبراء القوم واظهار نفسه بالحكيم والشجاع .

وعاد الى لبنـــان في السنة ١٦١٥ وقابل الوزير محمد باشا في حلب وفاتحه في امر الصلح بين الدولتين العثمانية والتسكانية . فارتاح الوزير الى ذلك . وتدخل في امر هدم القلعتين[١] . وفي اوائل السنة ١٦٢١ وفق الامير بينه وبين كرد حمزه آغا الانكشارية في الشام فعاد الى منصبه[٢] . وتوسط مراراً بين واليها والامير[٣] . وفي السنة ١٦٢٢ سلمه الامير جردة الحاج[٤] . قال المحبي ولما عاد من مكه انقطع عن السياسة والناس والدسائس وتظاهر بالقناعة والصلاح[٥] .

وفي السنة ١٦٢٣ اختلف مع كرد حمزه[٦] فوقف في جانب الامير في موقعة عنجر ضد الانكشارية والشوام . ولما انتصر الامير فاز له من مصطفى باشا بمنصب آغا الانكشارية بدلاً من مزاحمه . بيد ان كيوان اهان السلحدار . ولما علم بتكدر الباشا عليه همَّ بالخروج من بعلبك فمنعوه، فثابر على عناده . وجاء فخر الدين بنفسه ليرضيه فاغلظ له الكلام امام الحاضرين وهدده بالشكوى عليه وعلى الباشا الى الباب العالي . فلم يعد الامير يطيق صبراً على وقاحته . فجره عن حصانه وضربه بخنجر في رأسه واجهز عليه السكمان[٧] .

وقـــد جعله ماريتي والشدياق مارونياً ومربياً للامير، بدلاً من الشيخ ابرهيم صقر الخازن . وزاد عليهما الاستاذ عيسى المعلوف بان نسبه الى اسرة « نعمه ضو » المارونية . قال ان اصلها من حاقل واستوطنت دير القمر[٨] . مع ان كيوان مسلم حج مرتين الى مكه وصرح عن نفسه في تسكانا انه سوري . فهو غير لبناني[٩] . ونعته عارفوه في ايطاليا بالتركي اي المسلم . وفي مدة اقامته في تسكانا كان من مصلحته ان يظهر نصرانيته لو كان منها . ولا يبعد ان يكون تركمانياً . ففي اوائل السنة ١٦٢١

---

(١) خ ٦٣
(٢) خ ٩٤
(٣) خ ١٠٣ و١٠٤ و١٠٦
(٤) خ ١١٤ - ١١٨
(٥) مح ٣ : ٣٠٢
(٦) خ ١٣٦
(٧) خ ١٥٤ و١٥٥
(٨) مع ٣٩ حاشية ٣
(٩) ف ٢٥٨

رافق حملة جهزها الامير، فتعدى الجنود على «تركمان نازلين على الدرب» فغضب كيوان وتركهم وعادت الحملة[١] . ومما يضحك ان ماريتي ادعى ان كيوان « مات بشيخوخة صالحة في حضن الامير فخر الدين، الذي بكى فيه مربيه[٢] » .

الثاني، مصطفى بك كتخدا بن حسن شلبي . اوفده الامير في السنة ١٦١٢ الى نصوح باشا ليهنئه بالوزارة ويقدم له خمسة وعشرين الفاً . فاستقل الوزير المبلغ ولم يقابله بالبشاشة المعهودة . فبعث اليه الامير بخمسين الفاً[٣] . ولما اوغر الحافظ صدر الوزير عليه ارسل الامير كتخداه مصطفى الى الاستانة بمراكب موسوقة صابوناً . فطرح الوزير مصطفى في السجن وضبط ما كان معه[٤] . ثم استفكه خليل باشا وعاد الى لبنان[٥] . وهو في طريقه قابل في حلب المطران يوحنا الحصروني فزوّده برسالة الى الامير يطلعه فيها على احوال السياسة . وخدم حسن باشا البستانجي، الذي تعين في السنة ١٦١٤ مكان الامير، واقنعه بان يعامل آل معن بالحسنى ويستعين بهم على يوسف باشا سيفا، الذي تمنع عن تسليمه بيروت وغزير[٦] . وعاد مصطفى فكتب الى الامير في السنة ١٦١٥ بعد مصرع نصوح باشا كتاباً شرح له فيه احوال البلاد وتغير أهواء السياسة واتجاهها في مصلحته . فاجابه الامير في ١٥ تموز من السنة عينها ولقنه كلاماً يقوله للوزير الجديد دفاعاً عنه . وكان الامير قد اصطحب معه الى ايطاليا علي شلبي ولد مصطفى المذكور، فاستبقاه حتى عودته الى لبنان في السنة ١٦١٨ . ولعله فعل ذلك ليضمن امانة والده .

ولما جاء محمد باشا جركس والياً على دمشق عاد مصطفى الى خدمة آل معن وسعى في مصالحهم لدى الوزير محمد باشا[٧] . وفي السنة ١٦١٩ اوفده الامير بمهمة الى الاستانة فعينه الوزير سنجقاً على جبلة واللاذقية كما سبق القول[٨] . ثم سلمه الامير سنجقية نابلس

---

(١) خ ٩٥

(٢) ف ٢١٤ حاشية ١ . راجع ترجمته في المحبي ٣ : ٣٠١ و٣٠٢

(٣) خ ٥ و٧

(٤) خ ١١

(٥) خ ٣١

(٦) خ ٣٣

(٧) خ ٤٥ و٤٨ و٤٩

(٨) خ ٩٠ و٩١

ولقبه الخالدي «بامير لواء صفد[١]» واتخذ لنفسه ايضاً لقب «امير صيدا والجليل»، مفضلاً اياه على لقب «سلطان البر» الفخم الذي مُنحه في السنة ١٦٢٤ . ثم اضاف اليه لقب «امير جبل لبنان» . ودعاه البابا بولس الخامس في السنة ١٦٠٩، والبارون دهاي في السنة ١٦٢٤ «امير فنيقيه وفلسطين» .

٢ ـ عجلون ونابلس وحوران واللجون ـ كان الامير يرنو الى هذه السنجقيات بعين الشوق ليقترب من اورشليم، فيطوّقها ويحل امير تسكانا حليفه فيها، ويستعين به على الدولة العثمانية . ولما كان في البدء منشغلاً بمشروع الوحدة اللبنانية اكتفى بان يكون له في هذه السنجقيات حلفاء يجارونه في اغراضه ويتلقون صدمات اعدائه الاولى . وبعد ان وحد لبنان سعى في ضم هذه السنجقيات الى مملكته .

كان يتنازع سنجقية عجلون اخوان من آل قنصوه، البطل حمدان حليف الامير، وبشير حليف عدوه طرابيه صاحب غزه . وكانت المشادّة على سنجقية حوران والجولان واللجون واقعة بين قبيلتين، عرب المفارجه وعلى رأسهم الشيخ عمرو صديقه، وعرب السرديه وعلى رأسهم الشيخ رشَيد .

وفي السنة ١٦١٢ حمل احمد باشا الحافظ والي دمشق، نصوح باشا الصدر الاعظم، على نزع هاتين السنجقيتين من حليفي الامير المذكورين، وتعيين فروخ بك والشيخ رشَيد عليهما، نكاية في الامير وشلًا لسياسته . فالح الحاج كيوان على فخر الدين بشد إزر حليفيه وما زال به حتى اقنعه بتجريد حملة بقيادة الامير علي ولده، ولم يكن قد تجاوز الخامس عشرة . فنزل الامير عند شوره واعاد المذكورين الى منصبيهما قوة وجبراً . مما حرك عليه غضب نصوح باشا، فاصدر امره بتجريد حملة السنة ١٦١٣ عليه، كما سبق القول غير مرة[٢] .

غير ان تدخل الامير في منازعات العرب ومشاكلهم جرّ عليه، خلاف هذه الحملة، متاعب شتى كان في غنى عنها . لذلك نراه بعد عودته من ايطاليا عاملاً على الحاق هذه المقاطعات بمملكته رأساً . فنال في السنة ١٦٢٢ من خليل باشا سنجقية عجلون باسم ولده

---

(١) خ ٥
(٢) خ ٧ و ٨

حسين، «وكان عمره اذ ذاك اقل من سنة[١]» . وفي السنة التالية فاز بسنجقية نابلس باسم كتخداه مصطفى[٢] . بيد ان والي دمشق أبى تسليمها اليه، فنازله الامير في معركة عنجر وأسره ثم اطلق سبيله فأقره عليها واضاف اليها سنجقية غزه[٣]، كما مر بك الكلام .

وولى الامير كتخداه مصطفى المذكور على نابلس في نهايـة السنة ١٦٢٢[٤] فلم يحسن السلوك مع جيرانه العرب وجره الى حملات غير موفقة عليهم . فكانوا يفرون من امامه ويستدرجون جيشه في صحراء قاحلة، لا زاد فيها ولا ماء، حتى اذا استنفدوا قواه جوعاً وعطشاً اطبقوا عليها بغتة . كما فعل الروس مع بونابرت . ولولا شجاعة الامير وولده لحل بجيشه نكبة عظيمة[٥] . فحنق الامير علي من مصطفى كتخدا ونال من ابيه امراً بقتله . فاستراحت البلاد من الفتن، وتسنى لفخر الدين ان يصالح العرب على ان يقيم بشيراً قنصوه وكيلاً عنـه في عجلون[٦] . جاء في الدويهي « وفي الرابع ذي الحجة ١٠٣٣[٧] اخرج الامير فخر الدين الجيوش وسار بهم الى صفد لمقاتلة الامير بشير . وصار بينهما المراسلات آخرها ان الامير بشير دخل تحت طاعة بيت معن . فقامه الامير فخر الدين نايباً عن ابنه الامير حسين على بلاد عجلون كما كان اولاً . وصار الاتفاق بين بيت معن وامراء البلدان القبلية[٨] » . وروى ايضاً بين حوادث السنة ١٦٣٣ «وفي العاشر من ذي الحجة (١٠٤١) الموافقة لشهر حزيران ركب الامير فخر الدين برجال كسروان والشيخ ابو نادر برجال جبيل والشيخ صافي واخوه برجال بشري والمقدم علي برجال البترون وامراء الكراد برجال الكوره والشيخ احمد بن حماده برجال عكار والحصن وصافيتا وجبل الكلبيين . وتوجه الى صفد لان ولده علي بك كان راكب بنحو خمسة الاف على عرب قانصوه وبشير وتوابعهم في بلاد قبله . فلما نظروا ذلك اهالي قبله طلبوا الصلح والمهادنة[٩]» .

---

(١) خ ١١٠ و ١١٢ و ١١٧ و ١١٩

(٢) خ ١١٨

(٣) خ ١٥٠ ـ ١٥٥

(٤) خ ١٢٠

(٥) خ ١٦١

(٦) خ ٢٠٣ و ٢٠٥

(٧) ١٨ ايلول ١٦٢٤

(٨) ز ١٣٣ ق

(٩) ز ١٣٦

وكتب القنصل فراتسانو في الثالث من نيسان السنة ١٦٣٢ الى بلاط تسكانا ما تعريبه « جرّد فخر الدين حملة على الامراء طرابيه وفروخ واولاد الامير بشير قنصوه، من عرب عجلون وجوارها . فالامير علي مقيم الان في صفد ليعدّ لوازم القتال . والبارود الذي ارسله اليه معالي الغراندوق جاء عوناً في وقته، لولاه لتضايق الامير جـداً . وقد جهز لهذه الحملة ثلاثين الفاً من رماة البندق . قسماً ارسله الى عجلون والآخر الى حيفا . وهو الان ينتظر رجالاً من الجبال القريبة من انطاكية . والبلاد كلها قائمة قاعدة للتسلح ».

وجاء في حاشية اضافها القنصل على كتابه المذكور « عيّن فخر الدين اخاه الامير يونس قائداً للحملة . وفي اول مصادمة جندل اللبنانيون الفين وخمسمائة من العرب فهرب قوادهم » . وفي حاشية اخرى علقها على نسخة من هذه الرسالة، موجهة الى صديق له في البلاط التسكاني، اردف بقوله « ان مخابرات الصلح جارية هنا على قدم وساق . وسيتم الصلح باذن الله على ما روى لي رجل مسيحي يُدعى الشيخ ابو نادر، متقرب كثيراً من الامير . وهنا (في صيدا) ثمانية آلاف من حملة البنادق سوف لا يذهبون الى الحرب اذا وقع الصلح ».

اما في سنجقيات حوران والجولان واللجون فواصل الامير بعد عودته من الغرب تأييد حليفه عمرو شيخ عرب المفارجه، مكافأة له على ما ابداه من الاخلاص والشجاعة في الدفاع عن ولده الامير علي في اثناء تغيبه[١] . ولا نعلم الزمان الذي ضم فيه هذه السنجقيات الثلاث الى دولته . فالمحبي عدّ « عجلون وحوران والجولان » بين البلاد التي استولى عليها الامير[٢] » . وروى صاحب ملحق الخالدي بين اخبار الامير بعد تنصبه على عربستان في السنة ١٦٢٤ انه « رحل الى سلخد[٣] وابتدأ يعمر قلعة . وفرق جماعته على لمّ الذخيرة من نابلس وجينين . . . والجولان واربد . فالجميع ما خالفوا . والتمت الذخيرة الى سلخد . واستقام شهرين لاجل عمار القلعة[٤] » .

٣ ــ سوريا والاناضول ــ ليس لدينا عن اعمال فخر الدين وتبسطه في الملك

(١) خ ٢٨ — ٣٠
(٢) مح ٣ : ٢٦٧
(٣) من اعمال حوران
(٤) خ ٢٤٣ و ف ١٠٣ — ١٠٦

بعد السنة ١٦٢٤، التي توفي فيها مترجمه الخالدي[1]، سوى النزر القليل، الذي لا يروي غلة. اما الدويهي فشحيح باخباره. واليك بعض ما دوّنه في تاريخه عن الامير في هذه الحقبة الاخيرة من حياته:

« في سنة ١٠٣٤ التي بدوها في تشارين سنة ١٦٢٤[2] في نصف شوال ليلة الاحد[3] كانت وفاة يوسف باشا بن سيفا في مدينة طرابلس. فحضروا اولاده من حصن الاكراد. الامير محمود من عكار الامير بلك والامير قاسم من جبله. فتخلف عليه الامير قاسم في طرابلوس والاخرون عاودوا الى مواضعهم. وبعد ذلك بسبعة اشهر نزل الامير فخر الدين من بعلبك على جبة بشري. وفي عيد الرب في الحساب العتيق دخلوا مدينة طرابلوس. ولم يزالوا في مدة اربعين يوم ينهبوا ويسبوا ويشلحوا حتى دخل باشة حلب. ثم ان جا مصطفى باشا ابن اسكندر من قبل الصدر الاعظم حافظ احمد الوزير. وتولى ايالة طرابلوس. وكان دخوله بلا رحمة لكثرة الظلم الذي صار منه. فكتب عكار على الامير سليمان[4] وطفروا اولاد عمه[5] ».

« وفي سنة ١٠٣٥ للهجرة الموافقة لسنة ١٦٢٥[6] تقرر بلاد بعلبك على الامير فخر الدين وكان ابن الحرفوش في حصن اللبوه. فلما تحقق عن قدوم ابن معن الى تلك الجهة انتقل بعياله الى حلب. واما ابنه الامير حسن حضر على عمه فخر الدين فاعطاه الامن وسكّنه في الحدث. ثم انه اخذ بنت الامير[7] وارتحل ليلاً الى عند والده[8] ».

« وفيها مصطفى باشا صاحب طرابلوس ركب على بيت سيفا وسار في الرجال الى مرقيه لتحت قلعة المرقب حيث كانوا متجمعين الامير قاسم ابن سيفا ويوسف اغا والشيخ علي ابن حماده والذين من غرضهم. فدفعوا له عشرين الف حتى اخذوا خاطره

(١) راجع ترجمته في المحبي ١: ٢٩٧ و٢٩٨. وقد وقف الخالدي باخباره عند اواخر السنة ١٠٣٣ هجرية الموافقة لاواسط تشرين الاول ١٦٢٤، لا ١٦٢٣، كما جاء سابقاً (رص ٩). خ ٢٠٥

(٢) تبدأ في ١٤ تشرين الاول

(٣) ٢٠ تموز ١٦٢٥

(٤) عديل فخر الدين

(٥) ز ١٣٣ق و١٣٤

(٦) تبدأ في ٣ تشرين الاول ١٦٢٥

(٧) كان فخر الدين قبل معركة عنجر قد نزعها منه مع قصر قب الياس كما سبق القول. رص ١١٣

(٨) الامير يونس الحرفوش

ورجع الى طرابلوس . ثم انه بعد قليل كتب الى ابن معن لينجده في الرجال ويجدد الركبة على بيت سيفا . فجمع الامير فخر الدين جيشاً عظيماً من سكمانية وعربان واهل بلاده وزحف بهم من بيروت على البقاع واللبوه والهرمل . وكان الامير سليمان ابن سيفا متحصناً في حصار صافيتا ومعه نحو اربعة آلاف رجل . فلما بلغه قدوم الامير اطلق الرجال وسار بنفر قليل الى سلميه طالباً ليستعين في الامير مدلج البدوي . وفي حال وصوله قبض عليه رفاق مدلج البدوي وارسلوه موثوقاً الى عند استادهم . فاخذه والقاه في نهر الفرات . ثم ان اولاد سيفا طلبوا رضى الامير فخر الدين[١] » . « وسلموه قلعة الحصن وقلعة المرقب فطاب خاطره عليهم ومنع عنهم باشة طرابلوس[٢] » .

وتابع الدويهي كلامه « ثم انه تزوج الست بنت العيس من آل ابو ريشه امارة الحيار . فركب معهم على الامير مدلج . وفي محرم سنة ١٠٣٦[٣] دخل مدينة سلميه وهدم صورها وملك قلعتها . ثم انه حكم مدينة حما وحمص وسلمها لجماعته . ثم انه عاد الى مدينة بيروت وصار الصلح بينه وبين الامير مدلج[٤] » .

« وفيها اخذ الوزارة خليل باشا فتوجه الى حلب في العساكر بسبب الركبه على الامير فخر الدين ونهب بلاده . اما الامير فخر الدين فلاستعطاف خاطر الصدر الاعظم ارسل مع عبدالله بلوكباشي يوعده بخزاين كثيرة وتسليم قلعة الحصن وصافيتا وسلميه وشميمس . وعندما صار الوفق على ذلك تحولت الركبة على الشام[٥] » .

« وكان الامير يونس حرفوش يفتن على الامير فخر الدين واشرط على نفسه انكان ابن معن يسلم القلاع يكون بقطع رأسه . فرفعه الوزير الى قلعة حلب . ثم ان ابن معن سلم القلاع وفي محرم افتتاح سنة ١٠٣٧[٦] امر الوزير بخذف رأس الامير يونس[٧] » .

وهكذا تخلص الامير فخر الدين من عدويه الكبيرين يوسف باشا سيفا ويونس

(١) ز ١٣٤ ق
(٢) د م ٢٠٢
(٣) تبدأ في ٢٢ ايلول ١٦٢٦
(٤) ز ١٣٤ ق
(٥) ز ١٣٥
(٦) تبدأ في ١٢ ايلول ١٦٢٧
(٧) ز ١٣٤ و د ٢٠٢

حرفوش . فصفا له الجو وصمم عـلى التبسط وراء حدود لبنان . ولم يسلم القلاع المذكورة سوى الى حين، لاننا نراها بيده في السنة ١٦٣٢[١] .

وتابع الدويهي روايته « وفي العشر الاول من جمادى الثـاني الذي يوافق لشهر كانون الاول (١٦٣١) جمع الامير فخر الدين اهل كسروان وجبيل والبترون وبشري والكوره وعكار والضنيه والحصن وجبله ولادقيه وصافيتا وسلمانيه وغيرهم وتوجه الى مصيات دخل قلعتها وعزم على نهب بلاد الكلبيه لان ما ابداً قابلوا حاكم قبل هذا الان . فحضر عنده المقدم محمد ابن شلهوب من قرية فقرو والمقدم رزق‌الله بن عمر من قرية عناب فخلع عليهم وفلّت العساكر[٢] ».

وفي ملحق الخالدي شرح اوسع عن توسع الامير في سوريا وفلسطين اليك حرفه :

« وفي اول شهر ربيع الاول من السنة المذكورة[٣] اجاه احكام سلطانيه فرمان عالي شان خط هميون بانه يكون متولياً على ديرة عرب بستان من حد حلب الى حد القدس . ومعطى اسم جده المرحوم المغفور له الامير فخر الدين سلطان البر على المقاطعات المذكورة بحيث تؤدى ميرتهم الى الخزينة العامرة وسلوك طرقايهم وانتظام عمارهم . وذلك في سعي كتخداه الحاج درويش . ووكد في مكاتيبه بان باشر في ذلك . وجعل لاجل ذلك وطلوع هذه الاحكام الشريفة خدمة الى خزينة مولانا السلطان مايتين الف ذهب وتوجه بالاحكام والمكاتيب صحبتهم محمد اغا سلحدار » .

« فلما وصلوا الى حضرة الامير فخر الدين ووقف على مضمونهم حالاً رد جواب ان لا خلاف الى الاوامر الشريفة واعطى آغا ثلاث آلاف ذهب خدمته ورسل جاب ثقله من قب الياس . وجمع جميع السكمانيه الذين عنده وعند ولده وكان جمعهم تسع آلاف نفس وجمع من اولاد العرب خمس آلاف نفر وتوجـه بهم من بيروت الى نهر ابرهيم ومنه نقل الى البترون ومنه نقل الى جبل عكار ورسل الى ابن سيفا يطالبـه بالخمسين الف غرش الذي كانت الى عمر باشا بموجب تمسك عليه فاوردها من غير ملاوا[ة]. ونشر الاحكام الشريفة وارتحل الى جبله فقدموا له خدمة عشرين الف غرش

(١) ف ٣٨٧

(٢) ز ١٣٦

(٣) ١٠٣٤ الموافق ١٢ كانون الاول ١٦٢٤

وذخيرة ثلاث ايام فطيب خواطرهم ونظم حالهم وتوجه الى ارض الشغر وفرق ذخيرة على العمق والبيلان فحضروا له اياها . وحضر الى عنــده والي حلب علي معليك وخاله محمود ومقصدهم صفو الخاطر . وجعلوا خدمة الى الامير ثلاثين الف ذهب والف حمل ذخيره . وانه ينكفّ عن حلب . فحين وصولهم اعطاهم قول واقرار ان الاذيه مرفوعه حيث انهم يسلموه جوالي النصارى فسلموه اياهم . وبعث ناس من قبله حصلوا الجوالي . وتمّ مستقيم بعسكره حتى خلص . ومنها راح الى غربي حماه ونادى الامان فطلعوا اهل حماه الى مقابلته طايعين وقدموا له خدمة خمسين الف غرش » .

« وثاني يوم رحــل يمّ الموالي وارسل يطلب منهم ذخيرة فمن عرب الامير مدلج طاعوا الامير وجابوا ذخيرة والذين كانوا من هوى الامير فياض ما قدموا ذخيرة . فلما علم بذلك بقّى العسكر وركب عليهم بالخيل سلط . فلما بلغهم ذلك فردوا حالهم من الموالي ورحلوا على البريه . فتم وراهم ثلاثة وعشرين يوم حتى قطّعهم النهرين . ورجع وطق على الحمس فرق ذخيره من الجبه والضنيه والزاويه ووادي خالد وحَسيه وعباره وعكار والحصن والمرقب وصافيتا وجبل الاكراد والاتقيه وبعت ناس لموها بموجب ما طلب » .

« وبعد ذلك ابتدا في عمارة قلعتين قلعة شمالي قلعة الشماميس قبال حلب على كتف الروج وقلعة فوق انطاكيه . ولم نقــل بالعسكر حتى كملهم وحط فيهم بلكباشيه وارتحل . وتوجه الى بعلبك فرحلوا الاماره بيت الحرفوش ولم قابلوه . فعند ذلك نادى الامان وحضروا اهالي البلاد وجعلوا على حالهم خدمة خمسة واربعين الف غرش وقدموا ذخائر . فتعوّق في بعلبك شهر حتى رتب القلعة وحط فيها عازق وبلكباشيه من قبله وارتحل الى ارض برّ الياس رقد ليلة وارسل هد حارة قب الياس [1] وابتدا يعمر قلعة وحط ناس من قبله بالوكاله وحكم سليمان بن حيمور في البقاع ورحل الى وادي التيم فلقاه الامير احمد بن شهاب وقدم له ذخيره » .

« وفي ذلك لفت على الامير المشارقه وجعلوا انفسهم في كل سنة رمية خدمه تصل الى الخزينة . ورحل الى ارض حاصبيا فلاقاه الامير علي ابن شهاب وقدم له ذخيره . وامر احمد كجك بلكباشي [2] يستقيم في وادي التيم وفوق ذلك يحصل خدمه من الامير

(١) كان اعطاها الى صهره حسين ابن الامير يونس الحرفوش فخانه كأيه . ر ص ١٢٩

(٢) ربيب الامير . قاد في السنة ١٦٣٣ الحملة عليه، كما سيأتي القول .

علي عشرين الف غرش ويحصل جميع المال . ورحل الى بانياس واستقام يعمر في القلعة وارسل اناس من جماعته يلموا ذخيره من بلاد القنيطره وقرايا الشام . ورحل الى سلخد وابتدا يعمر قلعة . وفرق جماعته على لم الذخيره من نابلس وجينين و . . . والجولان واربد . فالجميع ما خالفوا . والتمت الذخيره الى سلخد . واستقام شهرين لاجل عمارة القلعة » .

« فانقطع البر من الشام وصار الغلا حتى بلغ رطل الخبز بتلت . فجاضت اهل الشام . وبعت نادى باسمه في جميع الصوامع حسبما رسم الامير فخر الدين ان يكون رطل الخبز بصريتين والذي يخالف يندم . فرجع حكم ما رسم[١] . وبعد ذلك نقل الى المرجه واستقام شهر فطلعوا اهل الشام الى ملاقاته كبار وصغار يدعون الى الامير بالنصر . وعين من انكشارية الشام الف نفر في كل سنة يعطيهم علوفة . وبعد ذلك طلب جوالي النصارى فسلموه اياهم وارسل من قبله ناس حصلها . وبعد ذلك رحل الى قب الياس بات ليله وشاف القلعه وتوجه الى دير القمر وامر بتصليح السرايا . ورحل الى مدينة بيروت ودخلها نهار الخميس في سبعة خلت من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٠٣٤[٢] » .

« ومن حضرة الامير صار له شأن عظيم وحكم ارزاق وسحوت من ابن سيفا وابن الحرفوش وغيرهم شي لم يعلم فيه الا الله . فقوت نفسه وكانت قوية من قبل . وراودته نفسه على السلطنة ويقول السلطنه نقل تخم وكلما حكمنا بلاد تتقوى في رجالها واموالها وننقل الى غيرها . واعتمد على ذلك وصار يعمر في بيروت حارة للوحوش تقليد للسلطنه . ودام على القوة وترتيب السلطنة الى سنة ثلاثة واربعين والف[٣] » .

فتسنى لبطلنا بجرأته وحسن ادارته وسياسته الداخلية ان يصبح سيد سوريا وفلسطين وشرق الاردن، فضلًا عن لبنان . وانه لامر فريد في التاريخ، اذا استثنينا فخر الدين الاول المعني، أن يأتمر واليا دمشق وحلب، بامر امير لبناني[٤] .

ولننتقل الان الى النظر في سياسته الخارجية مع الدول الغربية .

---

(١) وفي ح ٧١٧ بين حوادث السنة ١٦٣٠ « فتضايق اهل الشام من الغلا وارسلوا شكوا حالهم فارسل لهم الفين جمل محملة حنطة من حوران . وامر جميع جمال حوران ودوابها ان ينقلوا الحنطة الى الشام . وارسل مناديًا . . . » الخ

(٢) ١١ ايلول ١٦٢٥

(٣) تبدأ في ٢٧ حزيران ١٦٣٣ خ ٢٤٢ – ٢٤٤

(٤) ف ١٠٦ – ١٠٨

الباب السادس – فرنسا واسبانيا ومالطه

١ – سياسة فخر الدين الخارجية – ضاق الشرق عن نشاط فخر الدين السياسي. فتطلع الى الغرب. لان الميدان الشرقي على سعته لم يكن كافياً لمراميه الوطنية البعيدة.

كان عالماً ان العبرة ليست في انشاء دولة عظيمة تضم سوريا وفلسطين وشرق الاردن وجزءاً من الاناضول الى لبنان الجبار، فيصبح قلبها النابض ومعقلها، بل العبرة كل العبرة في تأمين حياة هذه الدولة وهنائها ورفاهيتها من جور آل عثمان وتقلبهم.

لما استولى في السنة ١٥٩٣ على صيدا، ميناء فنيقيه الشهير، انفتحت امام بصره الحادّ نافذة مطلة على المحيط اللازوردي، الذي يصل اوربا المسيحية بالشرق العثماني. ففكر بان يعيد اليها مملكتي اورشليم وجزيرة قبرس الصليبيتين. فيضع في جانبه حلفاء اقوياء مخلصين، يؤمّنون فتوحاته براً، ويحمون شواطئه بحراً، الى ان يتسع له الوقت لانشاء اسطول لبناني، يجعله سيد ذلك البحر، بعد ان اصبح «سلطان البر». فضلاً عن الفوائد الادبية والمادية التي يجنيها من محالفته تلك الشعوب الراقية. فيترقى شعبه في الاخلاق والعلوم والاقتصاديات زراعةً وصناعةً وتجارة.

لم تخفَ على عقله الراجح هذه الفوائد فعمل منذ اعتلاء عرش اجداده على الوصول اليها لمصلحة وطنه واسرته. فتراه منذ اتصل بالاوربيين محتفياً بهم، متودداً اليهم، مساعداً لهم في مهماتهم. كان واياهم قلبين يتفاهمان ويتحابان لاول لقاء. وكان مخلصاً في صداقته. وان زعم امرؤ ان الدافع الوحيد له كان المصلحة، دحضته البراهين البارزة من وميض الشواهد التاريخية الواصلة الينا.

مال الى الموارنة وحالفهم وساعد نهضتهم القومية والدينية، فضمن مساعدتهم على يوسف باشا سيفا عدوه وعدوهم، ووساطتهم لدى الكرسي الرسولي وعواهل اوربا. عطف على الاوربيين، خاصة مرسليهم، فاكتسب محبتهم واعجابهم ومؤازرتهم، وصداقة امرائهم وملوكهم، الذين اسرعوا لعرض خدماتهم عليه. بادلهم بارتياح الخدمات والصداقة وحالفهم على آل عثمان اعدائه واعدائهم. وقد صرح لهم، وهو ضيف توسكانا، « انه لم ينقطع يوماً عن العطف على المسيحيين واحترامهم. وانه مستعد ان يبذل في

سبيل العهود التي قطعها لهم ماله ورجاله وملكه وحياته » . انما كان يستحيل عليه وضع ثقته كلها في جميعهم على السواء . فلقد اقسم بالثأر من آل عثمان والسعي الى خلع نيرهم وكسر شوكتهم ودكّ عرشهم . فهل يأمن على غرضه جانب الدول الاوربية حليفاتهم، مثل فرنسا وانكلترا والبندقية وهولندا . وكان طبعاً اشد ميلاً الى الدول المعادية لهم، مثل تسكانا والكرسي الرسولي، واسبانيا ومالطه وهنغاريا .

ومع ذلك فقد عامل بالحسنى رعايا الجميع، ولم يهمل صداقة احد منهم، وحذق الاستفادة من كلهم ادبياً ومادياً . ولنستعرض الان علاقاته بهذه الدول[1] .

٢ ـ فرنسا ـ كانت علائق الامير بفرنسا بادئ ذي بدء مخلصة، لكونها مسيحية كاثوليكية، ولصلة القربى بين اسرتها المالكة وعاهل تسكانا حليفه[2] . فكان يظن، ولعله مصيب في ظنه، ان صداقتها لآل عثمان وليدة المصلحة . فلما جاءه في السنة ١٦٠٨ هيبوليت ليونسيني الفرنسوي[3]، موفداً من الغراندوق فردنان الاول لعقد معاهدة حربية، رضي الامير بان يحضر قنصل فرنسا في صيدا جلساتها السرية، وذهب الى تكليفه قراءة رسالة الغراندوق اليه وتعريبها . ولما اكد له السفير رغبة مولاه وملك اسبانيا في شد إزره لاحتلال الاراضي المقدسة، نهض القنصل المذكور وجاهر باسم ملك فرنسا انه مستعد هو ايضاً لمشاركتهم في هذه الحملة .

وفي السنة ١٦١٣ اصطحب الامير القنصل الفرنسوي في صيدا الى تسكانا، وكان يطلعه على اسراره ويشركه في المخابرات الدائرة بينه وبين الغراندوق . وفي الثامن من شباط ١٦١٤ كتب الامير مطولاً الى ده بريف سفير فرنسا لدى الفاتيكان يذكره بمعاملته للفرنسويين النازلين لبنان، ويذكر له تسلسل الدروز من بقايا الفرنسويين المتأخرين في الشرق بعد الحروب الصليبية، وتحدّر المعنيين من غودفروا ده بويون فاتح القدس . ثم يسأل وساطته لدى ملكه والكرسي الرسولي .

واستكتب ايضاً الحاج كيوان رسالة الى ملك فرنسا يخبره بامره ويستأذنه في

(١) ف ١٠٨ و١٠٩

(٢) كانت ماري مديشي Marie de Medicis، زوجة هنري الرابع ووصية عرش فرنسا، ابنة اخ الغراندوق فردنان الاول

(٣) Hippolyte Lionciny

الذهاب اليه ليصلح حاله مع السلطان . غير ان الملك أبى استجابته . فتأثر الامير من رفضه، واتخذه دليلاً على ان دولة فرنسا قد تناست خدماته لرعاياها، بينما عاهل تسكانا « قد استقبله ليس كطريد لاجئ بل كملك ظافر » . واضافه بكرم واكرام ووضع تحت تصرفه مقدرات مملكته الحربية والسياسية، وسعى له لدى عواهل اوربا السعي كله .

وكان من نتائج هذا الاستياء، ان تخلص الامير من رفقة قنصل صيدا الفرنسوي المذكور، راجياً الغراندوق ان يبعده عنه الى بلاده . وفي السنة ١٦١٨، بعد ان نال من السلطان العفو والاذن في الرجوع الى لبنان، جاءه الى نابولي القنصل نفسه برسالة من ملك فرنسا يدعوه فيها الى بلاطه، ليتعرف اليه ويوصي به السلطان صديقه خيراً . « فاعتذر الامير عن الذهاب »، مع انه كان على خلاف مع حاكم نابولي، وقد بلغ به الضيق مبلغاً اضطره الى بيع بعض اثاثه ومجوهرات زوجته ليعتاش[١] .

وفي السنة ١٦٣٢ كان قنصل فرنسا في صيدا ممتعضاً من تعلق الامير بعاهل تسكانا ومساعدته رعاياه وترويجه مصنوعات بلاده، مع اعراضه عن ملك فرنسا . فجاهد في تحويله عن الغراندوق الى مولاه عارضاً عليه خدمات مليكه، مبيناً له سطوته وثروته . فاجابه الامير ببرود « انا مستعد دائماً لخدمة عظمته » .

ومع ذلك لم ينقلب الامير على الفرنسويين الحالّين في مملكته، بل واصل جهده حمايتهم ومراعاة مصالحهم عملاً بخطته العامة . فانشأ لهم في صيدا كما سبق القول « خان الفرنج » الشهير، حيث كان يقيم قنصلهم وكاهنهم وتجارهم تحت حمايته . ولما قصد اليه في ٢٩ تشرين الثاني ١٦٢٠ قنصلهم تاركيز[٢] سائلاً الاذن للآباء الفرنسيسكان الفرنسويين في سكنى الناصرة وتجديد بيت العائلة المقدسة فيها، لم يكتفِ الامير باذن بسيط، بل استخرج لهم فتوى شرعية بالاقامة هناك، ورافقهم حتى الناصرة واوصى بهم سكانها خيراً ونقدهم مالاً لاقامة المعبد، كما مر القول .

وفي السنة التالية جاءه البارون دهاي، سفير ملك فرنسا الغير العادي، وسأله ايضاً الاذن للآباء اليسوعيين الفرنسويين في سكنى الناصرة فنزل عند طلبه كما سبق القول . وفي السنة ١٦٢٢ كتب اليه ده سيزي[٣] سفير فرنسا في الاستانة يوصيه بالآباء

(١) خ ٢٣٥

(٢) Tarquez

(٣) Philippe, Comte de Césy.

الكبوشيين الفرنسويين، الراغبين في انشاء الرسالات في لبنان . فلبى رغبتهم وأحلهم في بيروت وصيدا، وساعدهم بالمال وقربهم اليه كما مر بك الكلام . ولم يكن ملك فرنسا ليفتر عن توصية الامير برعاياه . وقد نفحه بلقب « الامير الكلي الشرف والسطوة »، المحفوظ عنده للصدر الاعظم .

واكد لنا الاب روجيه ميل الامير الخاص الى الفرنسويين . وكان له بينهم الاصدقاء، كالسيد لمبرور[1] المستشرق قنصلهم في اورشليم، الذي اتهم بالمؤامرة معه على تسليم المدينة المقدسة . والدوق هنري ده جيز[2]، الذي تعرف اليه في تسكانا وواصله بعدئذ بالرسائل[3] .

٣ ـ اسبانيا ـ ليس لدينا معلومات تستحق الذكر عن علائق فخر الدين ببقية الدول الاوربية حليفة تركيا، مثل انكلترا وهولندا والبندقية . والقليل الذي عثرنا عليه خالٍ من الصفة السياسية، وعائد الى مراعاته تجار هذه الدول ومبادلتهم المنتوجات، مما لا يخرج عن خطته الرشيدة في هذا الصدد .

اما علاقاته بدولة اسبانيا، اقوى دولة اوربية في ذاك العهد، فكانت سياسية اكثر منها تجارية، وما اتصل بنا عنها يدل على اهميتها . فقد تقدمت اسبانيا في عرض الخدمات عليه، واهداء الذخائر والاعتدة الحربية اليه . واضافته ثلاث سنين في صقلية ونابولي، ورسمت معه خطوط معاهدة غرضها احتلال الاراضي المقدسة .

اولاً . الذخائر الحربية ـ منذ وقف الامير في جانب علي باشا جانبولاد، المتمرد على الدولة العثمانية، لفت انظار عواهل اوربا المناوئين لها والطامعين في املاكها، خاصة الاراضي المقدسة وجزيرة قبرس . فاخذوا يخطبون ودّه، ويعززونه باحدث طراز من الاسلحة، ويعرضون عليه اساطيلهم وخبراءهم، لنيل اربه واربهم من تلك الدولة .

فحوالي السنة ١٦٠٧ اهدى اليه نائب الملك الاسباني في نابولي « قطعتين من المدفعية وكمية من البنادق وغير ذلك من المهمات الحربية » . وعرض عليه ملك اسبانيا

---

(١) Constantin Lempereur.

(٢) Henri Loraine, duc de Guise.

(٣) ف ١٠٩ ـ ١١١ و رص ٤١ ـ ٤٣

نفسه ان يشيد حصناً في ميناء صور، وان يضع تحت تصرفه ما شاء من الرجال والقوى البحرية ٠

ولما رآه في السنة ١٦١٣ قد لجأ الى غراندوق تسكانا داخلته الغيرة وما زال حتى استدرجه الى صقلية، التابعة وقتئذ لتاجه، بحجة الاستعانة به على تحويل الاسطول العثماني عن شواطئ صقلية وكالابريا ومالطه ٠ ففي السنة ١٦١٥ اوفد سفيرُ اسبانيا في جنوا القبطانَ يعقوب نجرو[1] الى تسكانا «ليحمل فخر الدين على طلب حماية مليكه خطأً، والتعهد بمؤازرته على احتلال الاراضي المقدسة» ٠ فأجابه الامير في حزيران تلك السنة «انه عاقد النية على ان لا يعمل الا برغبة الغراندوق» ٠ فاضطر دوق دُسُّونا[2]، نائب ملك اسبانيا في صقلية، ان يطلب الامير رأساً من الغراندوق ٠ واشار هذا على فخر الدين بقبول الدعوة دون الارتباط بشيء ٠ ففعل ٠

ثانياً ٠ الضيافة ـ ولما حطت رحال فخر الدين في ميناء مسّينا رحب الدوق به كل الترحيب وانزله قصراً مشرفاً على البحر وعين له معاشاً يومياً ٠ ثم علم برغبته في زيارة لبنان، ورأى ان هذه الرحلة موافقة لغايته من تحويل الاسطول العثماني عن شواطئه للحاق بالامير، فانزله غليوناً من مراكبه الحربية مع قسم من حاشيته، وطمنه ان اسرته ستلقى في اثناء غيابه غاية الرعاية والسخاء ٠ وهكذا تسنى للامير ان يشاهد ذويه ويقف عن كثب على حالتهم، التي تحسنت بعد مصرع عدوه نصوح باشا ٠ وعاد بعد سفر سبعة اشهر الى مدينة بالرمو، حيث انتقلت اسرته لانتقال الدوق الى ولايتها ٠

ثم لحق الدوق المذكور الى نابولي حيث قدّم له قصراً فخماً مطلًا على الميناء، وواصله بالعناية والمعاش ٠ الى ان ظهرت للامير اطوار هذا النائب الغريبة وفهم ان غايته الاستعانة به على اقتطاع سوريا وفلسطين ولبنان لدولته ٠ فتخلص منه بالتي هي احسن بعد مشادة لا محل لذكرها، وعاد الى لبنان في ايلول السنة ١٦١٨ ٠ ومع ذلك كان وداعه للدوق ودوداً رقيقاً ٠ فشكر له باخلاص ضيافته وحمايته، كما جاء مفصلًا في الرحلة المنشورة في الخالدي[3] ٠ وحفظ له ولذويه الجميل كله ٠

---

(١) Giacomo Negro.

(٢) Duca d'Ossuna.

(٣) خ ٢٣٦ – ٢٣٨

ثالثاً . مشروع الارض المقدسة – وفي السنــة ١٦٢٣ تلقى الامير من ملك اسبانيا ومن نائبه في صقلية الدوق البوكركي[1]، رسالتين سر بهما السرور كله، وهتف « الحمد لله . انهم لم ينسونا » . وسلم حاملها، المدعو نقولا، اثنين وثلاثين اسيراً مسيحياً، اكثرهم من الاسبانيين، هدية الى الدوق المذكور . وكتب له « اننا سايلين عنكم ولا ننساكم الليل والنهار . ونسأل من فضلكم واحسانكم ان تسلموا عـلى ري سلطان اسبانيا وتقبلوا لنا اياديه » .

وفي السنة عينها أوفد الامير المطران جرجس بن مارون الاهدني، سفيراً لدى الكرسي الرسولي وغراندوق تسكانا، وامره، اذا انتهى من مهمته هناك، ان يواصل سفره الى اسبانيا للاتفاق مع ملكها على تخليص الاراضي المقدسة، كما يُستدل من توصية اوربانس الثامن بالسفير المذكور، الموجّهة الى ملك اسبانيا بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٦٢٣ .

وفي السنة التي عقبتها كتب الامير نفسه بهذا الصدد الى البابا المار ذكره . وعاد فجهز السفير ذاته الى رومية وتسكانا واسبانيا . ومما كتبه حينئذ الكرسي الرسولي الى قاصده لدى الملك الاسباني « ان الفائدة المرجوة من هذا المشروع عائدة الى مصلحة النصرانية جمعاء، ومصلحة تلك الطائفة الكاثوليكية الوحيدة في الشرق، لتحريرها من نير الاتراك[2] . ان المشروع لخطير، ولكنه ناجح باذن الله اذا لقي التأييد من الملك الكاثوليكي التقي . واذا لزم الامر فنحن نقوم بما امكنا من المساعدات في هذا السبيل » .

وفي حزيران السنة ١٦٢٨ عاد نقولا، الرسول المشار اليه، الى فخر الدين برسالة ثانية من الدوق البوكركي، اهتم لها الاهتمام كله، واجابه عليها بخط يده . فانبأه بانكسار العثمانيين امـام الفرس « وخسارة نصف بلادهم » هناك . واردف بقوله « اعباظه باشا قطع منهم اكثر من اربعين الف عسكر . وان سالتم عنا فان في يدنا بلاد كثير . واخذنا منهم حصارات كثيرة وقلع كثيرة . وان سالتم عن العمارة بتاع الترك ما في البحر الان عمارة ابداً . ونحن وجهنا نقوله على مصالح كثيرة ما يمكن كتبها في المكتوب . وهو يخبركم عنهـا في السر . وان سالتم عن حالنا ونيتنا فاننا لا نتغير . لان قلبنا دايماً واحد ونيتنا واحدة . والكلام الذي يقول لكم نقوله عليه ان كان هو معقول ترسلوا

(١) Duca d'Albuquerque.

(٢) يعني الطائفة المارونية التي ينتمي اليها السفير المذكور

تعلموا السلطان بذلك . وبعد هذا الكلام الذي يقوله لكم نقوله ما بقى بعد خير ولا لكم علينا عتب . وتردوا لنا جواب سرعة من غير تعويق ولا اهمال . نحن وبلادنا وخدامنا كلهم في خدمتكم وفي رضى خاطركم . وهذا الخط كتب في يدنا في الليل ما علم به احد[١] » .

٤ ـ **مالطه** ـ جاء الاستقبال الحافل، الذي اعدّه للامير فرسان القديس يوحنا اصحاب مالطه، لما مر في السنة ١٦١٦ بجزيرتهم عائداً من لبنان، دليلاً على شهرته الواسعة في الغرب، وعلى علاقاته السابقة بهم . فقد انبأنا الاب روجيه « انه كان يسمح لقرصانهم بان يلجأوا الى موانئه ويخلصوا الاسراء المسيحيين، ويعيدوهم الى الوطن على متن سفنهم » . وهاك وصف هذا الاستقبال نقلاً عن رحلة الامير المذكورة « وتوجهوا الى جزيرة مالطه . ولها اساكل عظيمات ترسي فيها الغلايين والمراكب ويقفل عليهم جنزير من حديد . وارسلوا عزموا حضرة الامير فخر الدين ابن معن على النزول الى عندهم . وشاور القبطان الذي معه فاعطى رضا بذلك وقبل عزيمتهم . ولما نزل ارسلوا له قايق مخيم بالحرير وصفوا له اكابر الناس من البحر الى بلاص كران مايسطروا . وهذا هو حاكم مالطه . . . ولما طلع الامير ضربوا له جميع المدافع من القلعة والاصوار . ولما وصل الى عند كران مايسطروا لاقاه ورحب به . وبقي عنده ثلاث ايام في الاعزاز والاكرام . وتزهوه وفرجوه على خندق المدينة الذي عملوه جديد . وهو عظيم في العمق والوسع . وجميع ازقات المدينة مفروشة بالبلاط . وفرجوه على الماء الذي جلبوه للبلد من موضع بعيد وعلى الجبخانة المغطية لان لها خدام يخدموها مع كبرها ما فيها شي من الصدا من هوا البحر . وعاملين طواحين الهواء . وطلبوا من الامير ان يعملوا له ضيافة في بستان كران مايسطروا لانه من عجايب الدنيا فامتنع الامير من الرواح الى البستان ليلا يصير لهم كلفة زايده ولا طوله . وفيما بعد تندم الذي ما راح وتفرج عليه . وودعهم واستكثر خيرهم ونزل للغليون . فارسلوا له على نوع الزوادة من الغنم والدجاج والملبسات والحليات ومن البهارات والخبز والخضارات شي زايد[٢] » .

---

(١) ف ١١١ – ١١٥ وستثبت هذه الرسالة في محلها بين الوثائق . وقد تعبنا كثيراً في الحصول من خزانة بالرمو الاميرية على صورة شمسية للاصل المخطوط بيد الامير، فلم يعثر عليه قيم تلك الخزانة .

(٢) خ ٢٢٨ – ٢٣٠

ولا يعقل ان يمضي هذا الاستقبال الملكي دون ان يخلق او يدعم صلات متينة بين الامير وهؤلاء الفرسان، لاسيا ان غايتهم كانت مطابقة لغايته من مشاكسة آل عثمان وخضد شوكتهم. وهذا ما يفسر سماحه لقرصانهم باللجوء الى موانئه، وتموينهم الزاد والماء منها، واعتاقه اسراءهم. وعلى قول الاب روجيه ان من اكبر الشكايات التي قدمت على الامير في السنة ١٦٣٢ الى الدولة العثمانية، فدفعتها الى تجهيز الحملة التي قضت عليه، كانت صلاته بقواد قرصان مالطه وليفورنو.

وروى الاب المذكور ايضاً ان الامير كان قد عقد النية قبيل هذه النكبة على تسليم فارسين من فرسان مالطه، كان مركبهما راسياً في حيفا، ابنه منصور ومليوناً من الذهب، ليوصلاهما الى الغراندوق فردنان الثالث عاهل تسكانا، ضماناً لما قطعه له من العهود في مشروع احتلال الاراضي المقدسة[1].

الباب السابع - الكرسي الرسولي

ان ميل فخر الدين الى المسيحيين، واحترامه لهم، واعجابه باستقامتهم وعدالة امرائهم، ونظام ممالكهم، والفائدة السياسية والادبية التي كان يرجوها لوطنه من صداقتهم ومحالفتهم، حملته على وضع ثقته وآماله بدول اوربا المسيحية القوية، الغنيَّة، عدوة آل عثمان الطبيعية. فضلاً عن اعتقاده بتضامنها في طموحها الى الاراضي المقدسة، تحت رئاسة رئيسها الروحي الاعلى. وكان يحل الحبر الاعظم محلّاً سامياً من الاعتبار ويعتقد بنفوذ كلمته على جميع الدول النصرانية، وقد وصفه في كتاب وجهه في السنة ١٦١٤ الى ده بريف، سفير فرنسا لدى الفاتيكان، بذلك «الشخص العظيم، الذي يطيعه الامراء والملوك والاباطرة، وينطرحون على قدميه خاضعين لادنى اشارة تصدر منه. ذلك الاله الارضي صاحب السلطة العليا، الفريدة على الارض».

فان توصل بواسطة الكرسي الرسولي ان يستدرج قوى اوربا الى الشرق أمن على مملكته من الخطر العثماني، الذي كان يهدد كيانها. وقد استقرت هذه العقيدة في ذهنه

(١) ف ١١٥ و١١٦

حتى بعد السنوات الخمس، التي قضاها في ايطاليا، حيث رأى ان الانسان هو هو اينما حل، حسود، أناني، يؤثر مصلحته الشخصية على المصلحة العامة.

اما الكرسي الرسولي فكان من جهته يقدّر للامير حمايته للمسيحيين، خاصة الموارنة، كاثوليك الشرق الوحيدين في ذاك العهد. وكانوا همزة الوصل بين الامير والبابا وامراء الغرب، كما سبق القول. فكان الاحبار الاعاظم يجتهدون ان يغذوا في نفسه عقيدته بسلطتهم العليا، ولا يدعون الفرصة تفوت دون ان يظهروا له شكرهم وعطفهم على مهمته السياسية، ساعين لدى الامراء، الذين تبقى لهم عليهم بعض النفوذ السياسي، كعاهلي تسكانا واسبانيا، على شد إزره في مشروعه الخطير.

واليك كلمة وجيزة عن هذه المساعي والعلاقات:

١ ـ **بولس الخامس**[١] ـ كانت رابطة فخر الدين بالكرسي الرسولي متصلة بروابطه مع دولة تسكانا، فتمشت معها وتطورت وتوثقت.

بعد ان سمح اكليمنضوس الثامن وبولس الخامس لغراندوق تسكانا وملك اسبانيا بتصدير الاسلحة الى لبنان وسوريا[٢] لاهدائها الى فخر الدين وحليفه علي باشا جانبولاد، وجه بولس الخامس في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩، بناء على طلب الغراندوق نفسه، كتاباً خاصاً الى الامير لقبه فيه «بقائد الدروز النبيل، وامير نيقوميديه وفلسطين وفنيقيه». وارفقه بهدية «عربون حبه له وشكره على العطف الذي يبديه نحو المسيحيين، وخاصة الموارنة». واكد له استعداده لتأييده ضد «عدو الفريقين». وختم «سائلاً المولى هدايته الى طريق الحق».

ونزولاً عند رغبة الغراندوق ايضاً كتب في ٢٥ ايلول من السنة ١٦١٠ الى البطريرك الماروني، يوحنا مخلوف، معرباً له عن سروره من ان «فخر الدين، الامير القدير الباسل، المتحدر من قواد اورشليم، وعدو الاتراك اللدود، يواصل حمايته له وملته»، حاثاً اياه ان «يرعى صداقته ويقف هو وموارنته في جانبه، ليتمتع بحمايته، ويساعده على تخليصه وأمته من ظلم الاتراك، ويجتذبه الى يسوع المسيح».

(١) جلس على الكرسي الرسولي من السنة ١٦٠٥ حتى ١٦٢١

(٢) كان البابوات قد حرموا تصدير الاسلحة الى الشرق، خوفاً من ان يستعين بها الاتراك على مسيحيي اوربا

بلغت هذه الكلمات الرقيقة الامير في الوقت الذي كان الباب العالي يعدّ العدة عليه، ففكر ان يتصل رأساً بالكرسي الرسولي، اعتقاداً منه ان عهداً تقطعه له هذه السلطة العليا، يربط اوربا المسيحية كلها. جاء في تقرير قدمه سفيره المطران جرجس ابن مارون في هذا الصدد «لما صار البطريرك الماروني في زيارته الرعائية على مقربة من صيدا، استدعاه الامير اليه وفاتحه بهذا الكلام: سمعتُ ان في رومية اميراً تخضع له امراء وملوك كثيرون، ويلبون ادنى اشارة صادرة منه. انظر اذا كان راغباً في هذه البلاد فاني أعده، وقد اقسمتُ واقسم ان اقدّم موانئي لغلايينه، وان اشد إزره بكل قواي ضد هذا الكلب التركي».

فوضع البطريرك تحت تصرفه المطران جرجس بن مارون المذكور، الذي قصد في السنة ١٦١١ الى ايطاليا للاتفاق مع الكرسي الرسولي ودولة تسكانا على هذا المشروع الخطير، كما سيأتي تفصيله في الوثائق.

وفي السنة ١٦١٣، لما وصلت الحملة العثمانية الى لبنان، ابحر فخر الدين قاصداً اللجوء الى الكرسي الرسولي، «لو ساعدت الرياح مركبه في بلوغ شيفيتا فكيا[1]»، ميناء مملكة الكرسي الرسولي. ولما استقر به المقام في تسكانا فاتح كتابياً بولس الخامس بمشروعه. بيد ان قلب هذا الحبر الراجح الرأي كان مفعماً حزناً لانقسام الملوك المسيحيين على بعضهم. فاستصوب تأجيل الحملة. «فهي ان لم تكن كفوءاً لسحق عدوٍ قدير بعيد كالاتراك، لا تجدي سوى احراج صدورهم على المسيحيين».

٢ ـ **اوربانس الثامن**[2] ـ عاد الامير الى الوطن في اواخر ايلول السنة ١٦١٨، وتمكن من توحيد لبنان، والتبسط في سوريا شمالاً وفلسطين جنوباً، فبدّد مخاوف الكرسي الرسولي من ذاك «العدو القدير البعيد». وفي السنة ١٦٢٣ اوفد المطران جرجس بن مارون الآنف الذكر ليفاوض اوربانس الثامن، المنتخب حديثاً، في مشروع «تخليص الشرق». فكتب الحبر الاعظم الى ملك اسبانيا يوصي بسفير الامير خيراً، كما سبق القول.

وفي السنة ١٦٢٤ كتب فخر الدين رأساً الى البابا المذكور «حاثاً اياه على السعي

(١) Civita Vecchia

(٢) ملك من السنة ١٦٢٣ حتى السنة ١٦٤٤

للاستيلاء على الاراضي المقدسة، فالوقت مناسب . لان الفوضى ضاربة اطنابها في الامبراطورية العثمانية، والضعف بادٍ عليها . وعاهده ان يضع تحت تصرفه جيشه البري، الذي برهن على مكانته بانتصاراته الاخيرة الباهرة . وعرض الامير ان يذهب بنفسه الى رومية ليتولى تنظيم هذه الحملة المجيدة » . واستكتب بهذا المعنى البطريرك الماروني وابا صافي الخازن حاكم جبة بشري، التي استخلصها حديثاً من ابن سيفا .

فاهتم اوربانس الثامن للامر . واوفد في اذار السنة ١٦٢٥ الاب توما من نوفار، حافظ القدس السابق، ليفاتح به بلاط تسكانا . غير ان التنافس والتحاسد بين اسرتي بربريني ومديشي، اسرتي البابا وتسكانا، شلّ المشروع . فاجاب اوربانس الثامن الامير في ٦ ايلول ١٦٢٥ « موكداً له ما يكنه نحوه من الحب والاعتبار، مهنئاً اياه بانتصاراته الاخيرة، التي واصل بها مشروع الصليبيين اجداده، فسحق التنين المتغطرس » . ثم افهمه بلطيف العبارة « ان احوال اوربا لا تسمح بالسعي وراء مشروعه النبيل » . وكتب ايضاً بهذا الصدد الى البطريرك الماروني « آسفاً لعجزه عن انتهاز الفرصة الجيدة، التي عرضها عليه أمير غير مسيحي، جعلَ بلاده ملجأ لمسيحيي الشرق من عواصف الاتراك الهوجاء » .

وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٦٢٦ كتب المطران جرجس بن مارون من حلب الى المجمع المقدس، مبشراً بنكبة الاتراك في بلاد العجم . واردف بقوله « نزع منهم امير صيدا بلاداً كثيرة واقعة بين القدس وحلب » .

وفي السنة ١٦٢٧ عاد فخر الدين فوجه المطران نفسه الى رومية وتسكانا لعله يوفَّق الى عقد المعاهدة المنشودة . وما زال السفير في سعي واقناع حتى قرر الكردينال فرنسيس بربريني، ابن اخي اوربانس الثامن، ايفاد حملة استكشاف الى بلاد الامير، تقف على حقيقة نواياه، وتتفهم تفاصيل مشروعه، فتدرسه عن كثب . واهدى اليه البابا انجيلاً عربياً مذهباً[1]، وشمعتين مباركتين ورسمه ورسم الكردينال ابن اخيه . وارسل الى كل من الشيخ ابي نادر الخازن، قائد جيش الامير، والشيخ ابي ضاهر حبيش خازنه، درعاً وسيفاً مكرسين . وكتب الى البطريرك مخلوف في ٢٥ تشرين الثاني ١٦٢٨ « مبدياً أسفه لعدم امكانه انتهاز هذه الفرصة الثانية، التي قدمها الامير عن كرم نفس

(١) طبع في المطبعة المديشية، التي انشأها في السنة ١٥٩١ فردنان الاول في رومية

ونبالة، لتخليص أمته المارونية والاراضي المقدسة . بيد ان له الامل بان يتمكن يوماً الامير من القيام وحده بهذا المشروع الخطير » .

٣ ــ **اقوال السنة ١٦٣٤** ــ لما عادت العمارة العثمانية في خريف السنة ١٦٣٣ عن الموانئ اللبنانية، ارسل الامير نداء اخيراً الى دول اوربا، لتنقذ لبنان والاراضي المقدسة والنصرانية من شر تلك الحملة المستطير . واستحث سفيره المطران جرجس على السعي للتوفيق بين اسرتي بربريني ومديشي، مقترحاً، اذا نجح الجيش المسيحي في مهمته، ان يتوّج غراندوق تسكانا ملكاً على اورشليم وتادي بربريني، ابن اخي البابا، اميراً على قبرس . « ووعد فخر الدين باشهار نصرانيته وتعميد اسرته وذويه، وحمل أمته وحلفائه على الاقتداء به » . فتصبح دولة لبنان معقلاً للكثلكة في الشرق، وحليفة صدوقة للمملكتين الحديثتين . وتعهد ايضاً بتقديم المؤن والرجال لشد إزر الجيش المسيحي، ووضع موانئه ومقدراته تحت تصرفهم، وتسليمهم اورشليم يداً بيد . على ان يبعثوا اليه بحاجته من الذخائر والاعتدة الحربية، وعلى الاخص المدفعية، واسطولاً مؤلفاً من زهاء ٥٠ غليوناً يحتل جزيرة قبرس، فيدافع عن سواحله . وهو « الكفيل ان يقف وحده في البر بوجه كل القوات العثمانية » .

اعارت دوائر رومية وتسكانا هذه الوعود اهتمامها، كما يظهر من كتاب وجهه من رومية في ١١ تشرين الثاني ١٦٣٤ المطران جرجس الى فردنان الثاني غراندوق تسكانا يخبره فيه « ان المقابلة التي سمح له بها اوربانس الثامن جاءت على ما يشتهيه . فقد اظهر قداسته رغبة صحيحة في انجاز هذه القضية، واثنى الثناء العاطر على نيات سموه الصالحة، وآمره ان يباشر حالاً مفاوضة السفير التسكاني برومية في هذا المشروع . فقدم السفير صباح اليوم تقريراً وافياً الى الكردينال فرنسيس بربريني، وهذا بدوره تحادث بشأنه ملياً مع قداسته، وبشره بعد ذلك ان المهمة سائرة باذن الله في طريق النجاح » .

لا نعلم هل نشأ بعدئذ خلاف جديد بين الاسرتين، حال دون ارسال الحملة . واكبر الظن ان التجهيزات عاقت وصول الحملة الى لبنان في الوقت المناسب . لان الامير أُسر في خريف ١٦٣٤ والمخابرات بين المطران جرجس والڤاتيكان كانت لا تزال دائرة في ١١ تشرين الثاني من تلك السنة كما رأيت . وما نعرفه عن ثقة ان الامير، لما مل انتظار المدد،

الاوربي، ووهنت عزائمه لمصرع ابنه الامير علي في هجوم جنوني على الجيش العثماني، مال الى شور بعض عظمائه، واتفق مع احمد كجك باشا، قائد الحملة العثمانية، وكان ربيبه ومن موظفيه[1]، على مال جزيل وتسليم قلعتي صيدا وبيروت. بيد ان هـذا الخائن المنكر الجميل، بعد ان تسلم المال والقلعتين، قبض على سيده وعلى ولديه وقادهم الى الاستانة، حيث قُطع رأس الامير في ١٣ نيسان ١٦٣٥[2].

وعقيب مصرع الامير واخيه واولادهما وملاحقة ذويهما قصد الشيخ ابو نادر الخازن الى رومية واستغاث بالكرسي الرسولي ليسعى في تخليص الامير ملحم معن، ابن اخي فخر الدين، والمقدمين ابي اللمع اصهاره. فاستحث الكرسي الرسولي فردنان الثاني وحمله على ايفاد غليون الى لبنان لهذا الغرض. وتجددت المساعي لشد ازر آل معن واحتلال الاراضي المقدسة. بيد انها توقفت لما استعاد الامير ملحم حكم عمه فخر الدين، كما سيأتي تفصيله في حينه[3].

وبعد قرن من هذه الفاجعة، بين السنتين ١٧٢٢ و١٧٣٣، بذل الكرسي الرسولي، بناء على طلب ورثة فخر الدين، الجهود والنفقات لتحصيل مال أودعه فخر الدين في السنة ١٦٣٢ مصرف الرحمة بفلورنسا باسمه وباسم ورثته. وكان قد بلغ ١٤٠،٠٠٠ سكوت.

فالكرسي الرسولي عمل ما بوسعه في سبيل الامير وورثائه، ولولا حرب الثلاثين سنة التي نشبت في اوربا في ذاك العهد لتكللت مساعيه بالنجاح[4].

الباب الثامن - تسكانا

علائق فخر الدين بدولة تسكانا اوثق علائقه السياسية والتجارية بدول اوربا، واخلصها واوفرها فوائد. ولما كان مدار كتابنا عليها اكتفينا هنا بنظرة سريعة.

---

(١) خ ٢٦٣

(٢) خ ٢٤٤ - ٢٤٩

(٣) ف ٤٢٩ - ٤٤١

(٤) ١١٦ - ١٢١

١ ـ **فردناند الاول** ـ حاول فردنان الاول منذ السنة ١٦٠٢ ان يحل عملاءه في طرابلس اللبنانية، ويفتح فيها سوقاً للمنتوجات التسكانية، فذهبت جهوده عبثاً. وحوالي السنة ١٦٠٥ اشار عليه المدعو رفائيل كاتشياماري[١] البندقي، بمحالفة فخر الدين، مؤكداً له ان صداقته مفتاح سوريا والقدس وقبرس، التي كان يطمح اليها.

وفي السنة ١٦٠٦، بعد ان عصى علي باشا جانبولاد الدولة العثمانية واستولى قسراً على ولاية حلب، ارسل الغراندوق اسطوله لاحتلال ميناء آياس في شمال سوريا، ثم موقعين آخرين في الاناضول. ولم يلبث ان اتصل بجانبولاد المذكور وحليفه فخر الدين وعقد مع اولهما معاهدة حربية تجارية، وجهز اسطوله لاحتلال ميناء فاماغوستا في جزيرة قبرس. وخابر الغراندوق فخر الدين في مشروعه «فوعده، ان هو نجح في احتلال هذا الثغر، ان يساعده على ضم بقية الجزيرة وعلى الاحتفاظ بها. لانه يعدّ جواره ضماناً لنفسه».

ولما فشل جانبولاد في عصيانه صحت عزيمة الغراندوق على ايفاد بعثة تعقد محالفة مع فخر الدين. فحمّل في السنة ١٦٠٨ سفيره هيبوليت ليونسيني رسالتين للامير وللبطريرك الماروني، واصحبها بالف بندقية على سبيل الهدية. ومع ان الامير كان قد اصطلح حديثاً مع الدولة العثمانية، بعد كسرة حليفه جانبولاد، استقبل البعثة في قصره بصيدا وعقد لها جلسة علنية تحت ستار بيعها ثلاثة اسرى تسكانيين. وفي اليوم التالي اجتمع بها بجلسة سرية صارحها فيها بعزمه على مواصلة سياسة العداء للدولة العثمانية، وبمقدرته على احتلال دمشق والقدس وتسليمهما الى الغراندوق.

«بيد انه طلب للاحتفاظ بهاتين المدينتين اولاً ان يضع الغراندوق تحت تصرفه خبيرًا يصب له من المدافع اثنتي عشرة قطعة مع بعض الهواوين. ثانياً ان يستفك الاسرى الثلاثة التسكانيين من يد مراد باشا الوزير الاعظم، لمعرفتهم تمام المعرفة بقلاعه. وهي اذا جهزت بالذخائر والمدافع صمدت امام كل قوات الاتراك. ثالثاً ان يفوز له من البابا ببراءة يأمر فيها موارنة لبنان ان يقفوا في جانبه في الحروب القادمة ويطيعوا اوامره. رابعاً ان يضع تحت تصرفه في ميناء صيدا مركبين، ليستخدمهما في تبادل الرسائل والبعثات معه، وتهريب خزنته عند الحاجة الى تسكانا، وغير ذلك من المهام.

---

(١) Cacciamari

خامساً ان يزوّده بتذكرة مرور يتسنى له بواسطتها الركوب الى تسكانا متى شاء، للاتفاق معه شفهاً على المشروع الخطير، والهرب اليها اذا اضطره الامر » . فلبى الغراندوق مطالبه ووضع تحت تصرفه قسماً من اسطوله، ونال له براءة من بولس الخامس حرض فيها الموارنة على المحاربة تحت لوائه كما سبق القول . اما الامير فشمر عن ساعد الجد « وجند من الرجال ثلاثين الفاً . الامر الذي أثار مخاوف الباب العالي[١] » .

روى سانديس في السنة ١٦١٠ « ان هناك اشاعة باستعداد السلطان لمعاقبة فخر الدين على عصيانه، وغزو جيرانه، ولاسيا على علائقه بعاهل فلورنسا، التي انفضحت . لانه يأذن لمراكبه باللجوء الى صور، بحجة ان ميناءها خراب لا يسعه الدفاع عنها . فضلاً عن السماح للاسطول التسكاني بان يتمون من سواحله الزاد والماء، وكل لوازمه . وهناك مؤامرة بين الامير والغراندوق اكبر خطورة، كما علمتُ من بعض التجار الذين تدخلوا فيها . فان عرف الامراء المسيحيون ان يغتنموا هذه الفرصة، اصيبت الامبراطورية العثمانية بهزة عنيفة ربّما ضعضعتها . لذلك يقال ان السلطان مستعد للتساهل مع الشاه ليحوّل في الصيف القادم كل قواته على فخر الدين[٢] » .

٢ ـ **قزما الثاني**[٣] ـ في السنة ١٦٠٩، التي توفي فيها فردنان الاول، ارسل قزما الثاني، ولده وخلفه، الى الامير اسطوله محملاً « هدايا من البنادق ومعدات القلاع ومواد متفجرة وغير ذلك » . ورسالة مؤرخة في ٢٢ ايلول اكد له فيها نيته على مواصلة علاقات الصداقة، التي كانت تربطه بأبيه، وحثه على الوقوف في صف الامير يحيي العثماني، المتنصّر سرّاً، والساعي لاستخلاص عرش السلطنة، الذي اغتصبه منه اخوه الاصغر السلطان احمد . واختتم رسالته بقوله « ان نجاح هذا المشروع العظيم عائد باذن الله عليك بالفخر امام العالم، وعلى مستقبل اسرتك وبلادك بنتائج عظيمة » .

بيد ان الحاج كيوان التقى في صور بالامير المشار اليه « واقنعه بان لا يأمن جانب سيده فخر الدين، لانه على غير مذهبها » . فعدل الامير يحيي عن الاتصال بالامير وفشل المشروع .

(١) ف ١٢١ - ١٢٢

(٢) س ٢١١

(٣) ملك من السنة ١٦٠٩ الى السنة ١٦٢١

وفي السنة ١٦١١ اوفد فخر الدين المطران جرجس بن مارون سفيراً الى قزما الثاني لعقد معاهدة ضد الدولة العثمانية، كما سبق القول .

وفي السنة ١٦١٣ لما ضايقته الحملة العثمانية براً وبحراً اقلع مع بعض ذويه لاجئاً الى صديقه قزما الثاني، فلقي منه الترحاب كله والاكرام والتأييد . وسعى الغراندوق له لدى الكرسي الرسولي ودولة فرنسا وملك اسبانيا ونائبي هذا الملك في صقليه ونابولي . وجهز مركباً الى لبنان اوسقه بالذخائر والاسلحة لتموين جيشه وتشجيع رعاياه على الثبات على ولائه . وارسل في ذلك المركب بعثة من الفنيين لاستكشاف قلاعه وموانئه استعداداً للحملة التي كان يسعى لدى امراء اوربا بشأنها . ولما رآهم لاهين باغراضهم وحزازاتهم، عرض عليه كل قواته . بيد ان الامير اشار عليه ان لا يجازف وحده في حملة خطيرة كهذه، بل ينتظر فرصة اخرى سانحة . وان يكتفي الان بارسال غليونين ومركب من الاسلحة لذويه، يعيد عليها حاشيته التي بلغت سبعين نفساً . وكانوا كلهم نازلين ضيوفاً على الغراندوق . فلبى طلبه وعين له ولخاصته قصراً فخماً في فلورنسا عاصمة تسكانا والفي سكوت راتباً سنوياً، وقدم له عربة وخيلاً لوحاته وجياداته . وعين للحاج كيوان مستشاره منزلاً في مونتكاتيني[1] .

وفي صيف السنة ١٦١٥، لما عزم الامير على الانتقال الى صقليه، ودعه قزما وداعاً رقيقاً واهدى اليه على سبيل الذكرى قونة وسلسلة ذهبيتين، تزيد قيمتها عن ثمانمائة سكوت . واوصله بغلايينه حتى مسينا واوصى به حاكمها خيراً[2] .

٣ ـ **فردناند الثاني**[3] ـ جنى فردنان الثاني ثمرة الخدمات التي قام بها جده ووالده نحو الامير . فامتازت علاقاته به بتبادل حثيث متواصل من الرسائل والهدايا والمنتوجات والبعثات، في حقلي التجارة والسياسة، لاسيما في الحقبة الاخيرة من حياة الامير، بين السنتين ١٦٢٩ و١٦٣٥ .

اولاً ـ العلاقات التجارية ـ توفي قزما الثاني في ٢٨ شباط ١٦٢١، ولم يكن ابنه

(١) Montecatini.

(٢) ف ١٢٢ – ١٢٣ وخ ٢٠٨ – ٢٢٦

(٣) ١٦٢١ – ١٦٣٥

فردنان الثاني قد بلغ الحادية عشرة . فوُضع تحت وصيــة جدَّته ماريا كرستينا بنت دوق لورينا، ووالدته ماريا المجدلية ارشيدوقة النمسا[1] . ففي السنة ١٦٢٩ بينما كان مجلس الوصاية في بلاط تسكانا يتحاشى الاشتراك في البعثة، التي جهزها الكردينال بربريني الى لبنان، كان يعمل سرًا على تجديد علائقه بالامير والاستفادة من صداقته لتصريف المنتوجات التسكانية في لبنان وسوريا، واستجلاب القمح والحبوب التي كانت اوربا بحاجة شديدة اليها لحرب الثلاثين المشار اليها . فزودت الغراندوقة تاجرًا يدعى باشيكالوبو[2] بتوصية الى فخر الدين . فساعده الامير عـلى شحن مركبين قمحًا من صيدا باسعار متهاودة واعفاه من رسوم القنصلية، وارسل بصحبته ثمان بالات حرير هدية الى الغراندوقة، مرفقة برسالة كتب فيها « ان سروري بورود كتابك لا يفوقه سرور في هذه الدنيا . لو أن محصولي من القمح جاء كالسنين الماضية لملأت المركبين بلاثمن ».

شجعت هـذه المعاملة الحسنة تجارًا آخرين من التبعة التسكانية، فاخذوا يردون الموانئ اللبنانية واسقين منها الحرير والزيت والقطن والحنطة والارز والفول وما شاكلها من الحبوب . واعطى مجلس الوصاية قيادة احـد المراكب للمدعو البارون دلاجره[3] ليتسنى له الذهاب والاياب بين تسكانا ولبنان تحت ستار هذه الوظيفة دون ان يثير شبهات الباب العالي، فيخدم مصالح الفريقين ويكون همزة الوصل السياسية بينهما .

فجاء البارون الى الامير بجواب من الغراندوقة تشكر له فيه عنايته بالتجار من رعاياها، وهديته من الحرير . وبادلته بتحف لـه ولزوجته خاصكية، التي رافقته الى تسكانا في السنة ١٦١٣، وبعث اليه الارشيدوقة بعلبة عقاقير كان قد اوصى البارون عليها .

فاجاب الامير في ١٠ اذار ١٦٣٠ شاكرًا على الهدايا الجديدة، وبعث باثنتي عشرة بالة من الحرير « ثمرة بساتينه » . منها ثمان بالات هديـة الى الغراندوقة واربع الى الارشيدوقة ارملة قزما الثاني مع كتاب رقيق الى هذه الاخيرة « اكد لها فيه ان ذكرى زوجها تحيا في قلبه الى الابد، وانه بغاية الاستعداد لخدمة مصالح ابنها ». وفاتحها برغبته في تعيين قنصل تسكاني لديه في صيدا « يستعين به على مجاوبة افكارها ورغائبها ».

---

(١) Maria Cristina, Granduchessa. Maria Maddalena, Arciduchessa d'Austria.

(٢) Bacigalupo

(٣) De la Legre

فتشجع مجلس الوصاية واوسق خمس مراكب من اصناف الاقمشة والحرائر والاجواخ مع كمية من البارود والرصاص والاسلحة، ومبلغ من النقد قدره ٣٢٤٣٠ ريالاً اسبانياً[1] و ٣٠٣٣٠ قطعة من نقود ثلث الغرش، ضربت حديثاً برسم الغراندوقة لتصريفها في اسواق لبنان وسوريا بربح لا يقل عن ٢٥ في المئة . واصحب المراكب بغليونين لحمايتها . واقام على تصريف البضائع والنقود تاجرًا يسمى ميشيري . وعيّن القائد فرنسيس ده فراتسانو، الذي كان من خدمة الامير، قنصلًا لدولة تسكانا في صيدا، والمدعو فرنسيس ليونشيني[2] مساعداً للبارون في مهمته التجارية . وارفق البضائع بسبعة طرود من شتى التحف قدمتها الغراندوقة للامير، وكمية من الرصاص اهداها اليه الغراندوق حفيدها . فضلًا عن خلع من الفرو والحرائر وكمية من الدخان الى وزرائه وحاشيته .

فاستقبل فخر الدين القنصل بحفاوة وانزله جناحاً من قصر ابنه علي بصيدا. وصادفت البضائع والنقود رواجاً حسناً في الاسواق اللبنانية والدمشقية . وشحنت المراكب برعاية الامير من الموانئ اللبنانية قمحاً وارزًا . وكان البارون قد لقي حتفه بعيد وصوله الى صيدا فاعاد الامير رفيقه ليونشيني مع المراكب بعشرين بالة من الحرير هديـة الى الغراندوقة، وزوج من اصائل الخيل الى الغراندوق، وحصان الى عمه لورنسو، واربعة من جياد الكلاب الى الارشيدوقة، وكانت مولعة بالصيد . وبعث الامـير علي الى الغراندوق بحصان البسه عدة شرقية مزركشة بالقصب والحجارة الكريمة .

وكتب فخر الدين سائلًا الاسرة المالكة ان ترسل اليه بعض الخبراء، ليستعين بهم على الاعمال العمرانية التي ينوي القيام بها . اي طبيباً ماهراً لشخصه واسرته مصحوباً باجزائي . ومهندساً حاذقاً ببناء الجسور والقلاع، مصحوباً بنجار مساعد مختص بهذا الفن . وآخر لجمع المياه وجلبها بالاقنية والقناطر . ونحاتاً لزخرفة البرك والسبل . وخبازاً يعلّم العسكر عمل البقسماط . وست او سبع اسر من الفلاحين ليدربوا بني قومه على طرق الزراعة التسكانية . وتصطحب معها هذه الاسر ما يلزمهـا للعمل من بقر وادوات . وكلف وكيله ليونشيني شراء اربع بقرات وثوراً من الجنس التسكاني الممتاز لتحسين نسل البقر اللبناني . واخذ على عهدته ونفقته نقل هؤلاء جميعهم وانزالهم بيوتاً لائقة،

---

(١) كان الريال يساوي ثمانية فرنكات ذهباً

(٢) Miceri. Leoncini.

وتقديم الرواتب التي تعينها الاسرة المالكة لكل منهم حسب استحقاقه، فضلاً عن كاهن يخدمهم في الروحيات ·

وطلب سراً كمية وافرة من اسلحة المشاة والخيالة، وقارباً لاتينياً حمولته ٢٥٠٠ كيس، يخدمه عشرة بحارة، ليهرب باموالة الى تسكانا اذا مست الضرورة. وسلم الى ليونشيني المذكور قائمة بالبضائع التسكانية التي تروج في لبنان وسوريا، واخرى بالبضائع اللبنانية التي يصلح تصديرها الى ايطاليا · فاهتمت الاسرة المالكة بتلبية مطالبه ·

وفي السنة ١٦٣١ اوفد الامير ابرهيم الخاقلاني، بخمس واربعين بالة حرير كما سبق القول[١]، وامره ان يقدم واحدة منها الى الكردينال مديشي، بدلاً من مكتبة جميلة كان الكردينال قد ارسلها اليه، وان يبيع البقية في اسواق ايطاليا ليودع ثمنها مصرف الرحمة[٢] بفلورنسا باسمه وباسم اولاده الثلاثة الصغار · وكان اوصاه ان لا يأتي امراً مهماً دون استئذان الغراندوقة · فنزلت هذه عند رغبته واخذت مصالحه على عهدتها · واشترت له بجزء من ثمن الحرير ٢٢٦ سهماً من مصرف الرحمة المذكور ·

ثانياً . الاعمال العمرانية ـ لا شك ان اميرنا مدين بتربيته الفنية الى روائع الهندسة والنحت والتصوير، التي شاهدها في اثناء اقامته في ايطاليا · فتأثيرها فيه بادٍ في الوصف الذي أودعه رحلته المنشورة في الخالدي · وقد باغتته حملة السنة ١٦٣٣ وهو غارق في مشاريعه العمرانية العظيمة، من هندسية وزراعية وصناعية · لان الفنيين التسكانيين وصلوا الى لبنان في ايلول السنة ١٦٣١، وعادوا منه في ربيع السنة ١٦٣٣، الذي جاءت فيه تلك الحملة · عرفنا من هؤلاء الطبيب متى نالدي، والنحات فرنسيس تشيولي، والمهندس فرنسيس فانيي، والخباز بطرس كيليني[٣] · وقد تركوا في البرهة الوجيزة التي قضوها في لبنان آثاراً رائعة تشهد للذكاء الايطالي بالسبق والمقدرة في جميع فروع الفنون الجميلة ·

اكد لنا السائح ماجري المالطي «ان الايطاليين شيدوا قصر الامير الفخم في بيروت على الطراز الايطالي، مع الجنائن والاسطبلات واقفاص الوحوش اللاحقة به». ووصف الزوار الاجانب هذا القصر بانه «من عجائب الشرق» · ولما كان ماجري قد مر ببيروت

---

(١) ر ص ٤٧

(٢) Monte di Pietà

(٣) Naldi. Cioli. Fagni. Chelini.

في السنة ١٦٢٤، اي بعد قيام هذا القصر بسنتين او اقل، فشهادته لا شك راجحة على ادّعاء ماريتي، الذي أمّ لبنان في السنة ١٧٦١، وزعم « ان القصر من اعمال الجراكسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » . اما استناده الى شكله العربي فلعله دليل على مجاراة المهندسين الايطاليين ذوق الامير، كما يفعل في ايامنا المهندسون الغربيون اذا كلفهم امراء شرقيون هندسة قصورهم .

ومع ذلك فالكاتب ماريتي يسلم بان الفنيين التسكانيين « عنوا بترميم بعض اقسام القصر وتحويره على الطراز الاوربي . وان زخارف الحوش المربع الذي يتوسطه من صنع أيديهم . فنسقوا الاحجار وقطع الرخام المختلفة الالوان تنسيقاً يسترعي الانظار » .

وكانت اسطبلات القصر الشهيرة وداره العليا مركزاً لبورصة بيروت، غربي السراي الصغير، حتى السنة ١٩٣٢، فازيلت لتفسح مكاناً لعمارة حديثة بنيت بالترابة المسلحة . واليك ما كتبناه في مجلتنا الصادرة في شباط تلك السنة « كلما مررنا بهذا الأثر الجميل لا نتمالك من التأثر لرؤية العقود البديعة، التي شاهدت عظمة اعظم امير لبناني، تهدمها يد الجهل لتقيم مكانها الاعمدة المسلحة . فنشعر ان مجد لبنان وجماله الطبيعي وجلاله التاريخي تسقط امام المدنية الحاضرة النفعية، التي لا فخر لها ولا جمال ولا جلال » .

« ومن آثار البعثة التسكانية السبيل الذي اقامه فخر الدين في بيروت تخليداً لذكرى كنته، زوجة الامير علي، وقد اختطفتها المنية في ريعان الصبا » . وصفه الرحالة موندرل بانه « ابدع ما شاهده من نوعه في الامبراطورية العثمانية » . وقد ادخلت هذه البعثة الى بيروت فالجبل فالشرق، فن الاسطحة القرميدية، وواجهات المنازل الزجاجية المرتكزة على اعمدة رشيقة، المفتوحة على صحن الدار لتموينها بهواء البحر البليل صيفاً، واشعة الشمس الدافئة شتاء . وقد لا يخلو منهـا منزل في بيروت والجبل . وهي التي نظمت داخل البيت، وكان قسمه الاكبر مشغولاً بدار واسعة، على طراز « الأتريوم » الروماني، فجعلوا حولها غرفاً مستقلة لراحة افراد الاسرة واغراض المنزل المختلفة[١] » .

واكبر الظن ان « برج الكشاف »، الذي شيده الامير في السنة ١٦٣٢[٢]، والذي اعطى اسمه « لساحة البرج »، كان من هندسة الايطاليين، ان لم يكن صنع ايديهم .

---

(١) المجلة البطريركية ٧ : ١٦٣

(٢) د ٢٠٣ وز ١٣٦ ق

فلا يعقل ان يقوم فخر الدين بهـذا العمل الخطير دون تكليفهم امره، او على الاقل استشارتهم، وقـد كانوا يشتغلون لحسابه في تلك السنة . ولعل آثاره باقية في الخان الواقع على مدخل طريق النهر شمالاً، حيث مربأ سيارات « مصايف لبنان » . وستطالع وصفه بين الوثائق . والمعلومات القليلة، التي وصلت الينا عن قصر الامير تدل على انه كان يشغل ساحة الشهداء الحالية بكاملها، مع قسم من طريقي الشام والنهر والسراي الصغير والجامع الواقع غربه .

وروى القنصل فراتسانو في احدى رسائله ان فخر الدين كلف المهندس فانيي بناء جسر نهر الاولي بقرب صيدا . فجعله عقداً واحداً، كان من عجائب الهندسة في ذاك العصر . وحضر الامير بنفسه وضع الحجر الاول منه، فاخفى فيه قطعة من النقود الذهبية المنقوشة برسم قزما الثاني .

وينسب ماريتي الى المهندسين عينهم اعادة القناطر، التي كانت تحمل جسر نهر الكلب، وترميم جسر نهر بيروت، وبناء حصن وخان قبلي نهر القاسمية، واصلاح قصر صيدا الصليبي، والعمل في خان الفرنج في هذه المدينة . وقال ايضاً ان المهندس تشيولي ازال من داخل حرش الصنوبر في بيروت ومن حوله الكثيف من الاشجار التي كانت تعرقل السير فيه وتعوق النظر من اختراقه . فاصبحت اشجاره صفوفاً منظمة تراهـا خطوطاً مستقيمة من اي جهة جئتها . وحوّل الاراضي المحيطة بالحرش الى حقول . حتى اذا تجاوزه النظر وجد امامه الافق نضراً متسعاً . فانشرح الصدر وسرح البصر بلا ملل بين قامات اشجاره الرشيقة المتدللة والحقول النضرة المحيطة به .

هذه الغابة الظريفة الانيقة، المنبسطة على اقدام لبنان ما زالت حتى اليوم ذكرًا حيًا نضرًا عاطرًا للعلاقات الطيبة النافعة، التي كانت تربط ايطاليا بهذا الجبل الشيخ والفتى معاً، الشامخ حتى السحاب، الذي تغنت به الاسفار المقدسة كمثال اعلى للجمال الكامل الخالد .

ثالثاً . العلاقات السياسية ـ لم تكن هذه المشاغل لتلهي الامير عن مشروعه العزيز على قلبه، الرامي الى احلال حلفائه الاوربيين بجانبه في القدس وبقربه في قبرس، بعد ان احلّ مرسليهم في مملكته، واستدرج تجارهم ومراكبهم الى موانئه .

ففي السنة ١٦٢٤ كان قد أتم الوحدة اللبنانية واصبح سيد سوريا وفلسطين، ففاتح

بنياته دولة تسكانا، التي عمدت الى جمع المعلومات عن بلاده، وخاصة عن مدينة صور وميناها الممتاز . فالرسم والتقرير الموضوعان في تلك السنة لهذه المدينة يدلان على ان الامير قد عينها مركزاً للحملة التسكانية .

وبعد ثلاث سنين كتب الكردينال بربريني الى قاصد الفاتيكان لدى الغراندوق ما تعريبه « في آذار ١٦٢٥ اوفد قداسته[1] الاب توما من نوفار الى بلاد تسكانا . فروى لقاصد فلورنسا الرسولي ان الامير فخر الدين كتب الى قداسته يستحثه على السعي لاحتلال الاراضي المقدسة ... وشهد سمو الغراندوق بفخر الدين انه امير باسل حكيم، فما عرضه جدير بان يؤخذ بعين الاعتبار » .

وفي السنة ١٦٣٠ ارسل الغراندوق الى الامير، نزولاً على طلبه، رسمي قلعتي نيحا والشقيف، اللذين وضعها المهندسون التسكانيون سنة ١٦١٤، ليرممها، ووعده ايضاً برسوم قلعتي بانياس والمغارة ومدينة صور .

قال الاب روجيه بخصوص هذا المشروع « كان الامير عالماً اذا اشهر العصيان على السلطان انفض من حوله المسلمون وانضموا الى صفوف الاعداء . فعقد مع الغراندوق محالفة نال بها عهداً بان ينجده بستة آلاف محارب . وبينما كان الغراندوق جاداً في تجهيزهم انفجرت حرب البيمونت، فاضطر ان يرسلهم الى ملك اسبانيا . وكان سموه قد اوفد اليه بعثة من الخبراء الحربيين والمهندسين والخبازين، مع كمية من المفرقعات والمدافع . فقضوا سنتين في تحصين القلاع وتجهيزها بما يلزم من الذخائر والمؤن، حتى اذا خمدت نيران الحرب بين فرنسا واسبانيا، وكان يُظن انها قصيرة المدى، ارسل هؤلاء الجنود لتسلم حصون بيروت وصيدا وصور واحتلال بعض الاراضي . اما فخر الدين فضماناً لعهده سأل السيدين ده سيون ورافيلي[2] من فرسان مالطه، وكان مركبهما راسياً في حيفا، ان يقبلا فيه ولده الامير منصور ومليوناً من الذهب ليسلماهما الى الغراندوق . وكان قد اكتشف طريقة لاحتلال القدس دون مقاومة » . وفي مكان آخر اعلمنا الاب روجيه ان « سنجق القدس كان قد وعد الامير بتسليمه المدينة المقدسة يداً بيد » .

(١) اوربانس الثامن عم الكردينال المذكور .
(٢) De Sion. Raveli.

***

من اعظم مفاخر فخر الدين اقدامه على هذا المشروع الخطير والسعي في انجازه مدة ثلاثين سنة . حاول الاتفاق عليه مع ملكي اسبانيا وفرنسا، ومع عواهل تسكانا فردنان الاول وقزما الثاني وفردنان الثاني، ومع الكرسي الرسولي وفرسان مالطه . ولما رأى اعراضهم عنه حصر آماله بغراندوق تسكانا والكرسي الرسولي . واكتفى منهما بستة آلاف محارب يضبطون قلاعه الساحلية، وخمسين مركباً يغزون قبرس ويحمون شواطئه من هجمات الاسطول العثماني. فقد كان واثقاً بكفاءته ان يصمد في البر وحده امام كل القوات العثمانية . صرح بذلك في السنة ١٦٠٨ واقام البرهان عليه فعلاً في السنة ١٦١٣ لما ردّت قلعتان من قلاعه اربعة وثمانين الفاً .

فمشروعه اذاً مع خطورته لم يكن ضرباً من الاوهام . لانه استطاع وحده بدون مساعد اجنبي ان يوحّد لبنان، ويضم اليه سوريا وفلسطين وشرق الاردن وجزءا من الاناضول . واصبحت اورشليم على قاب قوسين من حدود مملكته العظيمة . فان دفع بحياته ثمن حزمه وجرأته لم يكن الذنب ذنبه . لو شاء امراء اوربا لسلمهم القدس يداً بيد، وقلب وجه تاريخ الشرق بل تاريخ العالم، باعادة المدنية المسيحية الى الشرق مزدهرة، ووفر على رعايا الدولة العثمانية المسيحيين ثلاثة قرون من الاضطهادات، وعلى تاريخ الانسانية صفحات مخجلة من التعصب والهمجية .

ومع ذلك فعمل فخر الدين لم يمت معه . بحكمته وبسالته وثباته ضمن لاسرته وانسبائه الحكم اكثر من قرنين، وللبنان وحدته واستقلاله، ولشعبه الراحة والرفاهية والنهضة القومية والثروة التجارية والزراعية والعلمية . فاصبح لبنان منارة للثقافة في الشرق ومبعثاً لنهضته الحاضرة .

كان اذاً فخر الدين عظيماً باخلاقه وادارته وسياسته . فكتب لاسمه الخلود[1] .

ولننتقل الان الى الوثائق

بيت شباب دير مار انطونيوس النبع
في ٢٨ آب ١٩٣٧

الخوري بولس قرالي

(١) ف ١٢٣ – ١٢٨

تآليف صاحب المجلة

غرش سوري

٢٥٠ فخر الدين المعني الثاني ودولة تسكانا . الجزء الاول . الوثائق الغربية ٤٩٨ صفحة (بالايطالية)
٥٠ فخر الدين المعني الثاني . ادارته وسياسته ١٥٦ صفحة
٥٥ السوريون في مصر . جزءان
٣٥ اهم حوادث حلب في النصف الاول من القرن التاسع عشر
٢٥ عود النصارى الى جرود كسروان (١٦٢٠-١٧٢٩)
٢٥ الطريقة الجلية في تعليم اللغة الافرنسية
٦٠ الامير بشير الشهابي الثاني . جزءان
٥٠ اللآلي في حياة المطران عبدالله قرالي
٣٠ استشهاد الاب توما الكبوشي في دمشق سنة ١٨٤٠
٣٠ النصرانية والاسلام . مجادلة للراهب جرجس من دير مار سمعان
٣٠ حروب المقدمين نقلًا عن زجلية ابن القلاعي
٣٠ دلال . رواية تاريخية في عهد الامير بشير
٢٥ رحلة فخر الدين المعني الثاني الى ايطاليا (بالايطالية)

مطبوعات المجلة البطريركية

٦٠ حروب ابرهيم باشا المصري في سوريا والاناضول . تعليق الدكتور اسد رستم . جزءان
٣٠ لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده . للشيخ بولس مسعد
٢٥ رحلة الاب دنديني الى لبنان في السنة ١٥٩٦ . عربها الخورسقف يوسف العمشيتي

تطلب من ادارة المجلة ومن وكلائها . ومن مكتبة سليم صادر ببيروت ومكتبة الهلال بالفجالة بمصر

La Revue Patriarcale 10e année Février-Mai 1935

P. PAUL CARALI

FAKHR AD-DĪN II

PRINCE DU LIBAN

SON ADMINISTRATION ET SA POLITIQUE

1590-1635

ŒUVRE PUBLIÉE SOUS LES AUSPICES
DE L'ACADÉMIE ROYALE D'ITALIE

IMPRIMERIE DE SAINT PAUL - HARISSA (LIBAN)

1937